الأجيال لا تموت

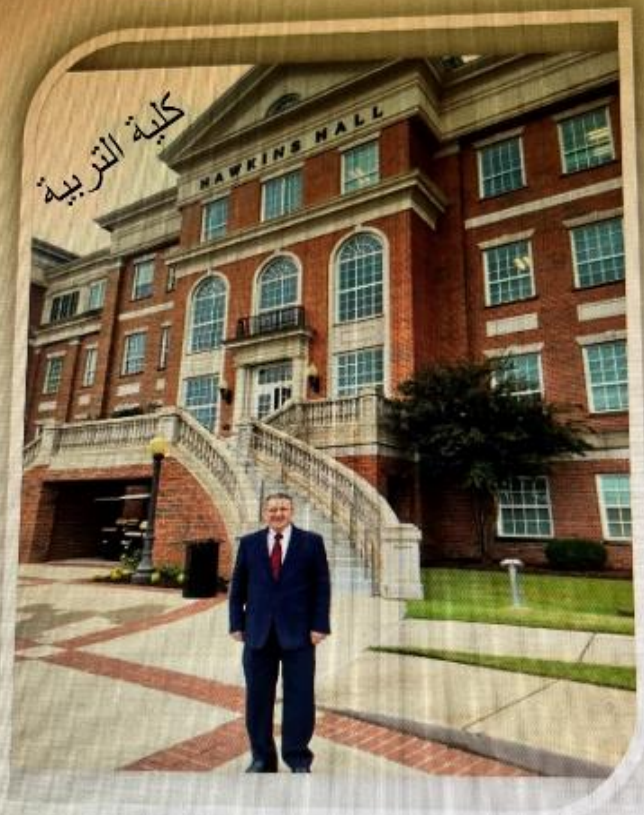

قصص حقيقية من رواية سيرتي الذاتية

رياض شكيب العيسمي

الأجيال لا تموت

قصص حقيقية من رواية سيرتي الذاتية

رياض شكيب العيسمي

الطبعة الأولى: نيويورك 2023

978-1-7923-9181-1

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

*** الصورة من أمام الباب الخلفي لكلية التربية في جامعة تروي في ولاية ألاباما الأمريكية، والتي أعملّ في ملاكها التعليمي منذ أكثر من 23 عاماً، أكثر من نصف حياتي الوظيفية. وهي تحمل اسم رئيس الجامعة، جاك هوكينز. ولكلية التربية بشكل عام دلالة رمزية بكونها المكان الذي يتخرج فيه الأساتذة الذين يُخرجون الأجيال. وأما الوقوف أمام باب الخروج هو للتدليل على أنني في طريقي إلى التقاعد لفسح المجال لجيل جديد من الأساتذة الجامعين.**

ساهم في تصميم الغلاف الخارجي الطالب الشاب أيمن مقلد

المحتويات

الإهداء ---------- 5

توطئة ---------- 6

البداية في امتان والدرس الأول من رجل المهمات الصعبة ---------- 8

الامتحان المُبكِر وختم المدرسة المفقود ---------- 14

الظلال القاتمة تحت عرائش الياسمين ---------- 19

الهوية المثقوبة ---------- 22

المواجهة المباشرة مع رموز السلطة الجديدة ---------- 24

مطاردة الأمل على ضفاف دجلة ---------- 29

على بطاح الأحواز ---------- 35

السفر إلى الولايات المتحدة ---------- 40

1982عامٌ حزين وحافل بالأحداث ---------- 46

اجتياح بيروت ---------- 49

العراق يتجه نحو المجهول ---------- 52

زوار الفجر في ديترويت ---------- 58

غزو الكويت وقصة الحلاق الأرعن ---------- 65

الصدفة البريئة ---------- 70

رجل أعمال بالصدفة ---------- 78

الاستحقاق المُؤجل والدين المُتأخر ---------- 82

اللقاء الذي طال انتظاره لأكثر من ربع قرن ---------- 84

العودة إلى سورية بعد ثلاثة عقود ونيف ---------- 88

تسوية الوضع والعودة إلى نقطة البداية في امتان ---------- 96

مبادرة الأجيال ---------- 104

حمود الشوفي شهيد الحرية الذي سقط من غير دماء ---------- 106

شيلي العيسمي- أخافهم حضوره، فغيبوه ---------- 110

رثاء والدي ووالدتي وشقيقتي ميادة ---------- 114-118

التخرج في زمن الكورونا- لينا العيسمي قُصةُ نجاحٍ تُروى ---------- 119

لميس..... ---------- 124

نافذة الأمل ---------- 127

كلمة أخيرة لا بد منها ---------- 128

تحية حب وعرفان ---------- 129

بطاقة شكر وامتنان ---------- 131

شهادة أعتز بها من مربية الأجيال، السيدة سلوى عزام ---------- 132

حصاد العمر- ملخص السيرة الذاتية ---------- 133

من أرشيف الذاكرة-أهم محطات السيرة الذاتية بالصور ---------- 137

هذا لكتاب - بقلم الأديب والروائي فوزات رزق ---------- 145

يمكن للطغاة أن يقمعوا جيلاً يطالب بالحرية، لكنهم لن يستطيعوا أن يمنعوا ميلاد أجيالٍ جديدة. فالحرية مشروع أجيال، والأجيال لا تموت.

ا لإهداء

إلى المشاعل التي تنير الدرب للأجيال كي تطرد قوى الظلام من مدن الأحلام

توطئة

ما يتضمنه هذا الكتاب هو ليس مذكرات مُدونة لأحداثٍ مهمة وقعت عبر مرحلةٍ من الزمن. فالمذكرات ً يكتبها عادةً سياسيون كبار كان لهم دورهم في الحياة السياسية العامة وتأثيرهم على حياة الناس في محيطهم. أو يعرضها رجال دولة مهمين كان لهم نشاطاتهم وإنجازاتهم التي تركت أثرا ً على حياة مجتمعاتهم وشعوبهم. أو يقدمها مشهورون تابعهم الناس عبر وسائل إعلام مختلفة. فأنا لست أياً من هؤلاء، وما أُقدمه هنا هو مجموعة قصص حياتية حقيقية. تروي الأحداث كما عايشتها شخصياً وأثّرَت على حياتي في وطني الأم سورية، والعراق وطني بالتبني. وأيضا حياتي في الولايات المتحدة، وطن الاغتراب القسري، حيث مازلت أعيش وأعمل. وليس الغرض من هذه القصص هو توثيق أحداث بعينها، أو تقديم أي نوعٍ من التحليل السياسي أو إطلاق الأحكام السياسية وتعميمها، وإنما مجرد سرد وتوصيف للأحداث السياسية والمهنية المتعلقة بي كما عرفتها وعايشتها شخصياً. ولكون هذا الكتاب هو بمثابة رواية شخصية لقصصٍ حقيقية، تحفظت على ذكر الأسماء الكاملة للأشخاص الذين أعرف بأنهم مازالوا على قيد الحياة. وذلك حرصاً مني على خصوصيتهم وعدم تعريض أمن بعضهم للخطر، واكتفيت بالاسم الأول فقط. كما ولا أدّعي بأن ما أقدمه في هذا الكتاب من قصصٍ تتعلق بحياتي الشخصية هو عملٌ أدبي رصين. فأنا لست بأديب او روائي، وإنما كاتب. أكتب عن الإنسان والحياة بأسلوبٍ أدبيٍ وأسرد الأحداث الواقعية بطريقة قصصية. وأما أسلوب العرض المسرحي المُتبع في التركيز على المشهد والدور والحوار الداخلي، يعكس بشكل أساسي دراستي للفنون المسرحية في مطلع حياتي الجامعية. فالحياة بحد ذاتها هي عبارة عن مسرحٍ كبيرٍ ومُتَسِع. يظهر عليه الناس، ويؤدون أدوراً مختلفة. ودور الإنسان على مسرح الحياة يبدأ بصرخة الولادة وينتهي مع شهقة الموت. وذلك لأن كل من وُلِدَ سيعيش، ويموت يوماً. وفي ظل تعذر الخلود، يبقى الموت هو القدر الوحيد المحتوم في الحياة. ولهذا أنا لا أخشاه، لكنني لا أحبه. فهو مَحفلُ نهايتي الذي لا أستطيع حضوره بإرادتي. وبالمقابل أحب الحياة. وسأظل أمارس طقوسها بكل جوارحي، وإلى أن تحين الساعة ويستعيد الروحَ مني من كان قد أودعها في جسدي. وعندها سأستسلم لقدري وأمضي إلى العالم الآخر بسلام. ولكن، إذا ما حاول أحدٌ أن ينتزع الروح مني عنوة، سأقاوم. ولن أسمح لقاتلي أن يحدد نهايتي.

لقد عشت جُلَّ حياتي في غربةٍ قسرية بعيداً عن الأهل والوطن. لكن حلمي بالعودة إليه لم يتوقف ولا للحظة بالرغم من طول الفترة، والتي ماتزال مستمرةً لما يقارب نصف القرن. ولديَّ رواية مليئة بالأحداث والأحزان، والصُدف والمفاجآت، والإخفاقات والنجاحات التي تراكمت عبر السنين. وأعتقد بأنها تستحق المشاركة، وشاركتها بنفسي بصدقٍ وأمانة كما عرفتها وعشتها، أو تعايشت معها.

يتضمن هذا الكتاب مجموعة قصص شخصية ذات أحداث متصلة منذ ولادتي في سورية عام 1955 وخروجي منها وسفري إلى العراق بغرض الدراسة الجامعية عام 1974. وسفري إلى الولايات المتحدة لمتابعة الدراسات العليا عام 1981. وأيضا اغترابي القسري في الولايات المتحدة لعدم قدرتي على العودة الآمنة إلى سورية. وأيضاً بعد أن قررت عدم العودة إلى العراق، والذي وجدته في أخر زيارة عام 1983 قد وصل إلى طريق مسدود وبات يتجه نحو المجهول. كما وأعرض قصة لقائي بوالدي ووالدتي في الولايات المتحدة لأول مرة عام 2001 بعد انتظار دام لأكثر من ربع قرن. وقصة عودتي إلى سورية ولقائي ببقية أهلي بعد ثلاثة عقود ونيف، عام 2007. وقصص أخرى عديدة متنوعة شملتها مسيرة حياتي، ومقالات مختارة. وكل ما جاء في هذا الكتاب يعكس المراحل العمرية التي مررت بها طوال حياتي، وهي متفاوتة بطبيعتها ومستواها. وبالنتيجة السيرة الذاتية هي تجربة حياتية تتراكم فيها الأحداث وتتبدل خلالها المُتغيرات. ولهذا كان إنجاز الكتاب مهمة صعبة بالنسبة لي، بالرغم من محدوديته. وذلك لأنه من الصعب أن يكتب الإنسان عن نفسه دون تَحيُّز. فهو مُنحازٌ لذاته بالغريزة. ومن يكتب كتاباً يأمل عادةً في أن ينال القبول والاستحسان، أما من يكتب سيرةً ذاتية فحسبه أن يتجنب الانتقاد والملامة. وهذا جُلَّ ما أتمناه. وذلك لأن القصد الأساسي من وراء هذا الكتاب هو ليس لتعميم تجربة خاصة وقعت لي في الماضي، وإنما محاولة متواضعة لتعريف الأجيال الجديدة بها. عَلّهم يجدون فيها ما يمكن أن يستفيدوا منه وهم يشقون طريقهم نحو المستقبل. والله من وراء القصد.

.

رياض شكيب العيسمي

الولايات المتحدة 15 أذار، 2023

البداية في امتان

والدرس الأول من رجل المهمات الصعبة

كانت البداية في صباح اليوم الأول من عام 1955 في **قرية امتان** في الجنوب الشرقي لمحافظة السويداء السورية الواقعة على الحدود الجنوبية مع الأردن. وفي بيت جدي **أبو علي سليمان العيسمي** نشأت وترعرعت، ومنذ نعومة أظافري تعلمت منه الدرس الأول في الوطنية والنضال. وسمعت منه العديد من قصص التضحية والفداء. وفي تلك الدار تفتحت عينايَّ على العمل السياسي والانخراط في الشأن العام. حيث كان جدي أبو علي سليمان قد َورِثَها هو وأخوه الأكبر **أبو حمد يوسف** عن والديهما **حمد العيسمي**، الذي كان أحد قادة **ثورة العامية** في جبل العرب. وجاءت ثورة العامية (1890-1888) لتضع حداً لسلطة الإقطاع التي كان الاحتلال العثماني قد فرضها ورسخها في المنطقة. فهي كانت تُعطي للإقطاعي ليس حق ملكية الأرض الزراعية وحسب، وإنما حق السُخرة للفلاحين. وذلك لأن العمال الزراعيين كانوا يعملون عند الإقطاعين كأقنان (يعملون في أرض الإقطاعي وبيته مقابل ضمان الحد الأدنى من معيشتهم هم وعيالهم). وكان العامل الزراعي في حينها لا يملك سوى باب البيت المتواضع الذي يمنحه له الإقطاعي خلال فترة عمله عنده. وكان إذا ما غضب الإقطاعي منه لسبب ما، يفرض عليه أن يحمل بابه ويرحل من البلد الذي هو تحت سلطته. وبهذا يتوجب عليه أن يذهب هو وعائلته وبابه إلى قريةٍ أخرى، وليخدم إقطاعياً آخر. وهكذا كان يمكن أن تتكرر مثل هذه الأحداث لقصص مشابهه في كل يوم، والتي لم تكن لتنتهي لولا نجاح ثورة العامية بتثبيت الملكية لصغار الفلاحين وتحسين ظروف العمل للعمال الزراعيين. كما وكان حمد العيسمي أحد الرجال الأشداء الذين ثاروا على الاحتلال العثماني لسورية وطالبوا برحيله. فاعُتقل ونُفِيَّ عدة مرات. كما وهدم وأحرق العثمانيون داره مرتين، مره في عام 1895على إثر دخولهم السويداء بعد معركة دامية إبان حكم ممدوح باشا. والأخرى كانت عام 1910 في زمن سامي باشا، وقبل وفاته بقليل.

وكما ورث جدي أبو علي سليمان وأخوه أبو حمد يوسف الدار عن أبيهما، تعلما منه أيضاً النضال وحب الوطن وكيفية الدفاع عنه. فكانا من أوائل المُلبيين لنداء **الثورة السورية الكبرى** التي انطلقت عام 1925 بقيادة سلطان الأطرش في جبل العرب ضد الاحتلال الفرنسي. وكان أبو حمد يوسف العيسمي أحد أركان الثورة الأساسيين والناطق الرسمي باسمها في المحافل العربية والدولية. وشارك هو وأخوه،

جدي أبو علي سليمان، في كل معارك الثورة ضد الجيش الفرنسي على أرض الجبل. وكان جدي أبو علي في كل مرة يذهب إلى المعركة بحماس عارم. ويتقدم لملاقاة جيش المحتل بشجاعة وإصرار على القتال، وغير آبه بالموت. وما إن كان يُعلنُ عن موعد المعركة حتى يسارع أبوعلي لتحضير سلاحه وذخيرته. ويُسرج على جواده وينطلق به كالسهم الموجه إلى أرض المعركة. وكان قد نجا من الموت عدة مرات. ففي معركة المزرعة، ثاني معارك الثورة، قصف الجيش الفرنسي الثوار بالطائرات فقُتل حصانه. وبقي هو يقاتل راجلاً إلى أن انتهت المعركة، وانسحب الثوار إلى مواقعهم بعد أن أبلوا بلاءً حسناً. وكبدوا الجيش الفرنسي خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات. وهذا ما جعل الثوار يزهون فخراً بالانتصار على العدو للمرة الثانية بعد نصرهم عليه في المعركة الأولى، الكفر. لكن أبا علي وبالرغم من فرحة الانتصار، كان حزينا على فقدان حصانه الذي كان قد أهداه له الدكتور **عبد الرحمن الشهبندر** الذي كان بمثابة العقل المُدبر للثورة. وذلك تقديراً منه لشجاعة جدي أبوعلي في معركة الكفر، والتي كان قد دخلها فارساً بلا جواد. لكنه سرعان ما تدبر أمرة بشراء حصان أخر بعد معركة المزرعة تحسباً لمعركة قادمة. وانتقاما لهزيمته وخسائره في مِعركتيّ الكفر والمزرعة، استدرج الجيش الفرنسي الثوار لاحقا إلى منطقة مكشوفة بالقرب من سد بحيرة أبو زريق في الوقت الذي كان ينصب بطاريات مدافعه على ظهر تل اللوز المُطِلّ على المنطقة. وما أن تقدم الثوار لملاقاة الجيش الفرنسي القادم من سفح التل حتى بدأت حمم المدفعية الفرنسية تُمطر الثوار المتقدمين بحماس بزخم ناري غزير. فانفجرت بالقرب من جدي أبوعلي قذيفة، وأصيب بإصابةٍ بالغة. فوقع مباشرةً على الأرض بعد أن فقد الوعي. وكانت شظاياها المتطايرة قد أصابت أيضاً حصانه الجديد بشكل مباشر فقُطعت رقبته، وانفصل رأسه عن الجسد. فتهاوى الحصان وسقط صريعاًفوق جسد جدي أبوعلي المطروح على الأرض والمضرج بالدماء. وفي طريق الانسحاب مر به أحد رفاقه الثوار، فاعتقد بأنه قد قضى في هذه المعركة. فما كان منه إلا أن أخذ عباءته المُبللة بالدم وجعبة الذخيرة التي كانت قد خلت من كل شيء سوى بضع رصاصات لم َيتسنَ له إطلاقها قبل أن يقع على الأرض ويفقد الوعي. فحملهما الثائر معه وعاد بهما إلى قرية امتان مسقط راس أبو علي. وهناك سلمها لفرحات العيسمي، عمه أبو زوجته، على أنه أحد شهداء معركة أبو زريق. لكن عمه فرحات تأخر في إعلان الخبر. وحرص على ألا تعلم ابنته زيده (جدتي) بالموضوع. وذلك لأنه لم تكن لتمضي سوى بضعة أسابيع على استشهاد ولده الأكبر وأخيها زيدان في معركة المزرعة. وكذلك لم تكن قد رَعبنت (مرور أربعين يوما على الولادة) بعد ولادة ابنها شكيب

(والدي)، والذي ولد ووالده أبا علي كان يقاتل في معركة الكفر. فالصدمة لا شك بأنها كانت ستكون قويةً عليها إذا ما عرفت أيضاً باستشهاد زوجها أبوعلي. لكنه وعندما علم بأمر استشهاد أبوعلي سليمان صديق شبابه ورفيق دربه في الثورة المجاهد **سلمان الجبر**، أصَرَّ على أن يعود قافلا إلى أرض المعركة حيث أخبرهم الرجل بأنه وجده مقتولا. وذلك كي يدفنه بنفسه في ارض المعركة كما يستحق. وفي هذا الوقت كان الجنود الفرنسين، التواقين للانتقام وإعدام كل الجرحى الذين سقطوا على أرض المعركة ولم يَتسنَ لرفاقهم إخلاءهم، قد مروا بجواره. وبدأوا يطلقون النار على كل جريح كانوا يرونه يتحرك. ولما وصلوا عند جدي أبوعلي ورأوه مُضرجا بالدماء وحصانه مقطوع الرأس ومكوماً فوقه، لم يخامرهم أدنى شك بأنه لم يُقتل. ولهذا لم يكنوا يريدون أن يخسروا عليه ولو طلقة واحدة. فمضوّا عنه وانصرفوا لغيره من الجرحى كي يجهزوا عليهم جميعا. وعندما وصل إليه سلمان الجبر وحاول بكل ثقله أن يدفع صدر الحصان من أسفل الرقبة المقطوعة إلى الأعلى كي يتسنى له إخراج رفيقه أبا علي من تحته. وما أن بانت كف جدي أبي علي اليمنى حتى أمسك سلمان الجبر بمعصم يده وهَمَّ بسحبه من تحت الحصان الصريع. وكانت المفاجأة عندما أحَسَّ بأن النبض مازال يتواتر بطيئا في عروقه. وبعد جهد جهيد سحبه من تحت الحصان. وأردفه خلفه على حصانه ووصل به إلى أقرب قرية، كي يتم تضميد جراحه. وبهذا كان أبوعلي سليمان حمد العيسمي بمثابة **"الشهيد الذي بُعِثَ حياً"**، وعاد ليُخبر بهول ما جرى له. وليقاتل في معركة أخرى ويتابع مسيرة النضال الدامي والمرير مع الاستعمار الفرنسي.

كان أبوعلي سليمان يتنطح لكل المهمات الثورية الصعبة من استكشاف مواقع متقدمة للعدو قبل بدء المعارك وتأمين الذخيرة والمُؤن للثوار. وكذلك التسلل مع مجموعات من الثوار الشجعان إلى خلف مواقع العدو بغرض إلهائه وتشتيت قواه. وهذا ما دعا **سلطان الأطرش** القائد العام للثورة لتسميته ب **"رجل المهمات الصعبة."** وكان قد تابع تنفيذ المهمات الصعبة حتى بعد أن نفت فرنسا الثوار بالتوافق مع الإنكليز إلى منطقة الأزرق في الأردن، والتي كانت في حينها تحت سلطة الاحتلال الإنكليزي. وذات مرة تنكر جدي أبوعلي سليمان بزيٍ بدوي، وأطلق على نفسه أسم **"عواد الحمد."** ولم يكن اختيار هذا الاسم عبثاً. فعوّاد هو كنايةً على أنه سيعود إلى الوطن بشكل متكرر. وحمد هو اسم والده الذي كان قد ثار ضد الاحتلال العثماني. وامتهن عواد الحمد **بيع الملح** بين ليلة وضحاها. وتدبر له جملاً وقاده إلى مَلاحّات الأزرق التي كثر فيها الملح. فأناخ الجمل وسط هضاب الملح في صحراء الأزرق

ووضع على ظهره كل ما استطاع الجمل حمله من ملح، وهم قاصداً به شطر الوطن، سورية، وتحديدا قريته امتان. وكانت امتان هي المكان حيث ولد وأمضى فيها سِنيّه الثمانية والعشرين قبل أن يلتحق بالثورة. وامتان هذه تبتعد عن مكان تواجد الثوار في الأزرق حوالي الخمسين كيلومتراً. ولذا كان عليه أن يذهب أولا إلى منطقة المفرق. وهي أقرب نقطة أردنية من الحدود السورية بالمقابل من قرية امتان. بات ليلتها في المفرق. قضى ليلته وهو ينظر إلى الشمال عبر الحدود ويراقب الشمس على يساره وهي تسقط في بحر الظلام الذي بدأ يخيم على عمان في الغرب. وقبل أن ينبلج الفجر في اليوم التالي، انطلق عواد الحمد بجمله وملحه صبيحة ذلك اليوم ونظره مُصوّباً نحو الوطن. ووجهته قريته أمتان حيث كان الجيش الفرنسي قد وصل إليها. وتمركز فيها وجعل منها نقطة التواصل مع الإنكليز الذين كانوا يتواجدون في الأردن. ووصل عواد الحمد امتان بجَمَلِهِ ومِلحِهِ. وكانت مهمته الأساسية هي رصد مواقع الجيش الفرنسي في القرية وتحركاته وخططه. وذلك لغرض دراسة إمكانية القيام بعمليات فدائية خاطفة ضده. فأناخ عواد الحمد جَمله في الساحة العامة للقرية بجانب العامود الروماني الأثري. وبدأ ينادي على بضاعته بلهجة بدوية. وعندما عَلمت نساء القرية بوجود بائعٍ للملح فيها، بدأن يذهبن إلى الساحة لشراء الملح من البدوي. وكان ابوعلي يعرف معظمهن. لكنه لم يشأ أن يفتح أحاديثاً خاصة مع أيٍ منهُن. وذلك خوفا من أن تبوح أحداهن بالسر، فينكشف أمره. قاربت الشمس على المغيب وأصبح يتوجب عليه الرحيل. وبالرغم من أن المرأة التي كان ينتظرها لم تأتِ بعد، لكنه لا يستطيع أن يغامر بأي تحرك غير محسوب. وبينما كان يهم بجمع ما تبقى لدية من ملح غير مُباع ليضعه على ظهر جمله ويمضي، شاهد امرأة تقترب منه مسرعة. وما أن أصبحت على بعد أمتار منه عرف بأنها هي المرأة التي كان ينتظر. فثبتَ نظره عليها وبقي يراقبها حتى اقتربت منه. وكان قلبه يخفق مع كل خطوة تخطوها نحوه. وبحالة عاطفية لا شعورية هم بفتح الحديث معها. وأن يخبرها بكل شيء. لكنه سرعان ما أدرك بأن عليه أن يبقى متماسكاً وأن يقاوم إغراءات الحديث المباشر مع أهل القرية. وألا يقوم بأية حركة تُلفت نظر الجنود الفرنسيين الذين كانوا في الساحة يراقبون حركة الناس. ويبحثون عمن يشتبه بهم بأنهم من عناصر المقاومة. وأراد على عجل أن يبيع ما تبقى لديه من الملح لهذه المرأة. فطلبت منه صاعا من الملح. فأكتاله لها وأفرغه لها في كيس كانت قد جلبته معها. وزاد عليه كل ما تبقى معه من ملح، وقال لها: "وهذه تطبيشه لك لأنها أخر بيعة." وعندما همت المرأة بحمل كيسها، قال لها بلهجته بدوية محكمة: "خلّ عنك يا خالة، خل عنك، أني أزملك إياهم للبيت." فقالت: "مشكور يا ابني."

فوضع كيس المرأة على ظهره ورافقها إلى دارها، والتي لم تكن ببعيدة عن الساحة العامة. وعندما وصلا إلى البيت، دخلت المرأة أمامه كي تُريه أين سيضع لها ما اشترته من ملح. لكنه لم يكترث للمكان. فوضع الملح على الأرض خلفها وانهال عليها يقبلها، وقال لها على الفور حتى يطمئنها: "لا تقلقي يا أمي أني أبنك، أنا سليمان." لم تصدقه في البداية. وذلك لأنه، وبعد أن أطال شعره وجَدّلَهُ، وأرخى لحيته، ووضع على راسه عقالاً وكوفية، تغيرت كل ملامحه. ولكنها تأكدت منه عندما أظهر لها علامة فارقة تحت ذقنه كانت تعرفها جيدا. حيث تعودت تقبيله عليها منذ أيام طفولته. فقّبَلَ رأسها ويديها وطلب منها الدعاء والرضاء. وطلب منها أيضا بألا تُعلم أحداً بمجيئه إلى القرية قبل يومين، وحتى يكون قد وصل عائدا إلى الأزرق. لقد أبى أبوعلي سليمان أن يرحل قبل أن يرى والدته ويودعها. فهو لا يعرف ما قد تُخبئه له الإيام في المنفى. ولربما سيبتعد عنها لمدة طويلة. وبعد أن أمضى فترة قصيرة وحَذِرة مع والدته، عاد إلى جَمله وأكياس الملح الفارغة التي كان قد تركها في الساحة. فجمعها وغادر امتان قبيل غروب الشمس. وذلك بعد أن نفذ المهمة بنجاح، بالرغم من خطورتها في حال انكشاف أمره. وفي اليوم التالي عاد إلى موقعه مع رفاقه الثوار في الأزرق ليخطط وينفذ مهمة جديدة. انتهت مهمة **بائع الملح**، وبقي اسم عواد الحمد يرافقه في مهماته وتنقلاته طوال الثورة. وحتى خلال فترة تواجده في وادي سرحان في صحراء النبك السعودية حيث طلب الفرنسيون من الإنكليز مجدداً نفي الثوار إليها. كما وبقي يعرف باسم أبوعلي عواد طوال حياته. وبعد أن عاد أبوعلي عواد مع الثوار من وادي السرحان إلى سورية بعد قضاء أكثر من أربعة أعوام في المنفى، وجد الدار وقد هدمها الفرنسيون كما هدمها العثمانيون مرتين من قبل. والمطحنة التي كان يعيش بمردودها أهل الدار كانت مُقفلة ومُعطلة. والأرض الزراعية التي كانت مصدر الرزق الأساسي لهم كانت قد بارت وأصبحت غير مُنتجة. فما كان منه إلا أن ذهب إلى فلسطين حيث كان يتوفر العمل. وكان في نيته أن يجمع مبلغاً من المال ليعود به إلى سورية، ويبدأ حياته هو وعائلته إلى أن يتم إصلاح ما أفسده الفرنسيون. وكان قد ذهب معه زوج أخته وأخو زوجته في نفس الوقت **فايز العيسمي (جدي لأمي)**. وكانا يعملان في النهار في بيارات البرتقال في حيفا. وفي الليل يلتحقان برجال المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإنكليزي. وبقيا على هذه الحالة إلى أن قُتِلَ جدي فايز ذات ليلة بحادث مُدبر. فسقط على أرض فلسطين شهيدا ودفن فيها، في دالية الكرمل. فعاد جدي أبوعلي عواد إلى سورية قاطعاً وجوده في فلسطين كي يبني حياته وحياة عائلته من الصفر مع جدتي أم علي زيده ووليديهما شكيب وحديثي. وذلك

بعد أن قضى أبنهما البكر علي وهو في الثانية من عمره على أثر إصابته بالحصبة قبل بدء الثورة وعدم قدرتهما على إسعافه بسبب مُضايقات الاحتلال وضيق الحال. أما والدي شكيب الذي ولد عام 1925 بعد بدء الثورة بقليل، وعندما عادوا من وادي السرحان، كان عمره لا يتجاوز السبعة أعوام. وكان جدي قد أسماه بهذا الاسم تَيَمُناً باسم أمير البيان **شكيب أرسلان**. والذي أطلق في حينها الدعوة في المحافل الدولية بالرحيل الفوري للاستعمار الفرنسي عن سورية ولبنان. أما عمي حديثي فكان قد ولد وهم في المنفى في وادي السرحان عام 1929 في منطقة الحديثة، فأسموه على اسمها (1).

مع الوالد والوالدة في أقدم صورة متوفرة، عام 1958، وكنت بعمر ثلاث سنوات

---

(1) كما أخبرني بها المرحوم جدي أبوعلي، ونقلاً عما وَثقَهُ أخي، كمال العيسمي، في كتابه "مختارات من الثورة السورية الكبرى عام 1925: المجاهدان يوسف وسليمان حمد العيسمي." الصادر عن دار العوام للنشر والتوزيع. سورية- دمشق 2014.

الامتحان المُبَكِر وختم المدرسة المفقود

كان عام 1955، العام الذي وُلدت فيه، عامَ انفراجٍ على عائلتنا بشكل خاص وعلى سورية بشكل عام. حيث خرج ابن عم والدي **شبلي العيسمي** من السجن بعد سقوط حكم أديب الشيشكلي عام 1954. وكان قد أُتهم بالتظاهر ضد الحكم وتوريع المنشورات المعادية. حيث كان الأستاذ شبلي العيسمي، والذي سأخاطبه في هذا الكتاب **بعمي شبلي** لما كان له من تأثير كبير عليَّ على الصعيدين الشخصي والسياسي، أحد مؤسسي حزب البعث. وكان حزب البعث في حينها ضد الانقلاب العسكري الذي قاده العقيد **أديب الشيشكلي**. وبعد سقوط الشيشكلي وإعادة الرئيس **هاشم الأتاسي** إلى سدة الرئاسة وعودة الحياة البرلمانية إلى سورية، تم انتخاب السيد **شكري القوتلي** زعيم حزب الكتلة الوطنية مرة أخرى لرئاسة الجمهورية عام 1955. حيث كانت رئاسته الأولي بين عامي 1943 - 1949، والتي أطاح بها أول انقلاب عسكري في سورية بعد الاستقلال وقاده اللواء **حسني الزعيم**. وكان شكري القوتلي ذا ميولٍ قوميهٍ ووحدوية يتلاقى فيها مع مبادئ حزب البعث. فتم الاتفاق مع الرئيس **جمال عبد الناصر** الذي كان يحكم مصر على قيام الوحدة بين مصر وسورية عام 1958. وبهذا تنازل شكري القوتلي للرئيس عبد الناصر عن رئاسة سورية، وليصبح عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة.

في شهر شباط من عام 1960، جاء الرئيس جمال عبد الناصر، رئيس الجمهورية العربية المتحدة، بزيارة تفقدية إلى الإقليم الشمالي سورية، كما كانت تعرف أيام الوحدة. وزار وقتها محافظة السويداء. فتجمع مجموعة من رجال وشباب القرية في دارنا لغرض الذهاب إلى السويداء للمشاركة في استقبال الرئيس عبد الناصر. ولما علمت بأن والدي سيذهب معهم، اصطليت عليه وألححت على الذهاب معه. وكنت في حينها قد بلغت الخامسة من عمري قبل أقل من شهرين. وبعد جهد جهيد والكثير من البكاء، وافق والدي على أن يأخذني معه. وعندما وصلنا إلى السويداء، كان الناس يصطفون على جانبي الطريق لاستقبال الرئيس عبد الناصر. فاصطففنا معهم. وحملني والدي على كتفيه. وما أن اقترب منا موكب الرئيس عبد الناصر حتى انتزعني من على كَتفيّ والدي شاب من عائلتنا كان يقف بجانبنا، يدعى **محمود القادر**. وكان قد لقب بالقادر لطول قامته وقوته. فضم قدميَّ الصغيرتين براحة يده اليمنى بقوة، وأمسك بيده اليسرى يدايَّ النحيلتين، وأطلق بي إلى الأعلى. فانتصبت واقفاً على راحة كفه. وكنت أرى من الأعلى موكب عبد الناصر وهو يقترب. وكان يقف في سيارة مكشوفة مُحيياً الجماهير المحتشدة

على جانبي الطريق، وعلى سطوح الأبنية، وفي الشرفات، وفي كل مكان، وعلى مد النظر. وفي اللحظة المناسبة مع اقتراب موكب عبد الناصر منا، طلب مني محمود القادر أن أهتف بأعلى صوتي: "عاش عبد الناصر، عاش." ففعلت. وردد الناس خلفي الهتاف مبتهجين ومستهجنين من الموقف. ومن ثم دَوىّ صوت الهتاف في كل مكان: **"عاش عبد الناصر، عاش."** ولعدة مرات متتالية (1).

أظهر من بعيد بقميص أبيض في أسفل الزاوية العليا من اليمين بجانب العامود وتحت النقطة السوداء لتلاقي الحبل الأسفل مع العامود. يحملني والدي على كتفيه ويقف بجانبنا محمود القادر. تم استخراج الصورة من الأرشيف للاعتقاد القوي بأنها هي الصورة المقصودة حسب الوصف. **إثناء زيارة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر إلى السويداء في شباط 1961**

---

(1) كما رواها المرحوم السيد محمود حسين العيسمي، أبو مالك.

وعندما وقع الانفصال في العام اللاحق، في أيلول من عام 1961، خَرجتُ في مظاهرة نظمها الطلاب البعثيون والوحدويون الناصريون في مدرسة قريتنا، امتان. وكنت في حينها قد دخلت لتوي الصف الأول. وكنت لم أكمل سن السابعة بعد. وكان من بين المتظاهرين أخي الأكبر كمال، الذي كان يكبرني بحوالي ثلاثة أعوام. وكان حينها في الصف الثالث. وقبل انطلاق المظاهرة بعد انصراف الطلاب على وقت الظهر، طلب مني أخي أن أسرع إلى بيتنا وأحضر علم الوحدة الذي كانت تحتفظ به العائلة. ركضت إلى الدار ودخلت إلى البيت بسرعة وحيث كان يتواجد العلم. التقطه وأسرعت به إلى المدرسة وأنا أرفعه إلى الأعلى وألوّح به. وكانت أنظار أهل القرية من المارة تتابع سير العلم على جانبي الطريق. وعندما وصلت إلى أمام المدرسة، وجدت عدداً كبيراً من الطلاب قد تجمعوا، والمظاهرة كانت تنتظر العلم كي تنطلق. وما أن وصلت بالعلم إلى منطقة التجمع، حتى انتزعه مني أحد طلاب الصف السادس (أعلى صف في المدرسة)، وكان هو أحد المُنظمين للمظاهرة. فرفع العلم عالياً وتقدم المظاهرة، بعد أن دفع بي إلى الخلف. وسارت المظاهرة باتجاه الساحة العامة في القرية يتقدمها حامل العلم، ويسير خلفه طلاب من الصف السادس ومن أصحاب الصوت الجهوري. وانطلق الهتاف الأول مدويا وبصوت واحد: **"لا دراسة ولا تدريس حتى يرجع الرئيس."** وكان المقصود هنا الرئيس جمال عبد الناصر. **أي نحن نطالب بعودة الوحدة**. وفور وصول المظاهرة إلى ساحة القرية، كان بانتظارها رئيس مخفر القرية، المساعد أول **أبو فلوح.** وكان معه ثلاثة من الدرك. وهذا كان هو كل القوة الأمنية في حينها في قرية امتان، والتي لم يكن ليزيد عدد سكانها عن الثلاثة ألاف نسمة. وبينما كلف أبو فلوح دركه الثلاثة بتفريق المظاهرة واعتقال قادتها، تفرغ هو للقبض على حامل العلم، ومصادرة العلم منه.

لكن حامل العلم كان أذكى منه، فبحث عني بسرعة وسلمني العلم وهمس في أذني قائلا: "عجل أركض على قد ما فيك، وروح خبي العلم." وبالفعل أخذت منه العلم وركضت به مسرعا باتجاه دارنا. ولم يكن أبو فلوح مهتما بحامل العلم بقدر اهتمامه بالعلم نفسه. فترك الطالب الذي كان يحمل العلم يذهب وشأنه وبدأ بالجري خلفي. وكان كبير الحجم وثقيل الوزن. وبحيث كنت اسمع صوت الهواء يخرج من فمه بنفخات قوية ومتقطعة. وكنت أرقبه بطرف عيني. وكان هائجاً يُرغي ويزبد كجمل هائج أدخلت في مؤخرته عصاً لتحريضه على النهوض بالحمل. وما أن فصلتني عنه زاوية بيت حجري كبير، اندفعت إلى داخل الزقاق الضيق المؤدي إلى دارنا، حتى صعدت على درجٍ لمضافة أحد جيراننا.

وقذفت بنفسي من الأعلى ومعي العلم في مستودعٍ مَخفي تحت الدرج كنت أعرفه جيداً. حيث كنا نختبئ فيه عندما كنا نلعب لعبة "إجاك يا جوز" (ما يشابه لعبة عسكر وحرامية). وبدأت أرقب الزقاق من فتحة صغيرة بمقدار حجم العين تكونت بين حجرين كبيرين غير منتظمي الحواف في وسط الجدار. وبعد فترة وجيزة شاهدت أبو فلوح وهو يمشي متثاقلا ويكاد يتنفس بصعوبة. وقد احمرَّ وجهه وانتفخ، وبرزت عيناه كندبتين صغيرتين في كرة لهب متطايرة. وكان قد أخطأ حساباته مرةً ثانية. حيث اعتقد بأنني سأصل بالعلم إلى البيت، وسيقبض علي هناك، ويصادر مني العلم. لكنه وصل إلى بيتنا ولم يجدني فيه، ولم يجد العلم. وبعد استجواب طويل لمن وجده في الدار، أدرك مدى حماقته وخيبة أمله. ورجع إلى المخفر ليتدبر الأمر مع من كان دركه قد اعتقلوهم من الطلاب المتظاهرين. وعندما شعرت بوقع خطىً ثقيلة تحفر أرض الزقاق الترابي قادمة من الاتجاه المعاكس، نظرت من الفُتحة مُجددا وإذا بأبي فلوح عائداً أدراجه يجر أذيال الخيبة وراءه. وبعد أن تلاشى وقع خطواته في الشارع ولم أعد أسمع لها صوتا، خرجت من سقطة الدرج والعلم مازال معي. وذهبت إلى دارنا التي كانت على بعد خطوات قليلة. وفوراً قمت بإخفاء العلم في البيت التحتاني داخل فستان كان في أسفل الصندوق الخشبي القديم، والذي كان جدي قد أهداه لجدتي يوم زواجهما. وعندما صعدت الدرج إلى البيت الأعلى، وجدت والدتي وهي مهمومة ومرتبكة. وسألتني عما جرى. حاولت الإنكار، لكنها لم تُعطني مجالاً للتهرب، وقالت: "أبو فلوح كان هنا قبل قليل. وكان يبحث عنك وعن العلم. وتابعت القول "ماذا حدث، أين أخوك." أجبت "لا أعرف، قد يكون في مخفر الشرطة." فقالت: "يا إلهي، وماذا يفعل هناك." قلت: "لا أدري عندما يأتي ستعرفين منه كل شيء." وبالفعل عاد أخي كمال قُبيل غروب الشمس بقليل. وكان يبدو مزهواً والابتسامة تعلو محياه وهو يصرخ بأعلى صوته: "لقد اعتقلونا وختموا أيدينا بالختم." ورفع يده إلى الأعلى. وكان يلبس قميصا من الكم القصير. فبان ختم الشرطة أزرق مدوراً على معصم يده اليُمنى. وراح يسرد أسماء الطلاب الذين كان معهم في سجن المخفر لعدة ساعات وختمت أياديهم، وتم صرفهم. لقد سررت لفرح أخي بالختم. وأيضا كنت أتخيل كيف كان فرح الطلاب الأخرين الذين اعتقلوا معه. وذلك لأن هذا سيُظهرهم كمناضلين، تَحدوّا سلطة الانفصال الجديدة المتمثلة بمخفر أبي فلوح في قرية امتان. لكنني في الوقت ذاته شعرت بالغُبن والإجحاف. وذلك لأنني لم أُعتقل معهم، ولم تُختم يدي كأياديهم. وأنا من أحضر العلم إلى المظاهرة، ومن هرب به ليحميه من سطوة أبو فلوح وهيمنة الدولة الجديدة. لم أنَم كثيرا ليلتها. وبقيت أُفكر بالموضوع وما يُمكنني فعله. وفي صباح اليوم

التالي ذهبنا إلى المدرسة. وكالعادة أخذ المُعلم التفقد الصباحي، وطلب مُتبرعا ليأخذ دفتر التفقد إلى غرفة المدير، كما جرت العادة. فلم أتردد للحظة بالتطوع للقيام بالمهمة. فهذه هي الفرصة التي كنت أنتظرها. وأخذت الدفتر إلى غرفة المدير. وإذا به كان منهمكاً، وكان الارتباك بادياً عليه. حيث كان لا بد له من أن يُعدَ تقريراً عن المظاهرة التي حصلت، ويرسله إلى مديرية التربية في مركز المحافظة في السويداء. وكان آذن المدرسة يقف بجانبه، ويحاول أن يُهدئ من روعه. فقاطعتهما قائلاً: "هذا دفتر تفقد الصف الأول، أستاذ." فقال لي، ودونما اكتراث، وحتى لم ينظر إلى وجهي: "ضعه هنا، وأشار إلى زاوية الطاولة اليمنى، وارجع إلى صفك." وفعلت تماما كما طلب مني. وبينما كنت أهم بالخروج من الباب سمعته، يصيح بالآذن: "**الختم، أين الختم؟** لقد كان هنا قبل قليل." وكان يريد أن يختم التقرير بختم الحكومة. ابتسمت، وعدت إلى صفي دون أن أنظر إلى الخلف. وفي الفرصة الأولى، تجمع الطلاب في باحة المدرسة. وكانوا يستمعون إلى روايات متعددة عن المظاهرة، وقصص من الطلاب الذين اعتقلهم درك أبو فلوح. وكيف ختموا أياديهم. وكان كل واحد منهم يرفع يده اليمنى إلى الأعلى مُتباهيا بالختم. إلا أنا رفعت يدي اليسرى، والتي كنت قد ختمتها بنفسي بختم المدرسة. وذلك عندما أَوقعتُ الختم على الأرض متقصداً وأنا أضع دفتر التفقد على زاوية الطاولة في مكتب المدير. ولكن المُفارقة كانت بأن الختم كان هو نفسه على أيدينا جميعا، وكان ما يزال يحمل أسم "**الجمهورية العربية المتحدة**" والتي كنا قد خرجنا في المظاهرة من أجلها.

الظلال القاتمة تحت عرائش الياسمين

"خلص يا أبني راح تتركنا وتروح إلى **الشام** لعند أهلك"، قالها جدي أبوعلي وهو يغالب الدموع التي كانت تترقرق في عينيه وقبل أن تتدحرج على خديه بسخاء. حيث كان لا بد لي من أن أسافر إلى دمشق العاصمة (التي تعرف عند السوريين باسم الشام). والتي كان والدي قد استوطن فيها بعد أن ترك التعليم في محافظة السويداء وحصل على وظيفة مراقب بناء في أمانة العاصمة بعد قيام ثورة الثامن من أذار عام 1963. وكان والدي قد ترك عمله في حقل التعليم في السويداء بناءً على طلب من الحزب. وذهب إلى دمشق في 5 أذار، قبل الثورة بثلاثة أيام. وشارك مع البعثيين هناك في دعم الثورة وحمايتها. وفي خريف عام 1965 التحقت به والدتي وأخي الأكبر كمال وأختي أنعام ذات الأربعة أعوام. وأخي الأصغر أيمن وكان عمره عامين. وأختي رحاب كانت في حينها حديثة الولادة. وكان لابد لأخي كمال أن يجد مدرسة إعدادية بعد تخرجه من المدرسة الابتدائية. حيث لم يكن هناك مدرسة إعدادية في القرية، امتان. وبقيت أنا وحدي مع جدي وجدتي بعد ذهاب العائلة إلى دمشق. حيث كان العمر قد تقدم بهما. وكانا بحاجة إلى من يساعدهما في بعض متطلباتهما الشخصية، وفي متابعة الأعمال اليومية في الدار. وكنت في حينها في الصف الرابع الابتدائي. وكان يمكن لي أن أبقى إلى أن أكمل الصف السادس. ومن ثم أذهب إلى دمشق، مثلما حصل مع أخي كمال. لم أكن أرغب بالذهاب إلى دمشق. فجدي وجدتي كانا بحاجتي. وكنت أيضا قد تعودت عليهما كما تعودا على وجودي بينهما. لكنني كنت أعلم بأنه لم يكن من الفراق بُدٌّ. فالمدارس قد أوشكت على أن تفتح أبوابها، ولا بد لي أن أُحَضِرَّ نفسي في دمشق. وكان افتتاح المدارس قد تأخر في ذلك العام قرابة الشهر بسبب وقوع حرب الخامس من حزيران عام 1967. وأنا أهم بترك البيت والسفر إلى دمشق في أواخر أيلول من عام 1967، توجهت إلى جدي أبوعلي لأقبل يديه ورأسه كما كنت قد فعلت مع جدتي أم علي، وقلت له: "لا أريد أن أترككم بخاطري. فأنتما بحاجة لي. وأنا قد تعودت عليكما، وأحب البقاء معكما. كما وأريد أن أظَلَّ أسمع منك القصص المُثيرة عن ماضيكم أيام الثورة ضد الفرنسيين." وقبل أن يتسنى لي تقبيل يديه ورأسه، ضمني إلى صدره وقَبّل هو رأسي، وقال لي: "روح يا أبني الله يوفقك ويسهل أمرك، أنتم المستقبل ومستقبلكم أهم من ماضينا. يا لله روح لعند أهلك على شان تبدأ بالمدرسة هناك."

كل شيء في دمشق كان مُختلفاً. المباني كانت عالية، والشوارع واسعة، والسيارات كثيرة، ومتعددة الأشكال، والألوان. وكانت المدينة تزدحم بالناس في كل مكان كنا نذهب إليه، وفي كل الأوقات وحتى في الساعات المتأخرة من الليل. ولكن الناس كانوا لا يعرفون بعضهم. ولا أحد يُلقي التحية على أحد، إلا ما ندر. وهذا بعكس ما كانت عليه الحياة في امتان. فالبيوت فيها أغلبها حجرية قديمة وذات طابق واحد، وكانت متلاصقة. وبحيث كنا ندور حول الحارة على أسطح المنازل. نقفز من سطحٍ لآخر دونما صعوبة. وكان الناس يعرفون بعضهم بعضا. ويلقي التحية أحدهم على الآخر. وكانوا يتخاطبون بالأسماء والألقاب عندما يصادف أحدهم الآخر في الشارع. لكن دمشق كانت مدينة جميلة بمبانيها الإسمنتية البيضاء وغوطتها الغناء المُكتظة بأشجار المشمش واللوز. وكانت رائحة الياسمين الدمشقي الأبيض تملأ كل مكان. وبحيث كان لا يخلو شارع أو بيت من مُعرشة ياسمين تتسلق على أسوار البيوت المنخفضة والبلكونات في العمارات العالية. وكذلك تغطي أرضية الدور المفتوحة. وكانت تنشر ظلالاً وارفة على كل المكان. لكنه في ذلك العام كانت هزيمة حزيران عام 1967 تلقي بظلالها الثقيلة القاتمة على مدينة الياسمين. حيث عاد الجيش السوري إليها مهزوماً من ساحات المعركة بعد أن استولت إسرائيل على منطقة الجولان ومحافظة القنيطرة بكاملها. وأيضا على أجزاء من أرياف محافظتي درعا ودمشق. وكانت هزيمة عام 1967 قد جاءت في أعقاب انقلاب عسكري وقع في 23 شباط عام 1966. وقاد الانقلاب اللواء **صلاح جديد** رئيس الأركان في حينها. وأطاح بالفريق **أمين الحافظ** الذي كان قد أصبح رئيساً للدولة لاحقاً بعد ثورة الثامن من أذار عام 1963. وكانت القيادة القومية لحزب البعث قد كَلفت عمي شبلي بتولي منصب نائب رئيس الجمهورية معه قبل وقوع الانقلاب بعدة أشهر. وذلك في محاولة أخيرة منها لتدارك تفاقم الوضع المتأزم الذي كانت قد فرضته اللجنة العسكرية في القيادة القطرية للحزب، والمتمثلة بشكل أساسي بصلاح جديد و**حافظ الأسد**. وأيضا بعد استقالة **حمود الشوفي** الأمين القطري للحزب في سورية، والذي كان قد استقال بعد فترة قصيرة من انتخابه لهذا الموقع عام 1964 احتجاجاً على تسلط اللجنة العسكرية على شؤون الحزب. وكان عمي شبلي في حينها قد أُنتخب أميناً عاماً مساعداً للحزب. وبعد الانقلاب عام 1966، وِضِعَ كل من الرئيس أمين الحافظ ونائبه، عمي شبلي وأعضاء آخرين من القيادة القومية تحت الإقامة الجبرية. واستلم العسكر زمام السلطة في سورية بمفردهم. ومن ثم في العام اللاحق 1967، وقعت النكسة في الخامس من حزيران.

في الوقت الذي كانت محاولاتي للتأقلم مع أسرتي والحياة الجديدة في دمشق تسير بشكل تدريجي مقبول، كانت محاولات التأقلم في المدرسة الإعدادية ومع طلابها في دمشق تسير ببطء وتكتنفها الكثير من العقبات. وذلك بحكم هذه الظروف بشكل عام، والقرابة مع عمي شبلي بشكل خاص. وأيضا كان طلاب المدرسة من أبناء المدينة بغالبيتهم ينظرون إلى أبناء القرى والأرياف بفوقية. وكان الاحتقان الطائفي يجري خفياً تحت السطح وتسبب بالعديد من المصادمات بين الطلاب. وكثيراً ما كنت أدخل في صدامات مع بعض الطلاب، وخاصة طلاب الصفوف العليا، والذين كانوا من المسؤولين عن الانضباط في المدرسة. وكانوا يمثلون انعكاساً للسلطة العسكرية القائمة على رأس الدولة في حينها، ويلبسون بزات الفتوة العسكرية. وكانت تمنحهم إدارة المدرسة بأمر من القيادة الحزبية رُتباً قيادية كأسبوعي وأسبوعي عام، وغيرها من التراتبية العسكرية. ولهذا كانوا "يضربون بسيف النظام العسكري الحاكم." كل هذا إضافة إلى فترة المراهقة التي كانت صعبة بالنسبة لي، والتي جعلتني أكثر توتراً في ظل هذه الظروف. وبدون شك كان لهذا الوضع بمُجمَلِهِ أثرٌ كبيرٌ على دراستي. لم أكن الأول في صفوف المدرسة الابتدائية في امتان، بل كنت أحرص دوما على أن أكون من الأوائل. أما في المدرسة الإعدادية في دمشق، كنت أحاول ما بوسعي لأكون من الناجحين.

الهوية المثقوبة

في 16 تشرين الثاني من عام 1970، قام وزير الدفاع في حينها الفريق حافظ الأسد بانقلاب عسكري أطلق عليه اسم "**الحركة التصحيحية**." لم يكترث الناس كثيراً للحدث بشكل عام. وذلك لأنهم كانوا قد تعودوا على توالي الانقلابات العسكرية في سورية. وبحيث كان لا يمر أكثر من ثلاث سنوات إلا ويقع انقلاب. واعتبروا بأن انقلاب حافظ الأسد ليس إلا واحداً من هذه الانقلابات. وكنت واحداً من الناس الذين تشكل لديهم هذا الاعتقاد. وفي أواخر عام 1970، تبلغت من قبل الدائرة الحكومية المختصة في دمشق بمراجعة النفوس (دائرة الأحوال المدنية) في **قضاء صلخد التابع لمحافظة السويداء** السورية حيث يوجد قيد نفوسي. وذلك لتقديم طلب للحصول على تذكرة **الهوية الشخصية** السورية. فكان هذا أروع خبر تلقيته في حياتي. وكنت في حينها قد بدأت في الصف العاشر من المرحلة الثانوية في المدرسة نفسها، **ثانوية ابن العميد**. وكنت قد أوشكت على إكمال سن السادسة عشرة. وأتذكر يومها بأن فرحتي لم تكن تسعني عندما وقفت أمام الكاميرا الشمسية لموظف الأحوال المدنية لالتقاط صورتي لوضعها على الهوية، وأن شيئاً طريفاً قد حصل في حينها. حيث حاول الموظف مرات عديدة قبل أن يفلح بالتقاط الصورة. وذلك لأنه كان في كل مرة يوازن فيها سيبة الكاميرا لتقابل العدسة وجهي ومن ثم يدخل رأسه داخل الكيس الأسود استعداداً لسحب خيط آلية التصوير لالتقاط الصورة، إلا أنه سرعان ما كان يخرج رأسه من الكيس وينظر إلى وجهي ثانية ويتأكد من ارتفاع السيبة ليجد كل شيء مطابقاً. وكرر العملية لعدة مرات. وإلى أن أصابه الانفعال وأخرج رأسه من الكيس الأسود بسرعة ووجدني ما زلت أقف على أصابع قَدميّ. وقال بحدة لماذا تقف على أصابع قدميك. وكان الجواب، وببساطة وعفوية الشاب المراهق وانفعالاته الهرمونية التي تجعله يطلق عقال لسانه قبل أن يدير محرك التفكير في رأسه، "**لأنني فخور بهويتي الوطنية**." ولقد كانت فرحتي أكبر بكثير عندما علمت بأنه بعد حصولي على الهوية الشخصية أصبح بإمكاني **أن أُمارس صلاحياتي كمواطن سوري**. وأن أُدلي بصوتي في الاستفتاء الشعبي على تثبيت الرئيس الذي كان قد تقرر في 12 أذار في العام اللاحق، 1971. وبقيت أعُدُّ الأيام بفارغ الصبر إلى أن جاء موعد الاستفتاء. فحملت هويتي الجديدة وهرعت إلى أقرب صندوق اقتراع لأدلي بصوتي. وأبرزت هويتي إلى الموظف بفخر المواطن وعنفوان الشباب. ولكن صدمتي كانت كبيرة لأن الموظف لم يعطني ورقة أضع رأيي عليها، وأضعها بنفسي في الصندوق كما كنا نشاهد

في جهاز التلفاز، بل تناول هو ورقة الاستفتاء بنفسه ووضعها بالصندوق نيابة عني. وكانت توجد على الورقة عبارة واحدة فقط **"نعم للقائد"** مع إشارة تشاك مارك (**Check Mark**) حمراء كبيرة. وقال للموظف الأخر الذي كان يساعده بلهجة آمره: "يا الله سجل عندك **رياض شكيب العيسمي** "نعم للقائد" واثقب هويته. وهنا كان لا بد لي من أن أعترض. فقلت للموظف وبنزق التمرد وإصرار المواطنة التي اعتقدت بأن بطاقة المواطنة "الهوية الشخصية" تخولني إياها: **"أنا لا أريد أن أصوت بنعم. أنا أريد أن أصوت ب "لا"**. لكنه لم يكن يتوقع مثل هذا الجواب. فامتعض وجهه وتَجهّم محياه، وكان الشرر قد بدأ يتطاير من عينيه. فناولني بطاقة الهوية بصلف بعد أن كان الموظف الآخر قد ثقبها من زاويتها اليسرى في الأسفل تدليلاً على أنني قد صوت للقائد الجديد. وخاطبني مهددا باللهجة التقليدية: "يا لله وله "حليئ" من هون وما عاد توريني وجهك (حليق من هون أي انصرف من هنا باللهجة الشامية)." فعدت أدراجي إلى بيتي وأنا أحمل **هويتي الوطنية المثقوبة** بصمت وخيبة أمل. ولا صوت يُسمع لي، بعد أن ضاع صوتي هدراً في صناديق "العرس الديمقراطي" الأول من حكم الرئيس حافظ الأسد.

المواجهة المباشرة مع رموز السلطة الجديدة

كنت أعتقد بأن حادثة الاستفتاء على رئاسة حافظ الأسد عام 1971 ستكون عَرضّية وستنتظم الأمور بعدها مع مرور الزمن. لكنني عدت مرة أخرى للمواجهة المباشرة مع رموز النظام الجديد في العام اللاحق. ففي صيف عام 1972، عندما كنت في الصف الحادي عشر، دخلت معسكر الفتوة الذي اعتادت المدارس السورية احتضانه سنويا لتدريب الشباب. وهذا تقليد كان موجوداً من قبل عهد حافظ الأسد. إلا أنني تفاجأت بأن المعسكر لذلك العام كان قد تقرر بأن يكون **"تثقيفيا."** وكان مخصصاً لكي تُدرسُ فيه أفكار وخطابات القائد، الرئيس الجديد حافظ الأسد. وهذا ما أثار حنقي وسخطي. ودفعني إلى أن أُسجل اعتراضي بأي شكل ممكن لملازم الفتوة (الضابط المسؤول عن المعسكر). لكنه غضب مني وشتمني بألفاظٍ نابية وأمرني بالزحف في باحة المدرسة التي احتضنت المعسكر ذلك الصيف. وعندما حاولت رفض تنفيذ أوامره بالزحف، هددني بعقاب أكبر. حيث انه كان قد تفاجأ بالموقف. ولم يكن ليتوقع بأن أحداً ما سيعترض على هذا الموضوع، وبخاصة طالب كمثلي هو من سيتحكم بأمره طيلة فترة المعسكر. وحينها لم يكن أمامي أي خيار إلا تنفيذ عقوبة الزحف، ومن ثم التفكير بطريقة ما لرد اعتباري والرد على تصرف الملازم الاستفزازي. ولم يكن أمامي سوى الكتابة عن الموضوع ووضع ما سأكتبه في اللوحة الجدارية التي كانت قد خُصصت لطلاب المعسكر. لكنني لم أكن لأعرف ماذا سأكتب. فكل ما سأكتبه لن يجد آذناً صاغية لا من الملازم ولا من الإداريين القائمين على المعسكر، والذين كان معظمهم من المُهللين والمُتملقين للنظام الجديد. كما وأن الكثير من الطلاب كانوا يتأملون بالقائد الشاب في حينها وكانوا قد أعلنوا ولاءهم المُطلق له. وحتى أُخفف من وقع الكتابة المباشرة التي قد تُحسب عليَّ وتسجل موقفا رسميا قد يتخذه الملازم ذريعة لانزال عقاب أكثر صرامةً بي، فكرت في الكتابة بطريقة أدبية، كقصة أو قطعة نثرية متميزة أطرح من خلالها وجهة نظري بشكل أدبي. علها تجد صدىً أكبر بين الطلاب وتخدم الهدف المطلوب. فكتبت مقطوعة نثرية أشبه بالشعر. تهكمت فيها على طبيعة المعسكر وأهدافه. ولم ينجُ الملازم من سهام النقد. ودسست ما كتبته في اللوحة الجدارية للمعسكر في الصباح الباكر لليوم التالي. ولم أوقع اسمي عليها. وما أن قرأها طلاب المعسكر حتى بدأ الهمس واللغط حولها، وإلى أن أصبحت على ألسنة الجميع. وبدأ التحزب بشكل حاد لمن هو معها ومن هو ضدها. ووصل الخبر إلى الملازم عن طريق أحد مُخبريه، على الأغلب. وفي التجمع الصباحي

الأول استدعاني الملازم وسألني إن كنت أنا من كتب هذه "النُّرهة"، كما أسماها. حاولت في البداية الإنكار، لكنني لم أفلح. فبانت معالم الخوف والتردد على ملامحي. وعندها أعلن أمام كل الطلاب بأنني أنا الفاعل المُدان، وحاكمني ميدانيا. وكان الحكم بحلاقة شعري على الصفر، وسَجني ليوم كامل مع الأشغال الشاقة، والتي كان من ضمنها تنظيف حمامات المدرسة. لقد استطعت تَحَمُّل كل شيء فرضته العقوبة بموجب قرار الملازم الحاكم الأعلى في المعسكر، إلا أن تنظيف الحمامات في مدرسة التي كانت تستضيف أكثر من مئة طالب من الشباب الذين تدفعهم ثورة الهرمونات لديهم إلى عدم الاكتراث والفوضى الجسدية، كانت إهانة إنسانية قاسية لم أنسها في حياتي. وحتى كانت أشد قسوةً عليَّ من حلاقة الشعر على الصفر. حيث كان الشباب في هذا العمر يستخدمون وقتها شعرهم المُسرَح والمُنسق لإغواء الفتيات.

وفي العام اللاحق، عام 1973، حصلت على شهادة الثانوية العامة (البكالوريا) الفرع العلمي. ولكن معدلي لم يكن كما يجب، وهذا كان متوقعا. ولم يخولني دخول الجامعة إلا في فرع أو فرعين علميين لم أكن أرغب أيا منها. إلا أنه كان من الممكن أن أسجل أدب إنكليزي لأنني كنت أحب الاختصاص. وكانت درجتي مرتفعة في مادة اللغة الإنكليزية. إلا أنه كان قد صدر قرار في ذلك العام بالذات يمنع طلاب البكالوريا العلمي من الدخول في أي فرع أدبي. وهذا لم يترك لي مجالاً إلا التقديم على الكلية الجوية التي كانت تستقطب الشباب في ذلك الوقت. فهي كانت لها مكانتها في المجتمع. وفي الوقت نفسه تؤمن دخلاً سريعاً، كثيراً ما كان يستهوي ذوي الدخل المحدود من الشباب أمثالي. وكان الأمل يحدوني بأنه يمكنني في ظل ظروف طبيعية أن أقبل في الكلية الجوية. وتقدمت بكل طلبات ومستلزمات التقديم من أوراق ومستندات. كما وأجريت كافة الفحوص الطبية المطلوبة. وكانت جميعها على ما يرام. وعندما ذهبت إلى الفحص النظري أمام اللجنة السياسية تفاجأت بطبيعة الأسئلة التي وجهها لي رئيس اللجنة. حيث كانت جميعها أسئلة سخيفة جداً ولا تليق بطالب كان قد دخل المدرسة على الإطلاق، عداك عن طالب خريج بكالوريا ومُتابع للأحداث السياسية في حينها. وكان من ضمن ما سألني على سبيل المثال: من هو رئيس جمهورية المغرب. فتبسمت وقلت له: "بس المغرب مملكة، وليست جمهورية." فقال بتعالٍ واستهزاء "جاوب وِلَّه، ولا تكثر حكي." من هو رئس المغرب." فجاوبت وغير أبه لسؤاله "ملك المغرب هو الحسن الثاني." وسألني سؤالين أو ثلاثة على هذا المنوال. وكنت

قد تعلمت الدرس وأصبحت أجيب ومن غير اعتراض، ولا حتى استفسار. وإلى أن سألني من هو فلان، وذكر لي اسماً. فكرت مطولاً وحاولت أن أتذكر أي شيء يمكن أن أعرفه عن هذا الاسم، فلم أفلح. وعندها أدركت بأن هذ السؤال يمكن أن يكون سؤالاً سخيفا آخر كأسئلته السابقة. عندها قلت له "بس ما يكون هذا هو اسم حضرتك." فرد بعنجهية بعد أن انتفض كطاووسٍ نفث ريشه: "يحرز دينك ولوه." وكانت اللهجة الساحلية قد طغت عليه هذه المرة. ومن ثم أردف بسؤال سخيف أخر: "طيب قلي أنت لشوف لماذا تريد أن تصبح طيارا؟ شعرت بالإحراج والاستخفاف من هذا السؤال. كما وانتابني شعور بأنه يعرف عني كل شيء من قبل، وهو كان يتسلى بي. ولديه قرار مُسبق بعدم قبولي. فقلت له بإصرار، ولكن بطريقة لا تخلو من السخرية: "لأنني أريد أن أصبح رئيساً للجمهورية." فلم يعجبه الرد أبداً، فامتعض وجهه وقرر إنهاء المقابلة على الفور وصرفني. وقال على عجل: "يا لله روح انقلع على بيتك. وبعدين بتسمع منا." ولم أسمع منهم أبدا. وعلمت لاحقا بأنني لم أحصل على موافقة أمنية للالتحاق بالكلية الجوية، ولا حتى أية كلية عسكرية أخرى. وهذا ما تأكد لي بالملموس في العام التالي، عام 1974، بعد أن أعدت البكالوريا وحصلت على درجات أعلى بثلاثين درجة. وكان معدلي الجديد يخولني بدخول كلية الهندسة العسكرية في جامعة حلب وبتعاقد مع الجيش فقط. وعندما حاولت الاستحصال على موافقة أمنية والتي كانت أساسية للقبول، كان الرفض قاطعاً هذه المرة وواضحاً وبشكل خطي بعدم الموافقة. وبهذا باءت محاولاتي جميعها بالفشل وتبدد الحلم بدخولي الكلية الجوية أو كلية الهندسة في سورية. وبعد حرب تشرين عام 1973، بدأ هامش الحرية المحدود الذي كنا قد تمتعنا به بُعيّدَ انتخاب حافظ الأسد رئيسا للجمهورية عام 1971 يتقلص تدريجيا. وبدأت فسحة الأمل بمستقبلٍ معقولٍ في سورية تضيق معه بالنسبة لي. وإلى أن أصبح شبح صوتي الذي مات مخنوقا في صناديق الاقتراع يلاحقني كظلي كيفما أدرت وجهي. وأصبح معيار الوطنية في سوريا الأسد يُقاس بمدى ولاء المواطن لسيد الوطن الجديد.

مطاردة الأمل على ضفاف دجلة

في مطلع شهر تشرين الأول من عام 1974، لاحت بوادرَ أملٍ في الأفق. وذلك عندما وصلني خبر بأنه قد تم قبولي بشكل أولي في كلية الهندسة التكنولوجية في جامعة بغداد في العراق. وفي عصر يوم 18 تشرين الثاني، حملت هويتي السورية المثقوبة، وسافرت بها إلى العراق. وبينما كانت عربات شركة حافلة نيرن لنقل الركاب، والتي كانت على شكل قطار، تنهش الطريق شرقاً باتجاه بغداد، بقي نظري معلقاً على الغرب وإلى أن بدأت ملامح مدينة دمشق تختفي خلفها تدريجيا عبر النوافذ المتراصة.

وصلت الحافلة إلى بغداد مع شروق الشمس من اليوم التالي. وكانت بغداد تتألق كعروس البحر التي بزغت لتوها من تحت الماء. وكانت تلتف بأشعة الشمس الدافئة التي كانت تغزل خيوطها الذهبية فوق الأفق. وقطرات الندى المتلألئة تتدحرج على سُعف النخيل الذي كان يصطف متسقاً ومتناغماً على ضفتي نهر دجلة وكأنه مجاميع من الجيش الصيني تتحضر لعرض عسكري في مناسبة وطنية. وكنت أرقب أبنية الطابوق (الآجُرّ) المنخفضة في عاصمة العباسيين تتوزع بشكل أفقي على مساحات تكاد تكون متساوية ومتناغمة مع بعضها البعض لترسم محيط دائرة متسعة ومتعددة الأقطار، تماما كما خطط لها أبو جعفر المنصور. وكانت تبدو متألقة كقلعة عالية الحصون كما أرادها هارون الرشيد. وسرعان ما بدأت أشعر فيها بنخوة المعتصم وكبرياء المتنبي. كما وبدأت استرجع فيها ذكريات أبي العلاء المعري. دخلت بغداد وأنا أشعر بالارتياح، وكان الأمل يحدوني بأنني سأعوض ما كان قد فاتني في سورية. ولربما كان سبب هذا الارتياح الشديد لأن عمي شبلي كان يتواجد هناك في حينها. حيث ذهب إليها بعد أن قامت ثورة 17- 30 تموز في العراق عام 1968. وكان قبل ذلك قد تم تهريبه من المعتقل في سورية إلى لبنان. وانتقل من لبنان إلى العراق بعد الثورة ليكون على رأس الحزب بكونه الأمين العام المساعد للحزب، وإلى حين وصول الأمين العام الأستاذ ميشيل عفلق. حيث كان عفلق قد خرج من سورية عام 1965 وقبل وقوع انقلاب 23 شباط عام 1966 على القيادة القومية في سورية. وجاء الأستاذ عفلق إلى بغداد لاحقاً، لكنه لم يستقر فيها بشكل دائم. بل استقر في باريس، وكان يأتي إلى العراق من وقت لأخر. وبهذا بقيِّ عمي شبلي هو من يمثل رأس الحزب في العراق في غياب الأستاذ ميشيل. وكان رئيس الجمهورية العراقية في حينها المُهيب أحمد حسن البكر ورئيس مجلس قيادة الثورة وأمين سر قيادة قطر العراق للحزب. هذا في حين كان صدام حسين يَشغل موقع نائب رئيس مجلس

قيادة الثورة ونائب أمين سر قيادة قطر العراق. وكان البكر وصدام كلاهما عضوين في القيادة القومية للحزب. وفي الوقت الذي انصرف فيه البكر إلى قيادة شؤون الدولة ومهامها بشكل عام، تفرغ صدام لتفعيل إداء مؤسساتها ورفع طاقاتها الإنتاجية. وذلك عبر تسخير مهارات وكفاءات الكادر العراقي واستقبال المهارات والكفاءات العربية المتخصصة في كل القطاعات الإنتاجية. وعلى رأسها الزراعة والصناعة والخدمات. حيث خلق المُحفزات لاستقطاب حوالي مليوني فلاح مصري وسوداني للعمل بالزراعة والثروة الحيوانية. ووضعوا جميعا في قرى فلاحية نموذجية. ومُنحَ كل فلاح بيت وقطعة أرض وبقرة حلوباً، وكلٌ حسب كبر عائلته وإمكانياتها وقدراتها الإنتاجية. كما وعمل على استقطاب طواقم متمرسة في مجال الخدمات والسياحة. وأيضا عمل على استقطاب خبراء في مجال الصناعة، وخاصة الصناعات التحويلية والتقنية. كما وتم وضع الحوافز والمغريات لاستقطاب خبراء في مجال الطاقة الذرية والنووية. كما وعمل على تفعيل وتنشيط الحزب في العراق واستقطاب الشباب العربي إليه. وذلك عبر قبول عدد كبير من الطلبة العرب في الجامعات العراقية، وتقديم المنح الدراسية لهم. واستقبال الأساتذة المتميزين من كل الدول العربية، من مصر بشكل خاص. وكذلك من بقية بلدان العالم، وخاصة تلك التي كانت تربطها بالعراق علاقات جيدة ولديها كفاءات علمية متطورة كالهند. كما وكان هناك مخطط على وشك التنفيذ لبناء **جامعة صلاح الدين** لكي تستوعب الطلبة العرب والعراقيين المتفوقين، ومخولة بمنح شهادات تخصصية عالية كالماجستير والدكتوراه وفي كل الاختصاصات المهمة والمطلوبة في بناء الدولة وتطوير المجتمع. وكانت الفكرة تقوم على أساس **"بدلاً من أرسال الطلاب إلى الخارج للتخصص في الجامعات العالمية، يمكن استقطاب أساتذة هذه الجامعات وتوفير إمكانيتها في الجامعة الجديدة."** وبهذا تكون الكلفة أقل والمردود أكبر وأسرع. وكان قد طلب من وزارة التخطيط إعداد خطة لاستيعاب الخريجين في قطاعات الدولة. وكذلك في القطاع المختلط الذي خلقته الدولة بالتعاون مع القطاع الخاص، وكانت تملك الدولة فيه نسبة 51%. لقد كانت تلك الفترة قمة صعود ونشاط العراق وتقدمه على كل الأصعدة. ولدرجة بأن العراق كان في وقتها مُرشحاً للانتقال من العالم الثالث إلى العالم الثاني. وأن ينضم إلى دول كبيرة وعريقة مثل الهند والبرازيل وجنوب أفريقيا حسب تقديرات مؤسسات التنمية والتطوير العالمية. وكانت بغداد وقتها تبدو مزهوة وهي تحتضن المناسبات القومية والوطنية. وتستضيف المؤتمرات العربية والعالمية. وهذا ما كان يبعث في نفسي الفرح والارتياح. إلا أن موجة الفرح هذه والنشوة العارمة التي عشتها في بغداد لم تكن لتبعدني عن

هموم وطني الأم، سورية التي تركتها خلفي. فكنت دوماً أتذكرها وأتابع أخبارها من الطلاب السوريين الذين كانوا يأتون ويذهبون من وإلى العراق. وكنت أفرح كثيراً عندما أشاهد الشاحنات التي تحمل اللوحات السورية. والتي كانت تنقل البضائع من لبنان إلى الكويت والخليج مروراً ببغداد. وكنت ذات مرة قد التقطت علبة كبريت فارغة كان قد رماها أحد سائقي هذه الشاحنات. وكان مكتوبٌ عليها أسم سورية. فأخذتها معي إلى حيث كنت أُقيم في السكن الجامعي. ووضعتها بين مُقتنياتي الخاصة. وبقيت لديَّ أحملها معي أينما ذهبت مثل هويتي المثقوبة.

في منتصف عام 1976، وبُعيدَ دخول الجيش السوري إلى لبنان، وصلني خبر بأن سلطات الأمن السورية قد اعتقلت والدي وأودعته **سجن المزة** الشهير في دمشق. كما وعلمت بأن الأسباب لاعتقاله كانت واهية وتعسفية. حيث اعتقله الأمن فجأة ومن غير مقدمات، وبطريقة فيها الكثير من التحدي والإذلال. ونُقل لي بأنه كان في حينها قد ذهب من دمشق حيث يعمل ويسكن مع والدتي وأخوتي وأخواتي إلى قريتنا امتان حيث يسكن جدي وجدتي. وذلك للتحضير لحفلة عشاء على شرف شخص مغترب كان قد جاء من فينزويلا وحمل له ولوالديه (جدي وجدتي) بعض الهدايا ورسالة من عمي حديثي المغترب هناك لفترة كانت في وقتها تقارب العشرين عاما. وبينما كانت العائلة تستعد لتقديم طعام العشاء لضيفها المُهم ومن معه ولفيف من أهل القرية، دخل إلى الدار رجلان غريبان تظهر عليهما ملامح الرُهبة. وكانا يتصرفان بشكل يراد منه عكس سلطة النظام وقوته، والذي كان يريد أن يفرض الهيبة والخوف لدى المواطنين لسبب ما. تبين لاحقاً بأنه كان بسبب تَدخُّل الجيش السوري في لبنان. وعندما خرج والدي للتعرف عليهما وعزيمتهما لحضور العشاء كما تقتضي التقاليد لأنهما ضيوف غرباء، تفاجأ بانهما لا يريدان الدخول وتناول طعام العشاء مع الضيوف. بل طلبا منه ترك العشاء ومرافقتهما إلى دمشق في الحال. وعندما سألهما عن السبب كانت الإجابة بشكل حازم وقاطع بان هناك أوامر باعتقاله، وأنه سيعرف السبب عندما يقابله من أعطاهما الأمر باعتقاله. وطلبا منه أن يُحضر ما يريد أن يحضره من ملابس على الفور. وأن يُخبر أهل الدار بانه لن يحضر العشاء، وأنه سيغيب لفترة غير معروف أمدها. وما كان لوالدي إلا أن يمتثل للأوامر. وأصعداه إلى سيارة كانت تنتظرهما في الخارج. وكان فيها سائقٌ بدا وهو ينتظر الأوامر منهما للانطلاق. وطلب أحدهم من والدي الجلوس في المقعد الخلفي بعد أن طمشه (وضع عصابة على عينيه) وقَيّدَ يديه وجلس بجانبه. بينما جلس الرجل

الأخر بجانب السائق وأمره بالعودة إلى دمشق. وسمع والدي السائق يسأل الرجل الذي بجانبه إلى أين بالضبط في دمشق، سيدي. وكان الجواب من الرجل بحزم: "سجن المزة." وبقيَّ والدي في سجن المزة لفترة ما يقارب الأسبوع قبل أن يستدعيه ضابط الأمن في السجن ويخبره بأنه قد تم اعتقاله لأنني ذهبت أنا إلى العراق ومن دون علم الدولة. وطلبوا منه أن يكتب لي ويطلب مني العودة الفورية إذا ما أراد أن يخرج من السجن. لكن والدي استخف بالأمر في البداية وقال له: "بان ابني ذهب إلى العراق لغرض الدراسة وبعلم الدولة. وكان قد قدم وثيقة دراسية إلى شعبة تجنيده في صلخد." ولكن الآمر أجاب ودونما أي تفكير: "ومع هذا لا بد أن يحضر. وعليك أن تخبره أيضاً بان يُقنع ابن عمك شبلي بالعودة." وكان واضحا من هذه الطلبات بأنها تعجيزية. وإن سبب الاعتقال هو غير ذلك. بقيَّ والدي في السجن قُرابة العام. وكان لا يُسمح لأحد بزيارته سوى زيارة واحدة لوالدتي كل 15 يوم. وعندما خرج من السجن أراد أن يذهب مباشرة إلى القرية امتان ليرى والدته تحديداً، والتي لم يتسن له وداعها عندما تم اعتقاله على عجل. فهي كانت في المطبخ مع النساء تُحضر طعام العشاء للضيف. وكان والدي، الذي يحب والدته كثيرا، يرغب في أن يكون أول شيء يفعله بعد خروجه من السجن تقبيل يدي والدته ورأسها كما تَعوّدَ عندما يبتعد عنها لفترة طويلة بسبب عمله في دمشق. ولكن والدتي حاولت إقناعه بدبلوماسية المرأة الناعمة ودفء الزوجة بالذهاب إلى البيت في دمشق أولاً لغرض الاستحمام وأخذ قسطاً من الراحة. ومن ثم يذهبان معا إلى امتان في اليوم التالي. وبعد جهد كبير بذلته الوالدة، وافق والدي على مُقترحها. وبالفعل في صباح اليوم التالي ذهب والدي ووالدتي إلى امتان. وما أن وصلا أسفل الدرج في الدار، حتى بدأ والدي ينادي "أني جيت يا أمي. اعذريني لقد تأخرت عليك كثيراً هذه المرة. لكن والله لم يكن بقصدي، يا أمي. وكان غصباً عني." ولكن والدته لم تكن لتسمع صوته. وهو لن يراها أبداً. وذلك لأن الله كان قد توفاها الله وهو في السجن. وكانت والدتي قد أخفت الخبر عنه. لأنها لم تكن تريده أن يضعف وهو في السجن. خاصة بأنه كان شديد التعلق بها. وكانت في كل مرة يسأل عنها، تقول له بانها بخير. وتحاول تغيير الموضوع. إلا أنها وفي أخر زيارتين، كانت تقول له "بأنها مريضة بعض الشيء. الربو زايد عليها، لكنها ستتحسن بإذن الله." وعند مطلع الدرج وهو كان ما يزال ينادي على والدته، أبلغته بالخبر الصاعق بالنسبة له بأن الله قد استخصها وهو في السجن، وكانت قد توفت قبل أكثر من خمسة أشهر. وبدأت تخبره عن المأتم الذي حصل لها وشهادات أهل

القرية بمناقبها الحميدة وورعها وقربها من الله. إلا أنه لم يستطع مغالبة دموعه ومقاومة صدمته فجثا على الأرض باكياً وكأنه كان يقبل الأرض التي مشت عليها آخر مرة.

لم يكن سجن والدي ووفاة جدتي هي الصدمات الوحيدة التي تعرضت لها عام 1976 في العراق، بل كان هناك صدمة أخرى لم تكن في الحسبان على صعيد الدراسة. حيث ظهرت النتائج في الصيف من ذلك العام، وأُدرجَ اسمي في قائمة الطلاب الراسبين في السنة الأولى في كلية الهندسة التكنولوجية. وكانت تلك السنة بالنسبة لي هي سنة إعادة، والفرصة الأخيرة للاستمرار في كلية الهندسة. وذلك بسبب تأخر قبول الطلبة العرب في العام الدراسي السابق 1974-1975 إلى أذار من عام 1975، أي بعد ستة أشهر من بدء العام الدراسي النظامي في أيلول 1974. ولهذا كان أمام الطلاب العرب المقبولين في ذلك العام، وأنا أحدهم، أحد خيارين. إما أن يغامروا ببدء الدوام في الجامعة في نفس العام 1975 بالرغم من فترة النصف سنة التي كانوا قد خسروها. ويحاولوا أن يلحقوا بالطلاب الذين كانوا قد قطعوا نصف المنهج الدراسي لذلك العام. أو أن يأجلوا تسجيلهم إلى السنة اللاحقة حتى إذا ما رسبوا في ذلك العام لا تعتبر سنة رسوب بالنسبة لهم. أما أنا فقد اخترت أن أبدأ الدوام في ذلك العام، ومحاولة اللحاق بالطلاب العراقيين الذين كانوا قد سبقوني بستة أشهر. وذلك ليس لأنني كنت واثقاً من قدراتي العلمية إلى درجة تدفعني إلى هذا التحدي، بل لأنني كنت لا أريد أن أنتظر ستة أشهر أخرى في بغداد دون فعل شيء حتى يأتي العام القادم. خاصةً وإن إمكانية عودتي إلى سورية أصبحت تكتنفها الخطورة. وذلك لأنني علمت بأن المُصدقة الدراسية التي قدمتها إلى لشعبة التجنيد عندما ذهبت إلى سورية قد رُفضت لأنها من العراق. وذلك بسب التأزم السياسي الذي نشأ بين سورية والعراق في تلك الفترة على أثر الحرب الأهلية اللبنانية ودخول الجيش السوري إلى لبنان. كما وكنت قد قطعت زيارتي لقضاء عطلة الربيع في سورية. وذلك عندما نصحني أحد أقاربي المسؤولين في حزب البعث والمقربين من السلطة بأنه يتوجب عليَّ المغادرة السريعة، وقبل أن يصدر أمر بملاحقتي واعتقالي. وبالفعل حملت هويتي السورية المثقوبة مرة ثانية وغادرت سورية آخر مرة في 5 شباط 1975 بدلاً من أخر شباط كما كان مقرراً. وحتى تبدأ منحتي الدراسية وأستطيع الحصول على سكن في القسم الداخلي التابع للجامعة، كان يتوجب عليّ أن أكون طالبا نظامياً ومداوماً في الجامعة. ولهذا كان قراري ببدء الدراسة في أذار 1975 هو خيار الأمر الواقع، وليس الخيار الأفضل. وعليه قررت تقسيم مواد السنة الدراسية الأولى العشر إلى قسمين. وذلك

حتى يتسنى لي النجاح بنصفها في السنة الأولى والنصف الثاني في السنة الثانية. وبالفعل نجحت بأربع مواد من أصل المواد الخمس في ذلك العام وبقيت مادة واحدة. كان بالإمكان أن أحملها إلى السنة الثانية مع المواد الخمسة الأخرى. لكنه حصل ما لم يكن متوقعا في ذلك العام. حيث صدر قرار من وزارة التعليم العالي بتحويل كلية الهندسة التكنولوجية إلى جامعة مُستقلة، وأطلق عليها اسم الجامعة التكنولوجية. ولم تعد السنة الأولى فيها هي سنة عامة كما كان في السابق، بل أصبح يتوجب على الطالب الالتحاق بأحد الأقسام المتوفرة في الجامعة وفقاً لفرز خاص يقوم به المجلس العلمي في الجامعة. وتم فرزي على قسم السيطرة والنظم الإليكترونية. وكان هذا الاختصاص قد أُستحدثَ في ذلك العام وكان من الاختصاصات المُعوّل عليها في مجالات التنمية والتطوير. وهو قد يتماشى مع طموحاتي وتوجهاتي بشكل عام. ولكنه كان عليَّ هذه المرة أن أنجح على الأقل بثماني مواد كي أترفع إلى الصف الثاني. هذا وبالرغم من كثرة عدد المواد والصعوبات والعقبات التي واجهتها في ذلك العام، كان من الممكن أن أستمر في الاختصاص الجديد وأنجح به. لكنني قررت أن أوقف النزف الزمني في محاولة الحصول على شهادة قد لا أعمل بها في المستقبل. وذلك لأن رغبتي الأساسية كانت في دراسة الإخراج السينمائي. وكنت قبل أن يأتيني القبول من العراق، أدرس إمكانية السفر إلى إيطاليا أو حتى مصر لهذا الغرض. ولهذا اتخذت قراري بعدم الاستمرار في كلية الهندسة وتقديم طلب بالانتقال إلى أكاديمية الفنون الجميلة في جامعة بغداد. ولكن دخول الأكاديمية كان يعترضه عقبتان. العقبة الأولى هي بكون أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد كانت مُغلقة وتقتصر على الطلبة البعثيين فقط. ولكنني كنت قد تجاوزت هذه العقبة قبل ذلك بعام. ففي أواخر عام 1975، وبعد اقتناعي بتجربة حزب البعث التي كانت قائمة في العراق في ذلك الوقت، انتسبت إلى الحزب بنفسي ودون طلبٍ من أحد. علماً بأنني لم أكن مُتحزبا في سورية قبل مجيئي إلى العراق. وإنما معارضتي للنظام العسكري في سورية كانت قد وضعتني في خندق واحدٍ مع الشيوعيين. لكنه عندما اختار الشيوعيون الدخول فيما عُرف بالجبهة الوطنية التقدمية مع حزب البعث في سورية عام 1972، تركوا هم الخندق المعارض. وبقيت أنا فيه وإلى أن غادرت إلى العراق. أما العقبة الثانية في دخول أكاديمية الفنون الجميلة كان يتمثل بضرورة استصدار قرار من وزارة التعليم العالي للانتقال من كلية علمية إلى كلية أدبية. وهذا ما كان قد تَكفَّلَ به المرحوم الأستاذ كمال فاخوري، والذي كان يشغل مدير مكتب الطلاب القومي في القيادة القومية والمسؤول الأساسي عن الطلاب العرب. وكان يعرفني حق المعرفة بحكم نشاطي الطلابي وقرابتي بالأستاذ شبلي. وكنت

أكُنُّ له كل التقدير والاحترام. ولم يكن استصدار القرار بالأمر السهل. وبحيث احتاج إلى مراسلات مُكثفة بين مكتب الطلاب القومي والقيادة القومية. وكذلك القيادة القطرية ووزارة التعليم العالي. وأخيرا صدر القرار بنقلي إلى أكاديمية الفنون الجميلة في أذار من عام 1976. وكان قد مر على السنة الدراسية ما يقارب نصفها. وكان عليَّ مواجهة الوضع نفسه الذي كنت قد واجهته في كلية الهندسة التكنولوجية قبل عام. ولكن هذه المرة دخلت الأكاديمية بإصرار الواثق من النفس والمُتحدي لكل ظروف التأخير. وكنت في حينها قد تأقلمت مع الوضع في العراق ودخلت في مرحلة من الاستقرار النسبي. وقُبلت في فرع الإخراج المسرحي. وذلك لعدم وجود فرع للإخراج السينمائي في الأكاديمية في حينها. وبدأت أدرس ليل نهار. واستطعت أن أنجح في تلك السنة الدراسية وبتفوق، وبالرغم من كل التأخير وعبء الانتظار. وفي تموز عام 1980 تخرجت في أكاديمية الفنون الجميلة في جامعة بغداد. وحصلت على شهادة بكالوريوس في الإخراج المسرحي بدرجة جيد جداً. وسُميت تلك الدورة بدورة صدام حسين، لأنها كانت الدورة الأولى التي تتخرج بعد أن أصبح صدام رئيساً للعراق في تموز من عام 1979.

صورة التخرج لطلبة قسم الإخراج المسرحي في أكاديمية الفنون الجميلة، جامعة بغداد. أنا الثاني من اليمين في الصف الأول ويظهر بجانبي المرحوم الأستاذ بدري حسون فريد رئيس القسم وبجانبه المرحوم الأستاذ سامي عبد الحميد معاون العميد في ذلك الوقت

على بطاح الأحواز

لم يمضِ أكثر من شهرين على تخرجي في الجامعة، حتى بدأت الحرب العراقية الإيرانية في أيلول عام 1980. وكان الاعتقاد عند المسؤولين العراقيين في حينها، وعلى رأسهم الرئيس صدام حسين، بأنها لن تطول لأكثر من اسبوع أو أسبوعين. لكنه مَرَّ الشهر الأول على الحرب ولم تتوقف، بل ازدادت سعيراً. وبدأ العراق بتجنيد الاحتياط والدعوة إلى التطوع لمؤازرة الجيش العراقي المرابط على جبهات القتال. وكان الطلبة العرب من ضمن القِطاعات الشعبية التي شملها التطوع. وكان الهدف الأساسي من تطوع الطلبة العرب هو لإشعار الجيش العراقي بأن إخوانه العرب هم معه في هذه المعركة التي هي لحماية البوابة الشرقية للأمة العربية، كما بدأ الإعلام العراقي يبث عبر وسائله المتنوعة. وكُنتُ مع الوجبة الأولى التي توجهت إلى الجبهة. وذلك بعد أن تلقينا تدريبات عسكرية أولية وإسنادية. وكان الهدف بالدرجة الأولى إسناد الجيش بالمهمات غير القتالية في المواقع الخلفية. وتوجهنا بعد فترة التدريب في مدرسة الجيش الشعبي في بغداد إلى مدينة العمارة في الجنوب الشرقي من العراق تَقِلُنا حافلاتٌ مدنية. وفي العمارة تم تجميعنا في مدرسة لإعداد المعلمين بغرض نقلنا إلى الجبهة بناقلات جند عسكرية. وتم تقسيمنا إلى فرق ومجاميع. وتم اختيار أمراء لكل فرقة ومجموعة. وتم اختياري آمراً لإحدى المجاميع. وأجتمع بنا الحاج راتب، الذي كان قد عُين آمراً لقاعدة الطلبة العرب. وزودنا بالتعليمات وشرح لنا المهمات المناطة بنا وكيفية التحرك. وعندما سأله أحد أمراء الفرق عن المكان الذي سنكون فيه على الجبهة، وفيما إذا سنكون على الخطوط الأمامية. أكد لنا باننا سنكون في الخطوط الخلفية، وتحديدا خط ثالث أو رابع. ولم يكن هناك ما يدعو للتشكيك بما قاله. فهو من أصل فلسطيني ومن كوادر جبهة التحرير العربية التي كانت تدعمها العراق. وكان ذا خبرةٍ عسكرية وقتالية جيدة. وهذا ما وضعنا جميعاً في حالة من الارتياح. إلا أنه كان هناك من أبدى امتعاضه. وذلك لأنه كان متحمساً ويريد أن يكون على الخطوط الأمامية للجبهة. ويريد أن يشارك في مهمات قتالية. وجاءت عربات نقل الجنود العسكرية. وكان لونها مُموهاً. وذلك كي يتسنى لها دخول الجبهة حيث يمنع دخول العربات المدنية، والتي يمكن أن تكون عرضة للاستهداف من قبل العدو. وتوزعنا على العربات التي غصت بالطلبة العرب المتطوعين. وكان عددها حوالي ست أو سبع عربات. ودارت محركاتها في وقت واحد، وانطلقت جميعا بعد الظهر وقبيل العصر. وكانت تسير خلف بعضها باتجاه الشرق. وكانت

كلما اتجهت شرقا تنحرف قليلا نحو الجنوب. لم نكن نعرف المنطقة. ولم يكن هناك من مكان فيها يمكن أن يُدلُف منه النظر إلى الخارج سوى كوة صغيرة في الخلف تجمع عليها بعض الذين كانوا في الناقلة. وما أن سمعنا السائق يقول بنبرة مزهوة **"وهسه دخلنا الأحواز"**، حتى اندفعنا جميعنا نحو الفتحة عَلّنا نشاهد كيف تبدو الأحواز التي طالما سمعنا وقرأنا عنها. وتابع السائق يقول بلهجته العراقية "هذي هي أرض عربستان يلي كان يحتلها النظام الإيراني الصفوي العميل لأكثر من خمسين عام، وهسه رجعت لينا، يعني صارت مالتنا." وبالرغم من أهمية ما كان يقوله السائق وحماسه، إلا أن معظمنا لم يكن يُصغي كثيراً لما كان يحاول أن يُخبرنا به. بل كنا نحاول أن نراقب كل شيء كنا نراه، التراب، الهضاب، الأحجار، والأشجار. وكنا ننظر إلى السماء والفضاء الذي كان يتسع وينتشر خلفنا كما السحاب. وبعد حوالي ساعتين ونصف، وصلنا قُبيّلَ غروب الشمس بقليل إلى منطقة تدعى "الفنيخة" بالفارسي، الحطابية بالعربي. وهي تابعة لقضاء البسيتين، كما قيل لنا. وعلمنا لاحقاً بأنها تقع في القاطع الأوسط للجبهة، والذي كان مركزه في محافظة العمارة العراقية. وكان يتمركز في منطقة الفنيخة أحد ألوية الجيش العراقي المدرعة، والذي كما عرفنا لاحقاً بأنه كان قد تقدم من القاطع الشمالي التابع لمحافظة ديالى العراقية. وما أن ترجلنا من العربات التي نقلتنا وتجمعنا أمام قيادة اللواء، حتى استقبلنا قائد اللواء. ورحب بنا أجمل ترحيب. وكانت معنوياته عالية بالرغم من الإرهاق الذي كان يبدو واضحاً عليه. وشرح لنا بفخر كيف تقدموا من القاطع الشمالي في منطقة خانقين في محافظة ديالى. وكيف حرروا هذه المنطقة بعد أن خاضوا معركة شرسة مع قوات الجيش الإيراني التي كانت تتواجد فيها. ولم يكن ليريد الخوض في تفاصيل المعركة، إلا أنه اكتفى بالقول سحلناهم سحلاً مبيناً. وأشار إلى خندق ترابي يبعد بحدود خمسين متراً عن مكان تجمعنا وقال "دفناهم جميعا هناك حتى يذهبوا معاً إلى جهنم وبئس المصير." وأشار إلى جندي إيراني قادم بصحبة جنديين عراقيين كانا قد أخذاه لقضاء حاجته. وقال: "لم يبقَ منهم غير هذا العلج. كان خاتل بالخندق مثل الجريدي (جرذ). وراح نحوله للعمارة باجر (غداً) حتى يكون ويه ربعه الأسرى العلوج الآخرين." وتابع القول " لقد بقي لدينا جيب صغير في منطقة ليست بعيدة من هنا، وأشار باتجاه الجنوب الغربي. كنا راح نبعث مجموعة من أبطالنا تقضي عليهم الليلة، لكن أجلناه إلى باجر صباحاً لما عرفنا بقدومكم. وقبل أن ينهي كلامه حول كيفية تمركزنا وطبيعة المهمات التي يمكن أن تناط بنا، حتى بدأ قصف مدفعي علينا من تلك المنطقة التي كان يشير إليها، وقال: استغلوا ظرف هذا التجمع، الكلاب. بس لا تخافوا "هذوله" ما عندهم غير

مدافع هاون وراح تسقط القذائف بعيدة عنا. بس يا لله روحوا للخنادق حتى ما تطالكم شظايا. ومن ثم ودعنا وسار بخطى حثيثة، لكنها كانت واثقة، باتجاه موقع القيادة. ولحقت به مجموعة من الضباط، على ما يبدو كانت هي قيادة أركان اللواء. وبقي معنا مجموعة من الضباط والعديد من الجنود الذين أخذوا أهبة الاستعداد. وكانوا يحاولون مساعدتنا في النزول إلى الخنادق وهم يأخذون مواضع الرماية. ولقد حصل إرباك وخوف في وسط الطلبة العرب. ومنهم من كان شديد الخوف ولا يعرف ما الذي يجب أن يفعله حتى يحمي نفسه. وهذا ما خلق بعض الإحراج للجنود العراقيين الذين انهمكوا بمهماتهم العسكرية تحسبا لتطور الوضع. وهنا كان لا بد للحاج راتب أن يتدخل ويعطي التوجيهات للفرق والمجاميع التي تحت أمرته. وكان عليه أن يواجه الموقف بحنكة. حيث المكان الذي وصلنا إليه لم يعد خطاً ثالثاً أو رابعاً كما وعدنا، بل خط تماس أول ويتعرض لقصف مدفعي. ولكن القصف المدفعي لم يستغرق طويلاً. حيث بدأ يتلاشى مع حلول الظلام، وإلى أن توقف. ومن ثم دعونا إلى العشاء. وكان عبارة عن "تمن ومرق وصمون" كما يسميه العراقيون، أي رز ومرقة وخبز. ومن ثم جاء الشاي العراقي الطوخ (شاي مغلي حتى أصبح لونه أقرب إلى السواد). وما أن أكملنا شرب الشاي، حتى بدأنا نشعر بالإعياء. فالرحلة كانت طويلة ومُرهقة. حيث كانت قرابة العشر ساعات ومنذ أن انطلقنا في الصباح الباكر من بغداد إلى العمارة في رحلة استغرقت حوالي الخمس ساعات. وحوالي الخمس ساعات أخرى بين الوقت الذي قضيناه في المدرسة إلى أن وصلت ناقلات الجنود، والفترة التي استغرقتها من العمارة إلى الفنيخة. ونمنا ليلتها في خيم ومهاجع كانت قد أعدت خصيصا لنا. وعندما نهضنا في الصباح الباكر في اليوم التالي، أبلغونا بأن مجموعة من الضباط والجنود العراقيين كانت قد انطلقت بعد منتصف ليلة البارحة لتحرير المنطقة التي كان يأتي منها القصف المدفعي. وبعد الغداء بقليل، عاد اثنان من الضباط الذين ذهبوا لتحرير المنطقة التي كان يأتي منها القصف المدفعي ليزفوا الخبر بأن المنطقة، والتي قالوا بأن أسمها السابلة، قد تحررت بالكامل. وتم القضاء على كافة الجنود الإيرانيين الذين كانوا فيها. وعلى الفور صدر الأمر من رئيس أركان اللواء بتحرك كتيبة من لوائه للتقدم إلى السابلة. وأبلغوا الحاج راتب بأنه يمكن أن تتقدم مع الكتيبة فرقة من الطلبة العرب. وأبلغنا الحاج راتب بالخبر. ولم يكن هناك رغبة كبيرة عند الكثيرين بالتقدم. وبحيث مازالوا يفكرون فيها على أنها المنطقة التي كان يأتي منه القصف البارحة، وهي قد تكون غير آمنة حتى اللحظة. ولهذا طلب الحاج راتب متطوعين، أو كما أسماهم أحد الشباب المتحمسين باسم الأشاوس. وبالفعل تشكلت فرقة

من الراغبين بالتقدم إلى السابلة مع كتيبة اللواء. وأطلق عليها أسم "**فرقة الأشاوس.**" وتسلم قيادتها الرفيق عبد القادر. وكنت واحداً منها، وتوليت فيها قيادة إحدى المجموعات. وكانت السابلة لا تبعد عن الفنيخة التي كنا فيها أكثر من خمسة كيلومترات. وتمركزت فرقة الأشاوس في السابلة بالقرب من جسر السابلة عند نهر الكرخة. وكان هناك بيوت قد تركها الأهالي نتيجة الحرب وأخرى كانت مهجورة. حاولنا قدر الإمكان عدم المساس بسلامة ونظافة هذه البيوت. فهي بالنتيجة بيوت تعود لأهل الأحواز. والجيش العراقي ونحن معه كنا بمثابة المحررين لهم. وكنا حريصين أن نتصرف ونبدو كذلك، وحتى يشعر الأهالي الذين لم يتركوا بيوتهم بالأمان. فهم كانوا قد تعودوا على الاحتلال الإيراني ولا يريدون ما يشعرهم بأنهم تحت احتلال جديد. وكنت شخصيا متحمساً لهذه القضية أشد التحمس. وكنت قد وقعت بسبب تحمسي هذا في بعض الإشكالات مع بعض الشباب غير المبالين بالموضوع.

أمضينا ما يقارب الشهرين في السابلة. وكانت مهماتنا جميعها إسنادية وتقتصر على الحراسة الليلية في القرية. وفي بعض الأحيان كنا ننقل المؤن للجيش على الجبهة. ولم نطلق طوال فترة وجودنا هناك ولا طلقة واحدة إلا لغرض اللهو في بعض الأحيان وبموافقة الجيش. كما وأن إطلاق النار في غير أوقات المعارك يمكن أن يربك الجيش ويجعله يعتقد بوجود نيران معادية. ولدرجة أن أحد الشباب الموريتانيين الذين كان في مجموعتي كان يرفض أن يُلقم مخزن بندقيته بالذخيرة. وكان دوما يحمل بندقية بمخزن فارغ، وحتى عندما يكون في وجبة حراسة. وكان يتكلم دوما بلغة عربية فصحى حتى يسهل عليه التخاطب مع الأخرين، وخاصة الشباب من المشرق العربي والذين كان يصعب عليهم فهم اللهجة المغاربية. واذكر مرة أنه كان في وجبة حراسة متأخرة. وجاء لإيقاظي حوالي منتصف الليل. وقال: "رفيق رياض، لقد اقترب مني "شاخص" مجهول الملامح وكان يتقدم على أربع. أمرته بالوقوف ولم يتوقف واستمر بالتقدم غير آبه بالأوامر. ولهذا جئت أخبرك بالأمر." فقلت له مازحاً: "هذا على ما يبدو بأنه حمار." فقال: "نعم. أنا أدركت بأنه يمكن أن يكون حماراً، إلا أنني أردت أن يؤكد لي هذا الأمر مصدرٌ رسميٌ ومسؤول." فضحكت وقلت له: "لقد تم التأكيد. بإمكانك الآن، وكون وجبة حراستك قد شارفت على الانتهاء، إيقاظ الرفيق الذي يليك بالحراسة كي يأخذ مكانك ويتولى هو أمر الحمار. ويمكن لك بعدها أن تخلد أنت إلى النوم بسلام."

هذا وبالرغم من الانتصارات المتلاحقة التي حققها الجيش العراقي، كانت تتزاحم في رأسي العديد من الأسئلة وأنا أغادر الأحواز، بعد تحرير المحمرة بما يقارب الأسبوعين. وكان من بين هده الأسئلة: لماذا توقف الجيش العراقي عند المحمرة ولم يحرر عبدان بالكامل ويُكمل تحرير الأحواز؟ هل لأنها منطقة غنية بالنفط، واحتلالها يمكن أن يخلق ردود أفعال دولية قد تُحرج العراق؟ ولكن لماذا جاءت الأوامر بتحرير المحمرة والتي هي مركز إقليم عبدان، خاصة وأن تحريرها تطلب دخول قوات خاصة وحرب شوارع تكبد فيها العراق العديد من الشهداء بما فيهم ابن قائد عملية التحرير؟ وهل أمر الرئيس صدام بتحرير المحمرة للضغط على المجتمع الدولي لأنه شعر بأن الحرب قد طالت ولم يحصل أي تدخل خلال أسبوع أو أسبوعين كما كان يعتقد؟ وهل فعلاً ستطول الحرب أشهراً ولربما سنوات كما قال البعض؟ وإذا العالم لم يسمح للعراق باحتلال عبدان، فهل يمكن له أن يحتفظ بالجزء الذي حرره من الأحواز، أم سيضطر للخروج منه أيضا تحت الضغط الدولي؟ وإذا كان سيخرج منه، لماذا إذن أمر الرئيس صدام بإضفاء المعالم العراقية على المناطق المحررة من الأحواز كفتح أروزدي باك (أكبر محلات التسوق العراقية). ومقرات لحزب البعث وتغيير أسماء شوارع ومرافق مدنية؟ أم هل كان يستخدم كل هذه الأمور كوسيلة ضغط. غادرت الأحواز وبقيت هذه الأسئلة تدور في رأسي. وعندما وصلت إلى بغداد وجدت بأنني لست وحدي ممن لديه مثل هذه الأسئلة، وإن اختلفت صياغتها وطريقة طرحها. ولكن لا أحد ممن قابلتهم وسألتهم كان لديه الأجوبة الشافية.

السفر إلى الولايات المتحدة

كانت الأيام تمضي بطيئةً في بغداد بعد العودة من الأحواز. حيث لم أعد أذهب إلى الجامعة كما كنت قبل التخرج. ولم يعد بإمكاني أن أسكن مع الطلبة في القسم الداخلي لأنني قد تخرجت. كما وتوقفت بعد التخرج المنحة الدراسية التي كنا نتقاضاها من وزارة التعليم العالي العراقية طيلة فترة الدراسة. إلا أنه بعد شهرين أو ثلاثة، أصبحنا نتقاضى مساعدات مالية من الحزب. وكان عمي شبلي يُقدم لي أيضاً بعض المساعدات في المناسبات والأعياد. وتدبرت أمري في السكن مع بعض الأصدقاء لقاء مساهمة مالية بسيطة. وكنت أحاول أن أوفر قدر المستطاع لشراء بعض الكتب. لأنه كان لا بد لي من ملء وقت الفراغ بالقراءة. وكنت أيضا اذهب إلى مقر رابطة الطلبة السوريين في بغداد للقاء الأصدقاء القدامى والتعرف على الزملاء من الطلبة الجدد. وكنت قد اعتدت الذهاب إلى الرابطة باستمرار لأنني كنت عضواً في الهيئة الإدارية للرابطة لعاميين متتاليين قبل التخرج. على كل الأحوال، لم يكن هناك الكثير ما يمكن فعله في الخارج في بغداد في فصل الصيف. وذلك لأن الحر كان شديداً جداً. وكانت درجة الحرارة تصل في بعض الأحيان في شهر أب إلى الخمسين درجة، ولربما أكثر. ولدرجة بأن الإسفلت كان يغلي في يعض الشوارع الرخوة والمُعرَضة لأشعة الشمس في وضح النهار. ولهذا كان لا بد لنا أن نبحث عن مكانٍ مُبَرَد. وكان مقر الرابطة هو المكان الأمثل في مثل هذه الحالة. وكان عليَّ أن أمضي فترة على هذه الحالة لأنني كنت أنتظر قرار الحزب بما يمكن أن يفعله بشأني وشأن الرفاق المتخرجين في ذلك العام. وكنت في وقت سابق قد أبديت رغبتي في السفر إلى الخارج لإكمال دراسة الماجستير والدكتوراة. خاصة وإن قرار العودة إلى سورية في تلك الفترة كان يمثل قراراً أشبه بالانتحار بالنسبة لي. حيث كان هناك عدد من زملائنا الطلبة السوريين الذين عادوا إلى سورية بعد التخرج تعرضوا للاعتقال التعسفي لفترات طويلة. ومنهم من قضى تحت التعذيب. وكانت القيادة القومية للحزب قد اعتادت إرسال مجموعة من الطلبة العرب الخريجين إلى الخارج في كل عام. ليس لغرض الدراسات العليا وحسب، وإنما أيضا للعمل في المنظمات الحزبية والطلابية في الخارج. وكان قرار البعثات في ذلك العام قد تأخر بسبب الحرب. ولم يكن هناك ما نفعله سوى الانتظار.

وذات يوم ذهبت إلى شعبة الطلبة العرب التابعة لمكتب الطلاب القومي كما تعودت أن أفعل بين الفينة والأخرى للقاء يعض الأصدقاء والرفاق. وكذلك للاستفسار عن أخبار قرار البعثات الدراسية. وفور

دخولي إلى بهو الاستعلامات، رحب بي مديرها مثل العادة. وعَرِفَ ماذا أريد قبل أن أسأله، فبادرني بالقول "إن الرفيق أبو خلدون في اجتماع في المكتب منذ الصباح الباكر، ولم يعد إلى مكتبه بعد. تفضل ارتاح. هسه يجي." وبالفعل لم تَمضِ فترة طويلة حتى جاء الرفيق أبو خلدون. وعندما راني ارتفعت على محياه ابتسامة عريضة وقال مازحا "يا لله يا بطل جهز حصان ومسدس وقبعة واستعد للسفر." لم أفهم قصده في البداية. لكنني أدركت سريعاً بأن اجتماعه الطويل في مكتب الطلاب القومي كان لإقرار البعثات. وإنه تقرر ابتعاثي إلى الولايات المتحدة، "بلد الكاو بوي". فقلت له "لا عم تمزح، إلى أمريكا دفعة وحدة!" فأومأ برأسه مؤكداً. وعندها بدأتُ أمطره بالأسئلة عن موعد السفر وتفاصيله. وتفاصيل المنحة. ولم يكن ليجيب على سؤال حتى أبدأ بآخر. وعندها قال "لقد حان وقت الغداء. دعني أوصلك بطريقي ونكمل الحديث على الطريق." وفي الطريق سألته عن الجامعة والمدينة التي سأدرس فيها. فأكد لي بأنه سيصار إلى ترجمة أوراقي جميعها إلى اللغة الإنكليزية. وسترسل في الحقيبة الديبلوماسية إلى قيادة شعبة الحزب في الولايات المتحدة. وهي ستقوم بتحديد المدينة والجامعة حسب الحاجة. وفور صدور قبول الجامعة سأمنحُ جواز سفر عراقي. ويترك لي تحديد موعد السفر ضمن المواعيد المحددة في وثيقة القبول.

علمت لاحقاً من أحد الطلبة الزائرين من الولايات المتحدة بأن قبولي سوف يكون في جامعة نيويورك في مدينة نيويورك. وبالفعل بعد فترة لا تتجاوز الشهرين وصلني قبول من معهد اللغة في جامعة نيويورك. وفي أقل من شهر صدر جواز السفر. وحددت موعد السفر في 16 نيسان من عام 1981 في الصباح الباكر. ولكنه كان عليَّ أن أذهب إلى المطار مساء اليوم الذي قبله. وذلك لأن كل الرحلات المغادرة لمطار بغداد كانت تغادر في الليل وقبل الفجر خوفا من الاستهداف الإيراني لها في بداية الحرب. وبالفعل غادرت الرحلة رقم 517 التابعة للخطوط الجوية العراقية مطار صدام الدولي في بغداد قُبيّلَ الفجر بقليل. وكانت وجهتها مطار شارل ديغول في باريس. كانت بغداد تبدو من السماء مُظلمة وحزينة. يُخيّمُ عليها السكون والترقب الذي بدأ يتفاقم باستمرار الحرب، والتي لم يكن ليُعرف لها نهاية. ولم تكن حالتي النفسية في حينها تختلف كثيراً عن حال بغداد. فأنا كنت أغادرها في رحلةٍ لا أعرف كم ستطول، ولا كيف ستنتهي. لكنني كنت أتطلع إليها بشغف. حيث لم يتبقَ لديَّ الكثير ما أفعله أو أنتظره في بغداد. فالحرب قد طالت. ولم يكن يلوح في الأفق ما يوحي بنهايةٍ قريبة لها. وما

أن غابت بغداد عن ناظريَّ وحلقت الطائرة على ارتفاع شاهق، حاولت أن أخلد قليلاً إلى الراحة وأحصل على قسطٍ من النوم الذي كان قد جافاني ما عدا سويعات قليلة في اليومين اللذين سبقا موعد السفر. لم أوفق كثيراً في الحصول على ما توخيت من النوم، لكنها كانت فرصة مواتية لأستجمع ما كان قد شرد مني من أفكار. وأن أركز بعض الشيء على ما قد أكون مُقبلاً عليه. ووصلنا إلى مطار شارل ديغول حوالي العاشرة والنصف صباحاً. وكان لا بد لي من الانتظار في المطار عدة ساعات ومن ثم تغيير الطائرة. وفي حوالي الساعة الثانية والنصف بتوقيت باريس أقلعت الطائرة التابعة لشركة الخطوط الفرنسية مطار شارل ديغول برحلتها رقم 472 المتجهة إلى نيويورك. كنت أراقب باريس من النافذة. وكانت تبدو كملكةٍ مُتوجةٍ تَربعت على عرشها. وارتفعت طائرة الإيرباس العملاقة لأكثر من عشرين ألف قدم فوق المحيط. وكنت أرقب الجو من النافذة والطائرة تَمخرُ عباب الفضاء باتجاه الغرب المُنحدرِ نحو الجنوب قاصدةً نيويورك. وكان الفرق في التوقيت بين باريس ونيويورك ست ساعات. والرحلة استغرقت حوالي الثماني ساعات ونصف. وذلك لان الطائرة كانت تطير بداية باتجاه الغرب، بعكس الريح. ووصلنا إلى نيويورك في الصباح الباكر. خرجنا من الطائرة وتوجهنا باتجاه أكشاك موظفي أمن الجوزات والهجرة، والتي كانت تصطف إلى جانب بعضها بالعشرات. وكان قد خُصص أحدها للأمريكان العائدين إلى بلدهم. والأخرى كانت جميعها للأجانب. وكان يصطف أمام كل واحد منها سيل يكاد لا ينقطع من البشر، والذين كانوا قادمين من شتى بقاع العالم ومن كل القارات. فمنهم من كان من ذوي البشرة البيضاء جاؤوا من دول أوربا وأسيا. وأخرين من ذوي البشرة السمراء جاؤوا من دول أفريقيا. وذوي البشرة الحنطية كانوا قد جاؤوا من دول أمريكا اللاتينية. وكان هناك ممن هم من العرق الأصفر، والذين جاءوا من دولٍ مثل الصين وكوريا وفيتنام. حيث إن نيويورك هي قُبلةُ السواح ووجهة طلاب العلم. وكذلك الباحثين عن هجرة إلى وطن جديد.

بعد الخروج من منطقة الجمارك، حملت حقيبة ملابسي المتواضعة، والتي كنت قد اشتريتها قبل موعد السفر بقليل بدينار ونصف من شارع النهر المشهور في بغداد. وذلك لأن الحقيبة التي جاءت معي من سورية إلى بغداد كانت قد عفى عليها الزمن ولم تعد صالحة للسفر، وخاصةً إلى مسافات بعيدة وبلاد جديدة مثل بلاد العم سام. خرجت من باب مطار **جون أف كينيدي** الشهير والكبير. ولم أكن اعرف إلى أين سأتجه. حيث إنني أجريت عدة اتصالات هاتفية من قاعة المغادرة في المطار بأرقام هواتف

لبعض الشباب الحزبيين الموجودين في نيويورك ومدن أمريكية أخرى كان قد زودني بها أحد الرفاق العاملين في شعبة أمريكا وكندا في مكتب الطلاب القومي. علمت لاحقاً بأن جميع من اتصلت بهم كانوا في اجتماع لمنظمة الطلبة العرب في ولاية أوهايو. ولم يكن أمامي سوى الصعود إلى الحافلة المتوجه إلى مركز المدينة قرب محطة القطار المركزية في شارع رقم 42 الشهير. وبعد أقل من ساعة اخترقت خلالها الحافلة العديد من طرق نيويورك السريعة وشوارعها الرئيسية والفرعية. ووصلنا إلى مركز المدينة. فتأبطت حقيبة سفري ونزلت من الحافلة. وبدأت أتلفت حولي وأرتفع بناظريَّ إلى الأعلى ليلامس بصري أعالي ناطحات السحاب. والتي لم أكن لأراها إلا في أفلام تشارلز برنسين وكيرك دوجلاس الأمريكية. وما أن أرهقني النظر إلى منارات العمارات الشاهقة التي اصطفت حول بعضها البعض كثيفةً كالأشجار في غابات الأمازون. وكذلك إلى السيارات الفارهة التي غصت بها شوارع نيويورك أمامي. وبينما كنت أنظر إلى المارة الذين تزاحموا على أرصفة الشوارع من حولي أدركت بان الوقت يمضي سريعا نحو المساء وأنا ومازلت لا أعرف إلى أين سأذهب. وفوراً تذكرت بأن عمي شبلي كان قد زودني برقم تلفون بيت الأستاذ **محسن العيني** الذي كان في حينها يَشغِلُ منصب سفير اليمن في الأمم المتحدة. وكنت سأوفره لحالات الطوارئ. لقد ترددت كثيرا قبل الاتصال بالرقم بالرغم من معرفتي الجيدة بالأستاذ محسن وعائلته. وكنت قد التقيته عدة مرات في بيت عمي شبلي. فهو كان يسكن بجوارهم عندما كان في بغداد. لكن الرجل كان قد شغل منصب رئيس وزراء اليمن من قبل. وهو ذو مهام عالية ومعروف ولديه أشغالٌ كثيرة. وهو بالتأكيد لن يكون مُتفرغاً لطالبٍ جديد مثلي. إلا أن الشمس قد بدأت تميل نحو الغرب وكادت تختفي بين ناطحات السحاب المنتشرة في سماء نيويورك. ولا أعرف أحداً في هذه المدينة الصاخبة. وتلك كانت، بلا شك، حالة طوارئ. وضعت قطعةً من النقود في ثقب صندوق الهاتف العمومي الذي كان ينتصب داخل كشك على زاوية الشارع. وأدرت الرقم الذي كان بحوزتي. ردت على الجانب الآخر السيدة أم هيثم، زوجة الأستاذ محسن. وكانت سيدة لطيفة وراقية تتكلم باحترام وتواضع. عرفتها بنفسي وسألتها عن الأستاذ محسن. وبعد أن رحبت بي وتحمدت الله على وصولي بالسلامة، قالت بان الأستاذ محسن غير موجود. وهو مشغول باجتماعات الأمم المتحدة. لكنها سألتني عن مكان وجودي في الشارع، وقالت سأرسل لك سلطان. وهو سيساعدك بكل ما تحتاج. وأخبرتني بأن أذهب إلى فندق **والدورف استوريا** في أسفل الشارع وأن أنتظره في قاعة الانتظار.

وصلت إلى الفندق الكبير والفاخر. ولم يكن البواب الذي كان يقف على المدخل ليصدق ما يرى. فهو لم يتعود أن يرى أي نزيل في هذا الفندق يمشي على قدميه ويحمل حقيبة سفره بيده. وإنما كان كل النزلاء في هذا الفندق الضخم هم من الرؤساء والسفراء والوزراء والشخصيات المرموقة يأتون إلى الفندق راكبين في سيارات فارهة يقودها سائق ومعهم مرافقين وحراس شخصيين. فسألني باستغراب إذا ما كان لديَّ حجز بالفندق. فأجبت بالنفي. وكان عليه أن يفعل ما يتوجب عليه فعله في مثل هذه الحالة. فسألني بأدب فيما أذا كنت أريد الحجز بالرغم من أنه كان يعلم الجواب مسبقا بالنفي. فمن المستحيل من هو كمثلى لديه المال الكافي لقضاء ليلة واحدة في هذا الفندق. وكنت قد قرأت هذا واضحا على ملامح وجهه. وقلت له بأنني سأنتظر شخص من طرف السفير اليمني في البهو. وبعد مقابلته سأقرر فيما إذا كنت سأكون نزيلاً على هذا الفندق أم لا. وطلبت منه أن يحتفظ بحقيبتي إلى أن أعود إليه. ودخلت بهو الفندق وأنا في حالة من الإرباك ليس لأنني لا أستطيع أن أقرر فيما إذا كنت سأنزل في هذا الفندق أم لا، وإنما كنت أخشى أن يحرجني سلطان القادم للقائي بالنزول في الفندق دون علمه بوضعي المادي. فأنا مجرد طالب. وليس معي سوى ألفي دولار أُعطيت لي كسلفة من البعثة الدراسية كمصروف لأربعة أشهر. وهي بالكاد تغطي نفقة ليلة واحدة أو ليتلين في هذا الفندق.

جاء سلطان. وكان شاباً من أصول يمنية، وكان وسيماً ومرحا، ويتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقة. وكان لطيفاً ومضيافاً على الطريقة اليمنية بالرغم من أنه كان قد مضى على وجوده في نيويورك مدةً طويلة. وعرفت منه بانه رفيق حزبي ويعمل مع الأستاذ محسن منذ تعيينه في الأمم المتحدة. وكان قد رُشح من قبل منظمة الحزب في نيويورك لهذا الموقع. سألت سلطان فيما إذا كان يعرف أياً من الأسماء التي كانت في حوزتي. وكان يعرف معظمهم ويعرف بأنهم في اجتماع في ولاية أخرى وأنهم سيرجعون بعد يومين. ولهذا طلبت منه أن يأخذني إلى فندق متواضع يتناسب مع إمكانياتي ليومين وإلى أن يعود الشباب من اجتماعهم. فذهبنا إلى البواب الذي كنت قد وضعت حقيبتي بعهدته واسترجعتها منه. ووضعت في يده إكرامية بسيطة بما تيسر معي في حينها من قطع نقدية صغيرة. وهو الذي ما يحصل عليه من إكراميات في هذا الفندق تفوق رواتب موظفين كبار في بلادنا. فنظر إليَّ وكأن لسان حاله كان يقول بانك أنت قد تكون أحوج لها مني.

بعد يومين وصل الشباب إلى نيويورك عائدين من أوهايو بعد أن أنهوا اجتماعاً كان مقرراً لمنظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا. وهذه المنظمة كانت مدعومةً مالياً بشكل أساسي من العراق. واتصلت بالمرحوم راجي مصلح، أحد الذين كان لديَّ أرقام هواتفهم. وهو من تابع قضية قبولي في معهد اللغة في جامعة نيويورك. وكان شاباً فلسطينياً في أواخر العشرينيات من عمره. وكان طالباً في الدراسات العليا في كلية الاقتصاد في جامعة نيويورك. وكان يسكن معه في شقة مكونة من ثلاثة غرف نوم وصالة شاب فلسطيني أخر هو المرحوم نبيل زيدان. وكان نبيل في منتصف الثلاثينيات، وكان قد توقف عن الدراسة وبدأ يبحث عن عمل. حيث كان يحمل بطاقة الإقامة الدائمة التي تعرف "بالغرين كارد" ومن حقه العمل في الولايات المتحدة. واحتللت الغرفة الثالثة في الشقة، والتي كانت تستخدم للضيوف. وبدأت بدراسة اللغة على الفور في جامعة نيويورك. وكان لا بد لي من المزاوجة بين الدراسة والعمل الطلابي والحزبي، والذي كان بانتظاري حتى قبل وصولي إلى الولايات المتحدة.

1982 عامٌ حافلٌ بالأحداث وحزين

فور وصولي إلى الولايات المتحدة، طُلبَ مني أن أكون في مقدمة العمل السياسي والطلابي في مدينة نيويورك. وكان من ضمن العمل قيادة خلايا حزبية لتنظيمات الحزب في مدينة نيويورك والمدن القريبة في ولاية نيوجيرزي المجاورة. وامتدت مسؤوليتي لاحقاً لتشمل منطقة نيو إنكلاند في الشرق الشمالي من الولايات المتحدة، والتي كانت تمثل الخلية الحزبية في مدينة بوسطن أكبر التنظيمات فيها. وأيضا، وبحكم اهتماماتي الأدبية وتخصصي في المسرح والإخراج، أوكلَ إليَّ البرنامج الإذاعي الأسبوعي. والذي كان يُبث إلى أبناء الجالية العربية في ولايتي نيويورك ونيوجيرسي، واللتان يفصل بينهما نهر الهاتسون فقط. كما وتمت إضافتي إلى المجموعة المُكلفة من الحزب بالمناقشة والتفاوض مع التنظيمات السياسية الأخرى وعلى رأسها التنظيمات الفلسطينية مثل حركة فتح والجبهتين الشعبية والديمقراطية. وذلك بغرض تنسيق النشاطات المشتركة التي كنا نجريها معاً، وخاصة تلك المتعلقة بالقضية الفلسطينية. وامتد العمل ليشمل النشاط الطلابي على صعيد الولايات المتحدة. وفي آواخر صيف 1981 انعقد مؤتمر منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا. وأُنتخبت فيه عضواً في المجلس الإداري للمنظمة، والمكون من 21 عضوا. وفي أول اجتماع للمجلس الإداري بعد المؤتمر، كانت أول مهمة أُكلف بها هي مرافقة الأستاذ **محمود السعدني**، السياسي المصري المخضرم والكاتب الساخر ورئيس تحرير مجلة روز اليوسف الذي كان مدعواً لحضور المؤتمر، في رحلة لإلقاء محاضرات في عدة فروع المنظمة في ولاية بنسيلفانيا المجاورة لولايتي نيويورك ونيوجيرزي. وفي أحدى المحاضرات في فرع جامعة بين ستيت في مدينة ستيت كوليج، تعرفت على أحد الطلاب العراقيين الذي ذكر لي بأنه سيذهب إلى **جامعة توسكيكي** في ألاباما لأنه استطاع الحصول على قبول في الجامعة هناك وهي تطلب معدل 500 في امتحان اللغة "**التوفيل**" كشرط للقبول على دراسة الماجستير. وكنت في ذلك الوقت قد قدمت امتحان اللغة بعد مضي فصل واحد في جامعة نيويورك وحصلت على 496 بالرغم من قصر الفترة والتعطيل المتكرر بسبب حضور النشاطات المتعددة التي تخللتها تلك الفترة الحافلة في ذلك العام. وإذا ما أردت الدراسة في جامعة نيويورك كان علي أن أُكمل السنة في معهد اللغة وإعادة الامتحان للحصول على معدل 520 أو أعلى، الذي كانت تشترطه الجامعة. وكان أيضا دخول قسم المسرح يتطلب امتحانات لغة أخرى أكثر تخصصية. وكان لا بد من الحصول على كافة الأعمال المسرحية

التي شاركت فيها في العراق مصورة ومترجمة إلى اللغة الإنكليزية. وهذا كان سيستغرق وقتاً إضافياً قد يمتد لعام أخر للحصول عليه من العراق بسبب ظروف الحرب مع إيران. ولهذا، ومن باب الاحتياط، طلبت من الزميل العراقي أن يأخذ أوراقي معه إلى جامعة توسكيكي أملاً في الحصول على قبول جامعي مُبَكِّر فيها على الماجستير، حتى ولو بغير اختصاص المسرح. وذلك لأن بقائي في نيويورك أصبح لا يطاق وذلك لغلاء المعيشة ومحدودية المنحة في حينها. وأيضا لكثرة النشاطات فيها في الوقت الذي تحتاج فيه دراسة المسرح إلى تفرغٍ كامل. كما وأن كل الرفاق الحزبين الذين كانوا مُكلفين بالعمل السياسي والحزبي في نيويورك هم من غير الطلاب المقيمين مثل نبيل وسمير. وراجي الذي كان قد مضى على دراسته في الماجستير أربع أو خمس سنوات. هذا في الوقت الذي تتطلب دراسة الماجستير ضمن حالات طبيعية من عامين إلى ثلاثة. وكنت كثيرا ما أمزح مع راجي وأقول له بان المعيشة في نيويورك تحتاج إلى جيبٍ ملآن بالمال ورأس فارغ من المشاكل. على كل الأحوال، عندما استشَرت قيادة الحزب في الولايات المتحدة لم يكن لديها مانع من انتقالي من مدينة نيويورك إلى مكان آخر يمكن أن أقوم فيه بنشاط حزبي وطلابي. خاصة وأن الرفيق منير، أمين سر شعبة الحزب الذي اختارني لأكون في نيويورك، كان قد أنهي دراسته وعمله في الولايات المتحدة وسافر إلى الأردن بعد وصولي إلى الولايات المتحدة بأقل من شهر. وحل محله في أمانة سر الشعبة نائبه الرفيق "الحجي" صادق.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على عودتي من رحلة بنسلفانيا مع محمود السعدني، حتى تلقيت رسالة من جامعة توسكيكي تعلمني بقبولي المشروط للبدء بدراسة الماجستير فيها في مجال علوم التربية الاجتماعية. وكان الشرط أن أسجل على مادة الإنشاء في اللغة الإنكليزية إضافة إلى مادة أو مادتين من الاختصاص. وطُلبَ مني أن ألتحق بالجامعة في الفصل الدراسي الذي يبدأ في الثاني من كانون الثاني من عام 1982. أي بعد ما يقارب الشهرين من تاريخ القبول المشروط. رحلت من نيويورك إلى توسكيكي، والتي هي مدينة جامعية صغيرة. ولا يمكن مقارنتها من حيث الجغرافيا بحي صغير من أحياء نيويورك. ولا من حيث السكان. حيث يوجد في نيويورك طلاب وبشر من كل أصقاع الأرض. هذا في الوقت الذي تقتصر فيه توسكيكي على طلاب معظمهم من ذوي البشرة السمراء. جاؤوا من كل أنحاء الولايات المتحدة والعالم، وخاصة من القارة الأفريقية. حيث إن هده الجامعة تعتبر **مركزاً للثقافة السوداء والإشعاع الأسود**. وامتازت بتخصصي الزراعة والطب البيطري. وهي اختصاصات استقطبت الكثير

من الطلبة الأمريكان البيض. والأجانب والعرب، وتحديداً العراقيين والسعوديين وبعض المصريين. والذين جمعتهم كلية الزراعة التي اشتهرت بتجاربها المتطورة في مجالات الزراعة والثروة الحيوانية. وبالرغم من أن توسكيكي مدينة صغيرة وكانت تمثل فرصةً كبيرة لي للتركيز على دراستي بعيداً عن صخب نيويورك ونشاطاتها المتعددة، إلا أن 1982 وعندما بدأت العام الدراسي الأول في توسكيكي، كان عاماً حافلاً بالأحداث على صعيد العمل السياسي والحزبي. وعلى الصعيد الدراسي. وتخللته مناسبات حزينة على الصعيدين الشخصي والوطني. حيث لم يَمضِ أكثر من شهر على بدء دراستي في جامعة توسكيكي حتى تلقيت نبأ وفاة جدي أبوعلي في منتصف شهر كانون الثاني. وهو كان بالنسبة لي المعلم الأول والمثل الأعلى. وكنت على أمل أن أعود إلى سورية يوماً وهو ما يزال على قيد الحياة.

وفي منتصف صيف عام 1982 عُقد المؤتمر السنوي لمنظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا، وانتخبت فيه رئيساً لها. وكانت رئاسة المنظمة عبئاً ثقيلاً عليَّ فاق كل نشاطات نيويورك ومنطقة نيو إنكلاند وألاباما مُجتمعةً. كما وكان عليَّ في ذلك العام أن أتعامل مع تداعيات القرارات الصادمة التي جاء بها السيد **علي حسن المجيد**، ابن عم الرئيس صدام حسين وعضو قيادة قطر العراق في حينها ومسؤول منظمات خارج الوطن للطلبة العراقيين. ومنها قرار فصل تنظيم الطلاب العرب الحزبيين عن العراقيين. وأيضا تشكيل الاتحاد الوطني لطلبة العراق في الولايات المتحدة. وكان من شأن هذين القرارين تفريق صفوف المنظمة الحزبية وإضعاف عمل منظمة الطلبة العرب، والتي كان معظم أعضائها من الطلبة العراقيين. وهذا ما سبب لي احراجاً كبيراً، ووضعني في موقف صعب.

اجتياح بيروت

وأيضاً في العام نفسه، 1982، اجتاحت إسرائيل بيروت واستباحت حُرمة العرب في عقر دارهم. ولم يستطع أن يجابهها أحد، أو أن يقف في طريقها عائق. وهذا كان بمثابة صدمة كبيرة لي. فتكلمت بخصوصها في العديد من المناسبات بصفتي كرئيسٍ لمنظمة الطلبة العرب، وكتبت عنها بشكل شخصي في الصحف والمجلات. وكان هذا بعضاً مما كتبته، ولعله يُعبر عن واقع الحال في ذلك الوقت، ولربما في الوقت الحالي أيضاً:

يا سادة يا كرام: يُحكى أن مدينةً كان يعسكر فيها الطاعون، وتجتاحها عواصف زمن الرعب، وتنتشر في أرجائها السجون. مدينة عاقلها مجنون وكاهنها مأفون. الأطفال فيها قبل سن الرشد يموتون. والراشدون فيها لا يُعمّرون. مدينة مفكروها لا يقرأون. وإن قرأوا فهم لا يستوعبون. الشعب فيها نائم. والحاكم غارق في سكرةٍ ومجونْ. هذه المدينة يا سادة يا كرام ليست من الزمن الماضي ولم يتخيلها الواهمون. مدينة ليست من عصر هولاكو أو نيرون. إنها مدينة حاضره اليوم في كل عاصمة عربية. مدينة يُدنسُ فيها الشرف العربي، وتُغتال فيها الكرامة العربية، وتُخنق فيها الحرية. وتُسجَلُ فيها كل الجرائم الإنسانية ضد مجهول. وفي اليوم التالي يسير القَتَلة في جنازة الضحية مزهوين. أما الضحية اليوم يا سادة يا كرام فهي شعبٌ بأكمله، بلدٌ بأكمله، وطنٌ بأكمله. وأهل الضحية مازالوا يتفرجون. شكر الله سعيكم أيها الزعماء العرب. لقد انتهت المسرحية. هرب المخرج ومات الممثلون. ولم يبقَ على المسرح إلا صورة مهشمة لمدينة كُتب عليها "بيروت الثاني والثمانون.

إذا كنت عربيا وتنتمي إلى أمة الجراح، ضع إصبعك على جرحك وتوقف عن العويل والصياح

وإن كنت تملك في هذا الوطن بيتا، فاعصب يدك على مقبض الباب واحرص على المفتاح

وإذا كان لديك قلماً، فاكتب إلى أصحاب الجلالة والمعالي والفخامة والسيادة

وإلى أصحاب النياشين والأوشاح.. وحملهم جميعا مسؤولية هذا الاجتياح

أما إذا كنت تملك سيفاً، فعارٌ عليك أن يبقى في غمده حتى مطلع الصباح

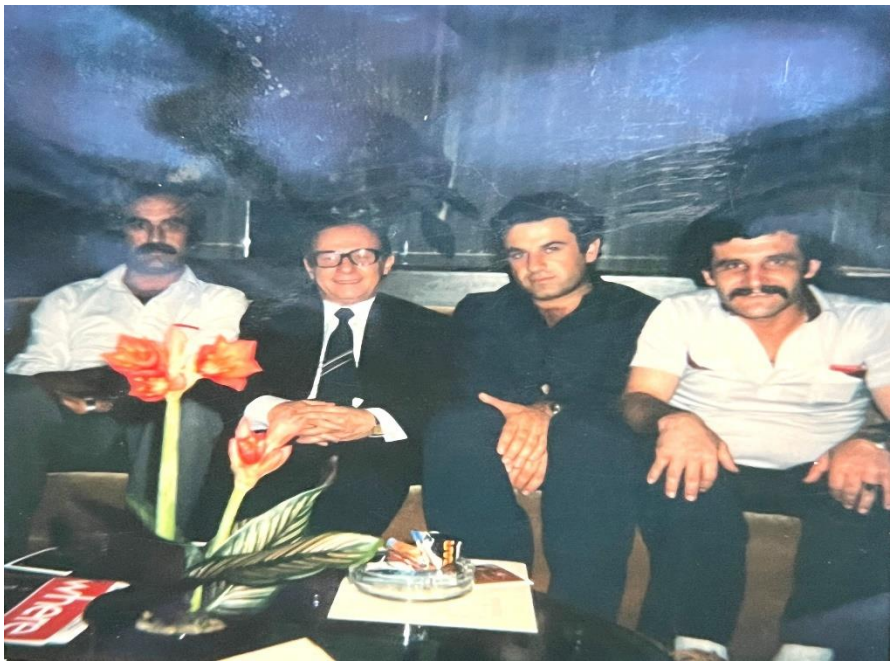

مع المرحوم الدكتور الياس فرح الذي كان عضوا في القيادة القومية لحزب البعث،

بعد انفضاض مؤتمر المنظمة الذي انتخبت فيه رئيسا. ويظهر المرحوم راجي مصلح على يمينه.

وبجانبي نبيل الخطيب الذي كان رئيسا لاتحاد الطلبة العرب قي فينزويلا

مقابلة مع التلفزيون العربي في ديترويت، أجرى المقابلة صاحب المحطة ومدير التلفزيون الأستاذ فيصل عربو

مع رئيس ونائب رئيس فرع منظمة الطلبة العرب في جامعة توسكيكي

في نشاط ثقافي لفرع منظمة الطلبة العرب في جامعة توسكيكي

العراق يتجه نحو المجهول

"هه بشر. شو ردوا عليك في بغداد حول موضوع الاتحاد الوطني لطلبة العراق، وشلون شفت العراق؟" كان هذا سؤال الرفيق **الحجي صادق**، أمين سر شعبة حزب البعث في الولايات المتحدة، عندما قابلني فور عودتي من زيارتي الأخيرة إلى العراق عام 1983. "لا أعتقد بأنه هناك أي أمل بإلغاء القرار على الإطلاق. ولكنني اعتقد بأن تنفيذه قد يتأخر إلى العام القادم. أما بخصوص العراق اعتقد بأنه يعيش أزمة كبيرة لم يشهدها من قبل، وهو يتجه نحو المجهول"، أجبته. قال ودونما انتظار: "وشو يعني ها الحكي؟" أجبته وأيضا دون تردد: "يصعب عليَّ أخبارك بكل التفاصيل الآن على هذا السؤال، لكنني أعتقد بأنه سيأتي اليوم الذي سأكتب فيه عن هذا الموضوع."

تحسباً لما قد يحمله المستقبل لمنظمة الطلبة العرب بعد قرار العراق الذي حمله لنا السيد علي حسن المجيد في صيف عام 1982 بتشكيل الاتحاد الوطني لطلبة العراق، بدأنا ومنذ اليوم الأول بمحاولة تنويع مصادر دخل المنظمة وعدم الاعتماد الكلي على الدعم الذي كان يأتي من العراق. وفي الاجتماع الأول للجنة التنفيذية للمنظمة بعد المؤتمر، شكلنا وفداً لهذا الغرض. وكان الوفد برئاستي كرئيس المنظمة وعضوية الزميل سعيد الرئيس السابق للمنظمة. والزميل مصطفى الذي كان يُقيم في العاصمة واشنطن ولديه الخبرة ويتمتع بعلاقات واسعة فيها. وكانت مهمة الوفد الأساسية زيارة السفارات والمؤسسات العربية في واشنطن. وخُصصت الزيارة الأولى للجامعة العربية، والتي كان سفيرها في ذلك الوقت في واشنطن المرحوم الدكتور **كلوفيس مقصود**. وكان لقاؤنا معه مميزاً، وقدم لنا تبرعاً سخياً لم يحصل من قبل. وبحيث كان تبرع الجامعة العربية مثلاً حَفز بعض السفارات العربية الأخرى ومؤسسات الجالية العربية على التبرع والاهتمام. كما وعملنا أيضا على زيادة عدد أعضاء المنظمة من الطلبة العرب المستقلين وغير المنتسبين لمنظمات طلابية أخرى كالاتحاد العام لطلبة فلسطين. والذي كان له اعتبار خاص بسبب خصوصية القضية الفلسطينية. وكان هذا التحرك يهدف بشكل أساسي لتعويض النقص من الطلبة العراقيين، إذا ما حصل وخرجوا من المنظمة في حال تشكيل الاتحاد الوطني لطلبة العراق. وذلك لأن دستور المنظمة كان لا يسمح بازدواجية العضوية، والذي عملنا على تخفيفه لاحقاً في أول مؤتمر. وكان دخول طلبة جدد إلى المنظمة يزيد من دخل المنظمة الناجم عن زيادة في الاشتراكات. لكن هذا كله كان يعتبر خطوات محدودة. وذلك لأن ما استطعنا جمعه من تبرعات وزيادة

في الاشتراكات كان لا يمكن أن يُقارن بما كان يأتي من العراق كميزانية للمنظمة. وكذلك الزيادة في عدد الأعضاء الجدد لا يمكن أن تعوض عن الطلاب العراقيين الذين كانوا يشكلون أكثر من 80 بالمائة من العدد الإجمالي لأعضاء المنظمة. ولهذا كان لا بد من وقف، أو على الأقل تأجيل، قرار القيادة العراقية بتشكيل الاتحاد الوطني لطلبة العراق. خاصةً وأن المنظمة كانت قد تعرضت إلى صدمة كبيرة وتصدع من قبل عام 1979-1980 بخروج الطلبة الفلسطينيين منها. وذلك عندما تشكل الاتحاد العام لطلبة فلسطين. وهي بالأساس منظمة عربية عريقة. كانت قد تأسست في الولايات المتحدة أبان المد القومي في الخمسينيات، بعد ثورة الضباط الأحرار في مصر بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر. وتعززت وقويت بشكل معنوي كبير بعد الثورة التي قادها حزب البعث في 8 أذار في سورية عام 1963. وبعد مجيء ثورة البعث في العراق عام 1968، تبنى العراق الإنفاق على المنظمة بشكل كامل ودعمها بكل الإمكانيات المتاحة. حيث كان لهذه المنظمة تأثير واسع النطاق ليس على صعيد الساحة الطلابية في الولايات المتحدة وتعريف الأمريكان بالقضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية وحسب، بل وكانت تخرج الكوادر القيادية والطاقات العلمية التي تعود إلى البلدان العربية. وكان من أبرز رؤساء المنظمة في فترات مختلفة المرحوم الدكتور **أسامه الباز**، الذي كان أهم منصب تقلده هو مستشاراً للرئيس المصري الراحل أنور السادات. وكذلك المرحوم الدكتور **سعدون حمادي** الذي كان وزيراً لخارجية العراق. والعديد من الخبراء في الاقتصاد والري والزراعة والصناعة والتجارة والهندسة، وشتى المجالات الأخرى. ومنهم من عملوا كخبراء في مجالات عدة بعد عودتهم إلى بلدانهم العربية. ولهذا وكرئيس للمنظمة، كان لا بد لي من أن أخوض "معركة" قاسية من أجل الحفاظ على تماسك المنظمة ووحدتها. وكانت المناقشات والمداولات التي أجريناها بهذا الخصوص تأخذ أشكالاً مختلفة. منها ما كان صاخباً ومنها ما كان هادئاً. وقسم منها كان في العلن، والقسم الأكبر كان في جَلساتٍ مغلقة. وكان هناك على ما يبدو قراراً نهائياً وحاسماً لا رجعة عنه من القيادة العراقية في بغداد لتشكيل الاتحاد الوطني لطلبة العراق. وذلك باعتقادي بسبب تداعيات الحرب العراقية-الإيرانية، والتي كانت قد بدأت في ذلك الوقت تأخذ منعطفات جديدة. والتي، بحسب القيادة العراقية، كانت تتطلب التفاف كل العراقيين في الداخل والخارج حول القيادة. وحول الرئيس صدام حسين تحديداً، والذي كان يُرادُ له أن يكون رمز العراق الوطني. ولهذا كان لا بد من إبقاء الطلبة العراقيين تحت السيطرة المباشرة للحكومة التي يمكن أن تتابعهم بشكل أكثر صرامة وحزم عبر القيادة القطرية ومؤسسة البعثات والاتحاد

الوطني لطلبة العراق في بغداد. حيث إن الغالبية العظمى من الطلبة العراقيين في الولايات المتحدة كانوا بعثيين ولديهم بعثات ومنح دراسية من وزارة التعليم العالي العراقية. وذلك بعكس الطلبة من الأقطار العربية الأخرى الذين كان معظمهم ليس لديه بعثات ومنح دراسية. ومن كان لديه منحة دراسية مثلي كانت تأتي بشكل مباشر من القيادة القومية للحزب. والكثيرون منهم لن يعودوا إلى العراق بعد التخرج، وإنما إلى بلدانهم بعكس الطلبة العراقيين الذين كانت منحهم مرتبطة بعودتهم الفورية إلى العراق بعد التخرج. هذا وبالرغم من تفهمي لهذا الوضع بشكل عام، لكنني لم أكن لأستطيع القبول بتقويض المنظمة أو تحجيمها بأي شكل، وأنا رئيسها. وفي أوائل نيسان من عام 1983 دُعيتُ إلى اجتماع قيادة شعبة الحزب في الولايات المتحدة لمناقشة الموضوع وتداعياته. وبعد الاجتماع مباشرة أَبلغت أمين سر الشعبة الرفيق الحجي صادق على انفراد بقراري الذي لا رجعة عنه. وهو في حال تم تشكيل الاتحاد الوطني لطلبة العراق خلال الدورة 1982-1983، أي قبل انعقاد مؤتمر المنظمة الذي كان مقرراً في أواخر صيف 1983، سوف أستقيل من منصبي كرئيس للمنظمة بكل هدوء ودون ضجة. وسأسلم مهامي إلى نائب الرئيس، الذي كان عراقيا. لكن الرفيق الحجي صادق تعامل مع الموقف بهدوء ووعي. وطلب مني ألا أطرح موقفي هذا على العلن. وقال لي لماذا لا تذهب بنفسك إلى العراق كمحاولة أخيرة وتحاول أن تطرح وجهة نظرك على القيادة. علها تستمع لك. فشكرته على اقتراحه. وراقت لي الفكرة، بالرغم من الصعوبات التي كانت تكتنفها والعواقب التي قد تتمخض عنها. وطلبت منه أن يُرتب الأمر مع بغداد. وألا يتحدث مع أحد بموقفي حول الاستقالة لحين عودتي من بغداد لربما يتغير الموقف وأن أستطيع إقناع القيادة في العراق، على الأقل بتأجيل تنفيذ القرار بتشكيل الاتحاد الوطني لطلبة العراق في الولايات المتحدة إلى ما بعد مؤتمر منظمة الطلبة العرب، إن لم يكن العدول عنه وارداً.

سافرت إلى العراق في فترة احتفالات ثورة 17 تموز. وكان سفري بدعوة من مكتب الطلبة والشباب القومي. وكانت الرحلة مقررة لعشرة أيام فقط. وذلك كي يتسنى لي العودة إلى الولايات المتحدة للمشاركة في التحضير للمؤتمر الذي كان مقرراً عقده في أواخر شهر أب، أي بعد أقل من شهر ونصف. وعندما وصلتها، كانت بغداد لا تختلف كثيرا عن وضعها عندما غادرتها قبل أكثر من عامين بقليل. عدا أن الناس بشكل عام ازدادت لديهم حالة الترقب والخوف من المجهول. ولاحظت بأنهم أصبحوا يخافون بعضهم بعضاً. ويدققون في كل كلمة وجملة يقولونها. وذلك خوفاً من أن تعود عليهم بمردودٍ

عكسي في أجواء الحرب التي تفاقمت وأصبحت تُلقي بظلالها الثقيلة على كل شيء. لم يكن وضع الحزبيين ليختلف عن عوام الناس بكثير. فهم إما كانوا يتكلمون بالمديح الصريح أو النقد الخفيف المُبطن وبحذر. أما من قابلتهم من المسؤولين من العرب (غير العراقيين) كانوا حذرين جداً حتى داخل مكاتبهم. وحتى أن أحدهم طلب مني أن نخرج ونتمشى في الخارج. وذلك لأنه كان يعتقد بأن مكتبه قد يكون فيه أجهزة تنصت. والجملة التي ترددت على مسامعي في هذه الزيارة من أغلب المسؤولين العرب كانت "أنا أعرف ماذا تريد أن تقول لي، ولا بد وأنك تعرف ماذا يمكن أن أقوله لك." أما المسؤولون العراقيون فكانوا واضحين وصريحين في أحاديثهم. وكانوا يعرفون ما الذي يريدون قوله. بل ويتأكدون بأن الرسالة قد وصلت بشكل جَّلي ومباشر. والرسالة كان مفادها **"بأن الوطن مُهدد والرئيس صدام هو رمز الوطن، والمساس بأي منهما وبأي شكل هو مساس بالآخر."** وكانت كل القرارات والتوجهات تصب في هذا الاتجاه. حتى وأن رئيس الاتحاد الوطني لطلبة العراق في ذلك الوقت استغرق أكثر من نصف ساعة وهو يشرح لي كيف صمم وبنى المهندس الكوري صورة الرئيس صدام حسين المنتصبة من الأرض إلى السقف في مدخل مبنى الاتحاد المكون من طابقين. وماطل معي بشكل ملحوظ في قضية كتابة البيان المشترك الذي كنا نعتزم إصداره باسم منظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة وكندا والاتحاد الوطني لطلبة العراق. والذي كنت أسعى له أن يكون بياناً متوازنا. ولا يُفرِط في مبالغة تمجيد العراق حتى لا نثير حفيظة الطلبة المستقلين في المنظمة. وصدر البيان لاحقاً دون أن أَطَّلِع على النسخة النهائية منه كما كان مقرراً. وتفاجأت بأن الصحفي الذي جاء من قبل صحيفة الثورة العراقية لإجراء مقابلة معي بمناسبة الزيارة كان قد حضر وبرفقته أحد الطلبة الذين كانوا يدرسون في الولايات المتحدة، والذي كان معروفا لدينا بأنه يعمل بشكل أو بآخر مع المخابرات العراقية. وعندما صدر عدد الصحيفة في اليوم التالي لاحظت بأنه تمت إضافة جملتين مديح للرئيس صدام حسين لم تتضمنها المقابلة. وهذا الأمر أثار امتعاضي أيضاً. لكنني قبلته على مضض مثلما حصل في قضية البيان المشترك.

لقد لمست خلال زيارتي هذه لبغداد بأن موقع الرئيس صدام وضرورة عدم السماح بانتقاده بأي شكل لم يَعُد تقتصر على فئة ما أو شريحة بعينها، بل أصبح حالة عامة وظاهرة مجتمعية. حتى وأنها طالت بعضاً من المعارف الأصدقاء المقربين من غير العراقيين. وتأكدت من ذلك عندما وجدت أحد الأصدقاء

الذي كان من المقربين لي يحاول استجراري بالكلام ليتعرف على حقيقة موقفي من الرئيس صدام حسين وتصرفاته الفردية. وكان واضحاً لي بأنه كان مُكلفاً بذلك. ولو لم أكن لأسمع العبارة نفسها التي سمعتها منه (**الرئيس صدام أصبح ديكتاتوراً وبدأ يتجاوز الرفاق في القياد القومية**) من مُخبِرٍ آخر كان طالباً معنا في الولايات المتحدة، لكنت بُحّتُ لصديقي المُفترض برأيي وأكلت المقلب. والذي كان يمكن أن يكون خطيراً جداً عليَّ في تلك الأيام. حتى أن سائق التكسي الذي طلبت منه أن يوصلني إلى السفارة الأمريكية لتأكيد تأشيرة العودة إلى الولايات المتحدة حاول أيضاً أن يتنزع مني موقفاً حول الحرب مع إيران التي طالت وعِرضِت، على حد تعبيره. لقد لمست خلال زيارتي هذه لبغداد بأن وضع الخوف والشك والريبة وطغيان الحالة الأمنية قد أصبح حالة عامة لم تعد تقتصر على فئة مُعينة أو شريحة بعينها، بل اتسعت لتصبح حالة شعبية غير طبيعية وظاهرة مجتمعية تُنذر بالخطر. وذلك لأنه عندما تبدأ الدولة تشكك بمواطنيها تنعدم الثقة بين الطرفين ويهتز مبدأ المواطنة ويصبح الوطن عرضةً للاستباحة من أي طرف خارجي.

لقد عرفت كل ما أردت معرفته في زيارتي الأخيرة إلى بغداد خلال الأيام الخمسة الأولى. وسمعت فيها كل ما لم أرد سماعه. ولهذا لم يعد هناك من داعٍ للبقاء فيها أكثر من ذلك. فقطعت زيارتي وغَيّرتُ حجزي وعدت إلى الولايات المتحدة. وبينما كنت في الطائرة مغادراً العراق، وكان لديَّ شعورٌ خفي بأنها ستكون الزيارة الأخيرة، عادت بي الذاكرة إلى عام 1979 عندما كنت في مدرسة الإعداد الحزبي تمهيدا للحصول على العضوية العاملة في الحزب. وذلك عندما كنت في عصر يوم صيفي انحدرت فيه الشمس نحو الغرب أجلس على مقعد خشبي وحدي في الحديقة الأمامية للمدرسة. وكنت أقرأ كتاباً حول "عفلق ونيتشه" وجدته في مكتبة المدرسة. وهو يتحدث عن تَأثُر ميشيل عفلق في مرحلة دراسته في فرنسا بفلسفة فردريك نيتشه المثالية. وعندها جاءني أحد الرفاق من الفلسطينيين المُقيمين في العراق، وسألني إن كنت قد قرأت تصريح الرفيق صدام لمجلة السياسة الكويتية. وكان أول تصريح يقدمه صدام حسين بعد أن أصبح رئيساً للدولة قبل أقل من شهر. فأجبت بالنفي. وما جاء به، أردفت. قال: سُئل الرفيق صدام حسين من هي الشخصية العالمية المُعجب بها، ولماذا. فقال "**لينين**" لأنه اتبَعَ سياسة حرق المراحل. وما أن سمعت بقصة حرق المراحل هذه حتى توثب في داخلي عتبٌ دفينٌ على الرفيق صدام حسين لم أَبُح به من قبل لأحد. فهو كان لتوه قد حرق مرحلة رئاسة الدولة بمصادرتها من الرئيس

أحمد حسن البكر قبل الأوان. وقام بمسرحية المؤامرة في قاعة الخُلد للتخلص من كل المعارضين المحتملين. وكذلك كان قبلها بقليل، في المؤتمر القومي العاشر للحزب، قد حرق مرحلة مهمة لقيادة الحزب. وذلك عندما فَرَضَ على المؤتمر ترتيبات غير مألوفة في قيادة الحزب من قبل. وتمثلت باستحداث **منصب نائب الأمين العام للحزب ومجلس أمناء عامين مساعدين**، وأصبح هو من ضمنه. وكان الهدف منه كي يستعجل الزمن ليصيح هو الأمين العام للحزب خلفا للأستاذ ميشيل عفلق. هذا في الوقت الذي كان يُخطط ليحل مكان البكر في رئاسة الدولة. ولهذا جاء ردي على هذا التصريح على عجل ودون أي تفكير، وكمن يحرك لسانه قبل إن يحرك عقله، وقلت "بالحقيقة **إن الرفيق صدام حسين لا يشبه لينين، وإنما يشبه ستالين. فلقد حرق لينين المراحل لكي يستعجل بناء الحزب والدولة. وأما الرفيق صدام إذا ما بقي على هذه العجلة من أمره في حرق المراحل، فسيحرق الحزب والدولة."**

كنت أنظر إلى رفيقي الفلسطيني وهو يتفرس في ملامح وجهي مندهشاً، ولم يكن ليصدق ما كان يسمع. فما كان منه إلا أن تظاهر بأنه لم يسمعني أبداً. فاستدار وسار بعيداً عني وإلى أن شاهدته وهو يختفي داخل الباب المؤدي إلى مهجع السكن في المدرسة. كم أنا مُدان لهذا الرفيق إلى هذه اللحظة، رحمه الله. وذلك لأنه لو كتب تقريراً حول هذه الحادثة في ذلك الوقت بالذات لكان بالتأكيد قد تسبب بتداعيات لا أحد كان يمكن أن يتوقع عواقبها. وكذلك كم أنا مُدان للرفيق الحجي صادق الذي مَنحني فرصة الذهاب إلى العراق لأتبين الوضع بنفسي. ولقد وجدت العراق يومها، عام 1983، وقد ضَعُفت فيه سلطة الحزب. وتحول إلى حزب للسلطة. وطغت فيه قوة الرئيس على قوة الدولة، فأصبح العراق دولة الرئيس. وتحول من دولة أمنٍ واستقرار إلى دولة أمنية غير مستقرة. هذا في الوقت الذي طال فيه أمد الحرب العراقية الإيرانية، التي اعتقد الرئيس صدام حسين بأنها لا يمكن تستمر أكثر من أيامٍ معدودة. ولم يكن في حينها، بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات عليها، أي أُفقٍ لنهايتها. ولهذا شعرت وقتها بأن العراق يعيش أزمة كبيرة لم يشهدها من قبل في تاريخه الحديث، وهو يتجه نحو المجهول.

زوار الفجر في ديترويت

أفقت مذعوراً على صوت طرقات قوية على الباب. نظرت إلى الساعة الموضوعة إلى جانب السرير وكانت تشير إلى السادسة والنصف صباحا. "جعل الله الأمر خيرا"، تمتمت وهرعت مسرعاً إلى الباب لأتبين من الطارق. مَن الطارق؟، سألت. فجاء صوت رُجلٍ على عجل، وكان حاداً وصارماً: أنا **موظف من دائرة الهجرة**. خاطبني بإسمي قائلاً: "رياض، افتح الباب بسرعة وإلا كسرته." الرجاء الانتظار لحظة حتى أرتدي ثياباً لائقة، جاوبته بشيءٍ من الرُهبة والتعجب. وعدت سريعاً إلى غرفة النوم وارتديت سروالاً وقميصاً كنت قد وضعتهما على كرسي صغير بجانب السرير. ومن ثم عدت مسرعاً لأفتح الباب. وعلى ما يبدو بأن موظف الهجرة افترض بشكل انفعالي بأنني شخصٌ عنيف، وقد تأخرت لفتح الباب لالتقاط سلاحاً ما لمقاومته. وما أن فتحت الباب، وقبل أن يتسنى لي التأكد من هويته ومن أذن المحكمة له بدخول البيت كما كان ينص القانون في حينها، وضع مسدسه في رأسي وأمرني برفع كلتا يدي إلى الأعلى وألا أقوم بأية حركة. وطلب من زميله موظف الهجرة الآخر تفتيشي بشكل دقيق. وما أن تأكد زميله بأنني لا أُخفي أي سلاح في ملابسي، أخفض مسدسه. وكذلك فعل شخص ثالث كان يقف خلفهما على الباب. وعندها بدأت الرؤوس الحامية تبرد تدريجياً، طلبت من زوار الفجر إبراز بطاقاتهم المهنية والأذن بالدخول مرة ثانية كما يُخولني القانون الأمريكي. تبين لي بان الشخص الأول الذي وضع المسدس في رأسي هو موظف رفيع المستوى من **المهمات الخاصة في دائرة الهجرة في مدينة ديترويت**. والشخص الذي أمره بتفتيشي يعمل في مجال التحقيق. أما الشخص الثالث، والذي كانت تبدو عليه بعض الملامح العربية، كان من **مكتب التحقيقات الفيدرالية ال FBI**. ولسخطي عليه تقصدت أن أخاطبه باللغة العربية. فما كان منه إلا أن تعجب وقال: "ماذا قلت. أنا لا أتكلم اللغة العربية." فقلت له باللغة الإنكليزية: "إذن لقد فهمت المعنى، حسنا تفضل بالدخول." وبدأ الموظف الأول من دائرة الهجرة إمطاري بالأسئلة، بينما انهمك الموظف الأخر وموظف مكتب التحقيقات الفيدرالية بتفتيش البيت. وكان أول سؤالٍ له: من هنا في الشقة، أين **روبير وزهدي؟** وعندها أدركت بأنهم لديهم معلومات دقيقة عنا. روبير هو صديق لبناني. وكان هو المستأجر الأساسي للشقة. وأنا كنت قد نزلت عليه ضيفا بعد عودتي من العراق. وذلك لأنني كنت قد تركت شقتي في توسكيكي في ألاباما للطالب العراقي الذي كان يسكن معي قبل سفري. ووضعت أغراضي الشخصية في الصندوق

الخلفي لسيارتي الفورد القديمة. وبقيت متنقلاً بين الولايات حيث تتواجد فروع المنظمة. استأجر فندقاً رخيصاً حيث أذهب تارةً، أو أنزل ضيفاً عند الزملاء والأصدقاء تارةً أخرى. واستقريت في النهاية مع روبير في ديترويت. وكان روبير في حينها عضواً في الهيئة الإدارية لمنظمة الطلبة العرب التي كنت رئيسها. وكان هو مسؤول المنطقة الثانية، المنطقة التي يتركز فيها الثقل الطلابي بحكم كثرة العرب في ولاية ميتشغان. ووجود أكبر فرع للمنظمة في جامعة واين ستيت في مدينة ديترويت. وكان أيضا يسكن بالقرب من ديترويت في مدينة آن آربر في جامعة ميتشغان عبد الجبار (**جبار**) الذي كان مسؤولَ الإعلام في المنظمة. ولهذا كانت ديترويت هي أفضل مكان لي لكي أستقر فيه ولو مؤقتاً للتحضير معهما للمؤتمر. أما وجود زهدي معنا فكان طارئاً. وذلك لأن زهدي، وهو صديق ورفيق فلسطيني، كان يسكن مع بعض الأصدقاء الأخرين في مدينة لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا. ولم يكن لديه مكان محدد يسكن فيه بعد تخرجه من الجامعة. وكنت قد دعوته لحضور مؤتمر المنظمة بكونه كان عضواً قديماً ونشيطاً فيها. وعرض عليه روبير البقاء معنا في الشقة إلى حين العودة من مؤتمر المنظمة وتَدبرِ أمره. وعندما تأكد موظف دائرة الهجرة الأول بوجود روبير وزهدي في الشقة، أمرهما بالخروج إلى الصالة رافعي الأيادي إلى الأعلى. وتم تفتيشهما كما حصل معي. ومن ثم أمرنا جميعا بالجلوس في الصالة دونما حراك تحت مراقبة موظف مكتب التحقيقات الفيدرالية. بينما تفرغ هو وموظف دائرة الهجرة الآخر بتفتيش الشقة بشكل شامل ودقيق. واكتشفنا لاحقاً بأنه كان هناك موظف آخر يقف في الخارج للتأكد من عدم هروب أحدنا منا من أي منفذ آخر غير الباب الرئيسي للشقة، والتي كانت في الطابق الثاني من عمارة بطابقين. جلس مقابلنا موظف دائرة الهجرة المسؤول وقرأ علينا الاتهام: مخالفة قوانين الهجرة والتواجد في الولايات المتحدة بشكل غير قانوني. وهو جاء ليقبض علينا بهدف ترحيلنا. تفاجأت أنا وروبير كثيراً بالاتهام. ففي الوقت الذي ينطبق هذا الاتهام على زهدي، لكنه لا ينطبق لا عليَّ ولا على روبير الذي كان ما يزال طالباً في الجامعة في السنة الأخيرة. وما أن قدم له روبير المستندات التي تثبت ذلك، قال له: أنت يمكن أن تبقى الآن. وتابع هازئاً لربما عدنا إليك عندما تتخرج. وقال لي ولزهدي أنتما رهن الاعتقال لأنكما مُخالفان للقانون. لم يكن عند زهدي ما يقوله. فهو بالفعل كان مخالفاً للقانون. أما بالنسبة لي فقلت له بأن وضعي قانوني ولا يحق لك اعتقالي. وأبرزت له وثيقتين قانونيتين تُثبِتُ قولي. وكنت قد استبقت الأمر قبل سفري إلى العراق وحصلت على إحداهما خوفاً من الوصول إلى مثل هذا الوضع. وكانت هذه الوثيقة تُثبت بأنني أكملت كافة المواد المطلوبة لنيل

درجة الماجستير من جامعة توسكيكي، وأصبحت مرشحاً لنيل الشهادة شريطة أن أتقدم بطلب الحصول على منح الشهادة خلال فترة ستين يوماً. وكنت قد رتبت هذا الأمر مع عميد كلية التربية التي كنت أدرس فيها من قبل. وذلك حتى يتسنى لي العودة إلى الولايات المتحدة، وإلا سأُعتبر مُتخرجاً في هذه الحالة. ولن يعد بإمكاني الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة كطالب. فتفاجأ موظف الهجرة بهذه الوثيقة. وحاول التلميح بأنها قد تكون مزيفة. وهنا أبرزت له وثيقة ثانية وهي قبول أولي على دراسة الدكتوراة في اختصاص تكنولوجيا التعليم من جامعة واين ستيت في ديترويت. وكنت قد حصلت على هذا القبول قبل يومين فقط، وأيضا من باب الاحتياط عن طريق مساعدة أحدى معارفنا، الدكتورة هيفاء. والتي كانت على معرفة وثيقة بعميد كلية التربية في الجامعة. والذي لم يتوانَ في منحي القبول الأولي فور الاطلاع على كشف علاماتي ومعدل تخرجي في الماجستير في جامعة توسكيكي، والذي كان 98 بالمائة. وهنا بَدت الحيرة وبعض الارتباك على ملامح موظف الهجرة، والذي كان يعتقد بأنني مخالف للقانون، وقد جاء ليعتقلني تمهيداً لتسفيري في اليوم التالي. فوقع بالإحراج. فنهض من مكانه وأجرى اتصالاً هاتفياً على عجل. وكان على الأغلب مع مسؤوله من دائرة الهجرة، ولربما مع مكتب التحقيقات الفيدرالية حسب ما فهمت من رده. وذلك لأن الشخص الذي كان على الطرف الأخر من خط الهاتف أصر على حضوري إلى دائرة الهجرة بغرض التحقيق معي والتأكد بشكل رسمي من قبلهم بأن الأوراق المُقدمة مُوثَّقَه لدى الجامعات، على حد زعمه. ولهذا أصر على ذهابي معه إلى دائرة الهجرة. وعاملني مثلما عامل زهدي كمخالف للقانون. ووضع "الكلبشات" في يديّ كما وضعها في يديَّ زهدي. واقتادنا معا إلى الخارج. ولم أحاول الاعتراض على وضع الكلبشات في يديّ، لكنني امتعضت كثيراً وارتبكت من هذا التصرف غير الحضاري بحقي. كما وتيقنت من عدم جدوى الممانعة. ووددت أن أتضامن مع زهدي. وفي خارج المجمع السكني كانت تنتظر عربة رباعية الدفع. وضوعنا في المقعد الخلفي ومعنا موظفا الهجرة والسائق. بينما ركب موظفا التحقيقات الفدرالية في سيارة أخرى. وانطلقت بنا العربة باتجاه دائرة الهجرة. وهناك أخذونا إلى غرفتين مختلفتين للتحقيق. لم يكن أمام زهدي من خيار إلا أن يختار قرار مغادرة الولايات المتحدة طواعية. ويمكن له في هذه الحالة أن يعود إليها بشكل قانوني، إذا ما استطاع ذك. وإلا ستقوم دائرة الهجرة بترحيله على حسابها قسراً. وفي هذه الحالة سيُطبَق عليه قرار منع دخول الولايات المتحدة مدى الحياة. أما أنا كان لا بد لي من أن أقدم المستندات التي بحوزتي للمسؤول الأعلى. وكان معه في الغرفة موظف مكتب التحقيقات

الفيدرالية. وعلى الفور طلبت من مسؤول دائرة الهجرة أن يتصل شخصيا بعميد كلية التربية في جامعة توسكيكي، دين **بيري وليامز**، الذي وقّعَ لي قرار العودة إلى الجامعة. وعميد كلية التربية في جامعة واين ستيت، دين **ويندل هوف**، الذي وقع طلب قبولي الأولي على برنامج الدكتوراه. وفعلاً أجرى المسؤول الاتصال بهما. وكلاهما أكد صحة الوثائق الصادرة عن مكتبه. بل وتعهدا بعمل أي شيء من شأنه أن يساعدني على البقاء في الولايات المتحدة. حتى أن عميد كلية التربية في توسكيكي، وهو شاعر وأديب، وكانت تربطني به علاقة مميزة، زاد قائلا: رياض من أفضل الطلاب الأجانب الذين التحقوا بجامعتنا، وانا شخصياً معجب به. ومستعد لدعمه بكل ما هو ممكن. لكن موظف الهجرة كان على ما يبدو لديه رأيٌ آخر. وكان يحاول أن يجد منفذاً لموظف التحقيقات الفدرالية للتحقيق معي حول نشاطات منظمة الطلبة العرب وتمويلها. والذي لا يستطيع التحقيق معي بشكل منفصل في هذا الموضوع دون مذكرة قانونية من القاضي. وهذا كان غير ممكناً لأن كل نشاطات المنظمة كانت قانونية ومُرخصة. وكان تمويلها واضحاً وشفافاً. ولم أكُن أدري في البداية لماذا كل هذا الإصرار على معاقبتي. وعندما تدخل موظف التحقيقات الفيدرالية ليبدأ الحديث معي، وقال بشكل عابر وحتى لا يبدو الأمر تحقيقا: لقد كُنتَ نشيطاً في مؤتمر منظمة الطلبة العرب الأخير. وهنا أدركت مغزى كلامه على الفور وسبب ذهابه مع موظفي الهجرة لاعتقالي. وكما يُقال "خير وسيلة للدفاع هي الهجوم." لم أحاول النفي أو التملص من السؤال، وإنما قلت له بكل بثقة: "أكيد، وماذا تتوقع. فأنا، وكما تعرف حضرتك، بأنني كنت رئيس المنظمة قبل أن ننتخب رئيساً جديداً لها في هذا المؤتمر الذي تتحدث عنه." وأردفت بالقول ساخراً: "ورجالكم كانوا نشيطين أيضا. حيث كنت أراهم يتابعونني ويراقبون الوضع في أروقة المؤتمر بالرغم من محاولاتهم بالتخفي." فقال بلؤم: "عليكم أن تشكروا الولايات المتحدة التي علمتكم الحرية والاستفادة من سلطة القانون، والتي هي محضورة عليكم في بلادكم. وكنت قد سمعت الجملة نفسها قبل حوالي عام عندما دخل إلى بيتي في توسكيكي موظف من مكتب التحقيقات الفدرالية هناك، والذي جاءني كزائر. وكان منتحلاً شخصية مُتخصص بتاريخ الشرق الأوسط ومهتم بالسياحة. ويريد أن يحصل على معلومات عن السياحة في الدول العربية مني. فأشرت عليه بالاتصال بسفارات الدول العربية التي يريد السفر إليها في واشنطن. وهي ستزوده بما يريد من معلومات تاريخية وسياحية. وعندما بدأ يسألني عن المسيرة المُعبرة التي كنا قد سَيّرناها قبل يومين في مدينة توسكيكي بمناسبة ذكرى تقسيم فلسطين. وكانت مسيرة صامتة تحمل شعاراً واحداً فقط باللغة الإنكليزية، والذي يقول (**استخدموا أموال أمريكا**

لدعم فقرائها، ولا ترسلوها لدعم الحرب الصهيونية التي تقتل الأطفال الفلسطينيين). وكان يتقدم المسيرة صف جميل ومتسق من الأطفال الذين كانوا يحملون أعلام فلسطين وصوراً تمثل مأساة أطفال فلسطين. وقسم منهم كان يحمل الأعلام الأمريكية. وكانت هذه الحركة مقصودة لغرض إعلامي. فاستقطبت المسيرة جمعاً كبيراً من "الأمريكيين السود" وبعض البيض ومعظم الطلاب العرب والأجانب في الجامعة. وفي اليوم التالي تناقلتها وسائل الإعلام المحلية. وكانت حديث الساعة في تلك المدينة الصغيرة ومحوراً للنقاش بين طلاب الجامعة. وحتى أن أحد الأشخاص علق عليها قائلاً: "بأن هذا النوع من المسيرات لم يحصل منذ مسيرات الحقوق المدنية التي كان ينظمها الدكتور **مارتن لوثر كينغ**." وفعلاً هذا كان هو هدفنا من المسيرة، اعتبار حقوق الفلسطينيين المدنية حقوقاً مسلوبة في وطنهم. وكان على ما يبدو لدى الرجل الذي زارني معلومات بأنني أنا كنت المسؤول الأول عن هذه المسيرة. هذا بالرغم من أنني لم أكن رئيس المنظمة في حينها، وإنما عضو في المجلس الإداري. وكنت أسير في مؤخرة المسيرة. لكن الرجل على ما يبدو لم يستطع أن يحصل على تصريح من القاضي بدخول بيتي والتحقيق معي بشكل قانوني. وذلك لأن المسيرة كانت مُرخصة. ولم يكون هناك أي شيء حدث خلالها يَخِّلُ بالقانون. وأنا لم أقم بأي تصرف غير قانوني حتى يستجوبني عنه. ولهذا جاء "يتشاطر" عليَّ لاستقصاء بعض المعلومات مني بطريقة غير قانونية. ولهذا كان لا بد لي من أن أُبلغه بأن تصرفه هذا غير قانوني. وبإمكاني مُقاضاته. وطلبت منه أن يخرج من بيتي. فقال: إن خرجت دون أن أحصل على ما جئت للحصول عليه، سأعود ثانية. وهنا كررت له القول بعدم قانونية تصرفه. وإن عاد ثانية دون إذنٍ من القاضي، فسيلقى مني نفس المعاملة، الطرد. خرج وهو يقول عليكم أن تشكروا الولايات المتحدة التي علمتكم الحرية واستخدام سلطة القانون والتي هي محضورة عليكم في بلادكم. الرجل كان يقول الحقيقة، ولم يكن بوسعي في هذه الحالة سوى أن ألوذ بالصمت وهو يلوذ في الظلام خارج باب البيت. لكن القضية في ديترويت كانت معكوسة. أنا من أصبح يتمنى الطرد من غرفة التحقيق. وذلك لأن الوضع بات يتطلب تدخلاً قانونياً. ولهذا قلت لموظف التحقيقات الفدرالية، الذي كان ينظر إليَّ ويراني ساهياً وهو يستعد لطرح المزيد من الأسئلة، بأني، وكما يخولني القانون، لن أُجيب عن أي سؤال آخر ستسأله حتى يحضر المحامي. وكنا قد تدربنا على هذا الكلام وهذه المناورة منذ وصولنا إلى الولايات المتحدة لأول مرة من قبل المحامي المُكلف من قبل المنظمة. فسأل بامتعاض، وأين هو محاميك؟ قلت له الرجاء السماح لي بالاتصال به. وسمح لي أن أستخدم جهاز الهاتف الموجود في

الغرفة وتحت المراقبة. اتصلت مع روبير وتكلمت معه باللغة الإنكليزية، كما طلب مني المحقق. وقلت لروبير أين السيد المحامي لقد تأخر، وأنا الآن في غرفة التحقيق في دائرة الهجرة. وكان روبير يعرف مُسبقاً بأنه لا بد من الاتصال بالمحامي في مثل هذه الحالة. فقال: ما زالت الاتصالات جارية معه، وسنحاول كل جهدنا بان يذهب إلى هناك بأسرع وقت. وأبلغت موظفي دائرة الهجرة ومكتب التحقيقات الفدرالية بأن المحامي قادم. وعندها أمر بوضعي في غرفة الاعتقال إلى أن يصل المحامي. وهناك وجدت زهدي كان جالساً على الأرض مع عدد آخر غير كبير من المكسيكيين والأصول اللاتينية الذين كانوا ينتظرون المحامين لتولي قضاياهم، أو الترحيل في اليوم التالي. وقُبيلَ انتهاء الدوام بحوالي ساعة، أي حوالي الرابعة عصراً، حضر المحامي وأخرجنا أنا وزهدي من دائرة الهجرة. فقال لزهدي ونحن نغادر الباب الرئيسي للدائرة: لقد حصلتُ لك على مهلة ثلاثين يوما لشراء بطاقة سفر ذهاب دون عودة إلى الأردن. والتفت عليَّ، وقال: "لقد حجزوا جواز سفرك لديهم لرفع قضيتك إلى قاضي الهجرة للبت بها خلال فترة ستة أشهر. ولن يكون بإمكانك مغادرة منطقة ديترويت قبل أن يتم الاستماع إلى قضيتك في المحكمة ويصدر حكم القاضي فيها." وعندها سألته وما هي قضيتي بالضبط، فكل أوراقي قانونية؟ فلوى برأسه نحوي حتى وصل فمه على مصاف أذني وقال، وكأنه يريد أن يُخبرني همساً، على ما يبدو بأن قضيتك ليست قضية هجرة، وإنما قضية سياسية. وأعتقد بأنهم سيستمرون بمتابعتك. وما الحل، سألته. قال وبصوت منخفض وكأنه لا يريد أن يسمعه أحد غيري: نصيحتي لك إذا كان لديك صديقة أمريكية أن تتزوجها وتحصل منها على الإقامة الدائمة. ماذا؟، تعجبت. وفكرت بما قاله للحظات، وانصرفت إلى حيث كان **روبير ونضال وجهاد** وبقية الشباب بانتظارنا في خارج المبنى.

من اليمين إلى اليسار: م. جهاد فاخوري (الأردن)، د. صادق فرج (العراق)، د. رياض العيسمي (سورية)، م. زهدي الطبيب (فلسطين)، د. خير عساف (فلسطين)، م. روبير داغر (لبنان)، م. نضال فاخوري (الأردن). اللقاء في بيت الحجي صادق في ديربورن، ميتشغان بمناسبة عودة زهدي إلى الولايات المتحدة بعد 32 عام.

غزو الكويت وقصة الحلاق الأرعن

في مطلع صيف عام 1990، زارنا في الولايات المتحدة صديق مقرب للعائلة المُقرب في سورية. وكان رجلاً حكيماً ذا رؤية، ومعروفاً بانتمائه الوطني وتوجهاتهُ العربية. وكثيراً ما دار بيني وبينه نقاشات وتَبادلَ أفكار. وبعد فترة وجيزة من زيارته، كان الرئيس العراقي صدام حسين قد بدأ بالتحشيد العسكري على الحدود مع الكويت. وبالرغم من انني كنت على قدرٍ كبير من الخوف والترقب لوضع العراق، خاصةً وأنني كنت قد شعرت به بعد زيارتي الأخيرة للعراق عام 1983 من سير العراق نحو المجهول، إلا أنني كنت أحاول أن أجد تبريراً منطقياً من الناحية الاستراتيجية لهذه الخطوة. فالعراق كان قد خرج من حرب الثماني سنوات مع إيران مُنهكاً اقتصادياً. ويحتاج إلى انتظام عملية تصدير النفط لتعويض الخسائر التي لحقت به جراء الحرب. وكان لديَّ اعتقاد راسخ بأنه هناك توجه من قبل الولايات المتحدة لاستكمال إضعاف العراق. ولهذا كنت أحاول تهدئة روع ضيفي الذي أصابه الإحباط الشديد لمجرد التفكير بقيام الرئيس صدام حسين بارتكاب "حماقة"، على حد تعبيره، باحتلال الكويت. وكان يؤكد على مدى خطورة مثل هذا الحدث، إذا ما حصل. وكان بالفعل خائفاً على العراق.

سافر ضيفي عائداً إلى سورية، بعد قضاء حوالي أسبوعين في الولايات المتحدة. ولم تَمضِ فترة قصيرة على سفره، حتى أمر الرئيس صدام بدخول الجيش العراقي إلى الكويت في 2 أُغسطس-آب 1990. ولا أُنكر بأنني كنت في البداية مُتحمساً لخطوة ما تمنح العراق بعض الأوراق التفاوضية مع الولايات المتحدة في قضية تخفيض أسعار النفط التي كانت قد تسببت بها السعودية والكويت، الكويت تحديداً. وكنت أعتقد بأن هذا هو ما كان يهدف له صدام حسين بالأساس. ولقد دفعني حماسي هذا لكتابة رسالة إلى ضيفي عطفاً على النقاش الذي كان قد دار بيننا عندما كان في الولايات المتحدة. وفي نهاية الرسالة حاولت تمرير عبارة مُشفرة له مستخدماً مثلاً سورياً: **"حلق جارك، بِلّ أنت."** وكان المقصود بهذه العبارة بأن الدور قد يأتي على السعودية أيضاً. لم يتأخر رد ضيفي كثيراً، ووصلتني منه رسالة مُقتضبة جداً، يقول فيها بعد التحية والسلام: **"حلاقك يا ولدي أرعن. وعما قريب ستخلو دكانه من الزبائن. وسَيُترَكُ وحيداً ليواجهَ مصيره المحتوم، وبعد أن يكون قد جلب لنفسه ولبلده الويلَ والدمار."**

الصدفة البريئة

قابلتها صدفةً في بيت بشرى ابنة عمي شبلي في ولاية فرجينيا بالقرب من العاصمة واشنطن في أواخر ربيع عام 1991. وكانت قد جاءت بالصدفة مع والدها أبي العربي حمود الشوفي ووالدتها أم العربي وداد عزام وغادة السعدي زوجة شقيقها العربي. وكانوا جميعا مثلي في زيارة وِدية لبيت بشرى وزوجها راني سَنجَد أبو الحسن للمباركة بولادة مولدوهما البِكِر، طارق. وبعد التعارف، علمنا بأن عائلة الشوفي كانت في طريقها إلى المطار لتوصيل ابنتهم ليلى إلى المطار، والتي كانت ستستقل طائرة ترامب التي كانت تذهب على راس الساعة بين واشنطن ونيويورك. وكانت ليلى في حينها تتخصص في طب الغدد في جامعة كولومبيا العريقة في نيويورك. وهم في الطريق إلى المطار أدركوا بأنها لن تستطيع اللحاق بالرحلة المُزمعة. فما كان من أهلها إلا أن توقفوا في بيت بشرى على طريق المطار أولاً. وجلبوها معهم في هذه الزيارة وحتى يأتي موعد الرحلة القادمة. كانت تلك هي المرة الأولى التي أُقابل فيها ليلى وغادة. ولكنني كنت قد قابلت أبا العربي وأم العربي قبلها بأقل من عامين. وذلك عندما دعوني مع عمي أبو بشار شبلي وزوجته أم بشار إلى بيتهم للغداء في اليوم الثاني لعرس بشرى. وكنت قد تعرفت على حمود الشوفي أول مرة في حياتي عام 1979 في بيت عمي شبلي في بغداد عندما جاء هو والأستاذ صلاح الدين البيطار لحضور مؤتمر الشعب العربي في بغداد. وكان في حينها قد استقال من منصبه حديثاً كسفير لسورية في الأمم المتحدة عام 1979. لكنني كنت قد سَمعت عنه الكثير في مرحلة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. وذلك بعد استقالته من منصبه كأمين قطري في القيادة القطرية لحزب البعث في سورية، والذي كان قد تولاه لأقل من سنة في عام 1964. وعمل لاحقا كسفير لسورية في إندونيسيا والهند قبل أن يصبح مديراً لدائرة أمريكا في وزارة الخارجية في عام 1972، وبعدها سفير سورية في الأمم المتحدة.

وبعد أن غادرت عائلة الشوفي، سألتني بشرى عن رأيي بليلى. فقلت لها بأنها تبدو فتاة طيبة. خجولة ومهذبة، وتبدو مهتمة جداً بالدراسة. لم أكن لأعرف في البداية بأن بشرى كانت تقصد من سؤالها بأن تكون ليلى خياراً للزواج. وذلك لأني كنت في وقتها غير مهتم بالزواج والاستقرار. بل كنت أفكر بمغادرة الولايات المتحدة إلى فينزويلا حيث يتواجد أعمامي وأخوالي منذ زمن. وكنت أنتظر الحصول على الجنسية الأمريكية وجواز سفر أمريكي كي أستطيع السفر. وذلك لان جواز سفري العراقي في

حينها كان قد انتهت مدته. وكان المحامي قد استرجعه لي بعد حوالي أربعة أشهر من حجزه من قبل دائرة الهجرة. وذلك لأن القاضي، وكما أبلغني المحامي، كان قد رفض القضية المُقدمة ضدي من قبل الدائرة. وذلك لأن حجة الادعاء المُقدمة من قبل دائرة الهجرة كانت تفتقر إلى المُستند القانوني ولا تدحض المستندات والوثائق التي قدمها المحامي نيابة عني في القضية. لكنه لو نجح الادعاء ضدي لكان سيُصار إلى ترحيلي إلى العراق أو سورية، البلد المُصدِّر للجواز أو بلد المولد كما حصل مع زهدي الذي كان يسكن في الأردن ويحمل وثيقة سفر فلسطينية. وهذا جُلَّ ما كنت أخشاه، وعملت كل ما بوسعي لتجنبه. وذلك بحكم أنني مطلوب في سورية وكان هناك قرار بالقبض الفوري عَليّ وسوقي إلى السجن. ووضعي في العراق قد لا يكون أحسن منه بكثير. وذلك عندما زرته بخصوص منظمة الطلبة العرب والاتحاد الوطني عام 1983 كان لدي الإحساس بأنها ستكون الزيارة الأخيرة. ولم يعد بوسعي الاستقرار بالعراق بعد التخرج كما كان متوقعاً. لكنه قد أصبح بإمكاني العمل بشكل قانوني في الولايات المتحدة بعد حصولي على الإقامة الدائمة. وعندها عَرضت عَليَّ الدكتورة هيفاء فاخوري العمل معها في المجلس العربي-الأمريكي والكلداني الذي كانت تديره. وهذا المجلس يرعى شؤون الجالية العربية والكلدانية في مدينة ديترويت وضواحيها. ويقدم الخدمات التربوية والاجتماعية. وأيضا خدمات التدريب والتوظيف عبر مِنَح كانت تُقدم للمجلس من حكومة ولاية ميتشغان. وقد عملت في حينها كمسؤول عن برنامج التدريب والتوظيف. وكنت وقتذاك قد أنهيت معظم مواد الدكتوراة وباشرت في إجراء البحث وكتابة الأطروحة. وحصلت على شهادة الدكتوراة، وتخرجت في الجامعة في أيار عام 1988. واستمريت بالعمل مع المجلس بعد التخرج. واشتريت بيتاً مؤلفاً من طابقين مستقلين في مدينة ديربورن في ضواحي ديترويت بالشراكة مع أحد الأصدقاء. وبهذا كان وضعي يخولني بالزواج إذا ما توفرت الفرصة المناسبة. ولهذا بدأت بتدوير فكرة الزواج في رأسي من جديد. وطلبت من بشرى أن تأتيني برقم هاتفٍ للاتصال ب ليلى. ولم يمضِ سوى أيام قليلة على عودتي إلى بيتي في ميتشغان حتى اتصلت بي بشرى وأخبرتني بالرقم. وتواصلت مع ليلى على الهاتف لفترة شهرين تقريبا. ومن ثم التقينا مرة أخرى في واشنطن. وتمت خُطبتنا وعقد قراننا في الشهر التاسع من عام 1991. وأجّلنا حفلة العرس إلى أن تُكمل تخصصها وتتحرج في ربيع عام 1992. وبعد حوالي شهر ذهبت ليلى إلى مؤتمر طبي في مدينة سانتياغو في ولاية كالفورنيا حول الغدد وهشاشة العظام. وتَعرَفت بالصدفة على الدكتور **مايكل كلير كوبر**. وهو أحد أهم الأطباء المُتخصصين في هشاشة العظام، والذي

وهو جزء من اختصاص الغدد. وكان في حينها يرأس قسم هذا التخصص في مركز هنري فورد الطبي والتعليمي في ديترويت، ميتشغان. وكان لديه بالصدفة منحة لإجراء بحوث تخصصية في مجال هشاشة العظام. وكان يبحث عن طلاب دراسات عليا للعمل معه. وعندما عَرِفَ بأن ليلى تعمل طالبة دراسات عليا في مجال الغدد في مركز جامعة كولومبيا التخصصي في نيويورك، وهي مشمولة بمنحة دراسية كالتي لديه في مركز هنري فورد، سألها فيما إذا كان لديها رغبة بالانتقال إلى ديترويت والعمل معه. فأخبرته بأنه قد تمت خطوبتها حديثا. وخطيبها، أنا، مُقيم في ضواحي ديترويت. وهذه ستكون فرصة لها للالتحاق بخطيبها والزواج هناك. ولكنها أبلغته بأنها لا تسطيع الانتقال وبدء العمل معه حتى تنتهي مدة منحتها في جامعة كولومبيا في نيويورك. لكن المرحوم الدكتور كلير كوبر، كان معروفاً بالإصرار وله مكانته في الوسط الطبي والعلمي، أخذ المعلومات الشخصية من ليلى وقال لها سأتصل بك قريبا. ولم تمضِ فترة شهر ونصف حتى استدعى مدير قسم الغدد في جامعة كولومبيا ليلى وسألها فيما إذا كانت ترغب بإكمال الدراسة والاستمرار بالبحث الذي تعمل عليه في مركز هنري فورد في ديترويت. وكان جوابها بأنها تتمنى ذلك إذا كان هذا ممكنا دون توقف منحتها. وبالفعل بدأت ليلى دوامها في مركز هنري فورد في اليوم الثاني من العام الجديد 1992. وكان الدكتور كلير كوبر قد أجرى كل الترتيبات بين المركزين لنقل ليلى إلى ديترويت. وكانت فرصة لنا أن نتزوج في وقت أبكر مما كان مقرراً.

من حفلة العرس في 28 شباط 1992

من حفلة العرس ويظهر حماي أبو العربي حمود الشوفي وحماتي أم العربي وداد عزام بجانب ليلى على اليمين

من حفلة العرس وتظهر بجانبي بشرى ابنة عمي شبلي وزوجها راني سنجد. وفي الجهة الأخرى العربي وزوجته غادة السعدي

رجل أعمال بالصدفة

بعد مضي ما يقارب العام والنصف على زواجنا، أكملت ليلى اختصاصها الدقيق في هشاشة العظام. وكان لا بد لها من أن تحصل على عمل دائم في المشفى نفسه، أو أن تبحث عن مستشفى آخر يوجد فيه اختصاصها. ولكنه كان لا بد لها من اتخاذ قرار سريع. وذلك لأنه كانت هناك رغبة وضرورة عند العائلة بالالتحاق بأخيها العربي، والذي كان قد رحل هو وزوجته غادة من ولاية فرجينيا واستقرا في جورجيا. حيث كانا يعملان كمهندسين مدينين مع شركة باكتيل (Bechtel) المتخصصة في هذا المجال. ولهذا بدأنا أنا وليلى بالبحث عن عمل في مدينيه أوغستا في ولاية جورجيا حيث يقيم العربي. مضى أكثر من ستة أشهر ولم نوفق نحن الإثنين بالحصول معاً على عمل في الوقت نفسه. ولهذا استمريت أنا في عملي مع المجلس العربي-الأمريكي والكلداني في ديترويت ميتشغان. وعملت ليلى بعقد مؤقت في مركز هنري فورد الطبي. وبينما كانت ليلى تَحضُر مؤتمراً علمياً، تعرفت بالصدفة على طبيب من اختصاصها نفسه. وهو أمريكي من أصل صيني. وأخبرها بانه لديه هو وزوجته ذات الأصول التايوانية عيادة متخصصة في مدينة صمتر (Sumter) في ولاية كارولينا الجنوبية (South Carolina) المجاورة لولاية جورجيا. وهما يبحثان عن أطباء بالاختصاص نفسه لتوسيع عيادتهما لتصبح مركزاً طبياً متعدد الاختصاصات. وعرض عليها العمل معهما. وعندما عادت ليلى من المؤتمر، تناقشنا بالموضوع. واتفقنا على زيارة المدينة للتعرف عليها عن قرب. وبالفعل رتب الدكتور وزوجته لزيارتنا إلى المدينة.

وجدنا المدينة صغيرة ونائية، وفيها مستشفى صغير ووحيد. ويستقبل المرضى من المدن والقرى الصغيرة المجاورة. لكن العيادة التي ستعمل فيها ليلى كانت حديثة ومتطورة. وكان بنائها متسع وقابل للزيادة. والعرض الذي قدمه الدكتور وزوجته ل ليلى كان عرضاً جيداً ويصعب رفضه قياساً بالعقد المؤقت الذي كانت تعمل به في ديترويت. وبعد فترة من التردد والتفكيرً، قررنا أن تقبل ليلى العرض ولو بشكل مؤقت لمدة عام أو عامين ريثما نحصل معاً على عمل في مدينة أوغاستا (Augusta) حيث يعمل أخوها وزوجته. وكان ترددنا هذا نابع بالدرجة الأولى لأنني كنت أعرف بأنني سأواجه أنا صعوبة في الحصول على فرصة عمل في هذه المدينة الصغيرة. فهي ليس فيها جامعة، وإنما فرع صغير لجامعة كارولاينا الجنوبية. وهذا الفرع ليس فيه إلا عدة أقسام. وتقتصر على دراسة البكالريوس

فقط. واختصاصي، تكنلوجيا التعليم، هو اختصاص دقيق. وهو ومزيج من عدة اختصاصات فرعية. ولهذا فهو يقتصر على الدراسات العليا التخصصية، الماجستير والدكتوراة. وأيضا توجد في المدينة كلية مجتمع واحدة (Community College). فيها اختصاصات عامة ولسنتين فقط. ولهذا كان من غير الممكن أن أحصل على وظيفة في التدريس الجامعي الذي كنت أبحث عنه في هذه المدينة الصغيرة. ولذلك كان من الأسهل في هذه الحالة البحث عن عمل في مجال التدريب والتوظيف، والذي هو من ضمن اختصاصي بشكل عام. وكنت أعمل فيه في ديترويت ميتشغان. وعندما تحدثنا عن هذه المخاوف مع الدكتور وزوجته اللذين كانت ستعمل معهما ليلى، عرضا عليّ مكان مجاني في جانب العيادة كان في حينها غير مُستثمر. وكان مؤلف من غرفة مكتب صغيرة وبهو متواضع. وذلك كي أمارس فيه عملاً خاصاً في مجالات التدريب والتوظيف، وإلى أن يتسنى لي الحصول على وظيفة دائمة. طبعاً لقد كان القصد من وراء هذا العرض هو تسهيل الأمور حتى توافق ليلى على العمل معهما. فقد كانا بأمس الحاجة لها ولخبراتها. فقبلت العرض، ولو على مضض.

أنهت ليلى عقدها مع مركز هنري فورد الطبي واستقلت أنا من وظيفتي في المجلس العربي-الأمريكي مقابل الحصول على راتب جزئي متأخر لستة أشهر. ورحلنا باتجاه الجنوب، إلى صمتر في ولاية كارولاينا الجنوبية تاركين خلفنا ولاية ميتشغان في الشمال. وكانت ابنتنا الكبرى لميس في حينها لم تبلغ عامها الأول بعد. مَرَّ علينا العام الأول في صمتر، وكان صعباً ومضنياً. حيث كان عمل ليلى مُتعباً جداً. فالمنطقة نائية وفيها الكثير من الأمراض المُزمنة. وليلى هي بطبيعتها تحب مرضاها وتوليهم قدراً كبيراً من الاهتمام. وتستغرق معهم وقتاً طويلاً إثناء الفحص والمعالجة. ولهذا كانت ملحوقة دوماً بعملها. وأنا كنت أجاهد في أن أقنع نفسي بأنني يمكن أن أكون رجل أعمال ناجحاً. وكان يتوجب عليَّ أن أفعل كل ما يستجوب فعله لتحقيق هذا الهدف. وذلك عبر استقطاب الزبائن من طالبي العمل إلى مكتبي الصغير، والذي أعطيته اسماً كبيراً: **مركز العيسمي للتدريب والتطوير والمتطلبات الوظيفية، والذي مختصره باللغة الإنكليزية (ACTION).** وكنت أتمنى أن يستقطب هذا المركز الجديد الزبائن مع الزمن القصير في مكان تكتنفه الكثير من الصعوبات. فالمنافسة لم تكن موجودة فيه أصلاً. ففي هذه المدينة الصغيرة لم يكن هناك سوى مكتب توظيف واحد عريق ومعروف أباً عن جد. وأهل هذه المدينة يعرفون بعضهم بعضاً. وهم، بشكل عام، لديهم توجس من أهل الشمال. فكيف لأحدً

مثلي ليس قادماً من ميتشغان في الشمال وحسب، بل وأجنبي قادم من بلاد أخرى. وغير معروفة لمعظم أهل المدينة. بل وكان بعضهم ينظر إليّ وكأني مخلوقٌ مختلف قادم من كوكب آخر. لكنني وبعد عناء استطعت استقطاب بعض الشباب المنفتحين التواقين للمعرفة والحصول على إرشادات وتوجيهات خاصة تساعدهم على إيجاد التدريب المناسب الذي يخولهم المنافسة في سوق العمل الذي كان قد أصبح في وقتها يبحث عن مهارات خاصة في استخدامات الكومبيوتر والإنترنيت. وهذا ما ميزني عن المكتب الآخر الذي كان في حينها ما يزال يمارس العمل بالطرق التقليدية القديمة. لكن هذا وحده لم يكن كافياً من حيث المردود المالي لتسديد مصاريفي ومصاريف المكتب، بالرغم من أنني لم أدفع أجرة للمكتب طيلة العام الأول.

ومع قرب انقضاء العام، كنت في حيرة من أمري فيما إذا كنت سأستمر في المكتب لعام أخر وأن اتكفل بدفع أجرته أو تركه. وذلك لأن الدكتور وزوجته، زملاء ليلى، كانا قد ألمحا بضرورة إخلاء المكان أو دفع الأجرة في العام اللاحق، وهي بالتأكيد سوف لن تكون بالقليلة. وذلك لأنه كان يقع في مركز المدينة بالقرب من المستشفى. وبينما كنت في أخذ ورد بين نفسي ومع ليلى، والفترة الزمنية لاتخاذ القرار النهائي اقتربت على نهايتها، حصل ما لم أكن أتوقعه. وذلك عندما كنت أشارك في المناسبة السنوية العامة التي تقيمها بلدية المدينة للتدريب والتوظيف، تعرفت بالصدفة على سيدة قدمت نفسها بأنها **ديّنا بولارد**. وكانت تعمل مسؤولةً عن التدريب والتوظيف في المجلس الإقليمي للحكومات المحلية في ثلاث مقاطعات في الجنوب الشرقي لولاية كارولاينا الجنوبية. وبعد أن تبادلنا أطراف الحديث وتعرفت على خلفيتي العلمية والوظيفية، بادرتني بالقول: "نحن في المجلس لدينا وظيفة شاغرة وأنا أبحث عمن يملؤها. فلقد غادرتنا مديرة العقود ونحن في عِزّ الموسم، ونريد توظيف مديراً جديدا للعقود." وسألتني إذا ما كان لديّ الرغبة في التقديم على هذه الوظيفة. لكنها استدركت بالقول: إن هذه الوظيفة قد تكون أقل من مستواك وراتبها محدود." وعلى كل الأحوال، هذه بطاقتي، إذا قررت التقدم على الوظيفة، الرجاء الاتصال بي. وسأكون بانتظارك، قالتها ومضت. وكيف سأكون مديرً عقود؟ ومالي أنا ومال العقود. فانا بالكاد أستطيع أن تعامل مع ميزانية بيتي. فكيف لي أن أدير عقود مؤسسة بملايين الدولارات. ولكن أنا بحاجة ماسة للعمل. وأيضاً لا بد لي من أن اتخذ قراراً قبل انتهاء الفترة لإبرام عقد إيجار المكتب للعام القادم. كما وأنه لديَّ خبرة طويلة ورصينة في مجال تخطيط وتنفيذ عقود التدريب

والتوظيف التي تقوم على المساعدات الحكومية. أوليس هذا ما كنت أفعله في ميتشغان على مدى سبعة أعوام؟ ويمكنني أن أتعلم الإدارة المالية بسرعة. لكن الإدارة المالية لملايين الدولارات الحكومية ستكون مسؤولية، وأنا لا أستطيع أن أنام قرير العين ومعي عشرة دولارات أمانة لصديق. فما بالك إذا كانت أموال طائلة للدولة؟ كل هذه الأسئلة وأخرى عديدة مثلها لم تفارق ذهني ومنذ أن غادرت السيدة بولارد وإلى أن اتصلت بها وقابلتها في اليوم التالي. وشعرت بأنها كانت مسرورة باتصالي بها وبإبلاغها بموافقتي للتقدم على الوظيفة. ورتبت المقابلة في نفس اليوم. فهي كانت بحاجة ماسة لمن يشغل هذه الوظيفة. وذلك لأنها كانت هي من يديرها بعد مغادرة مديرة العقود، كما فهمت منها. وهي كان لديها الكثير من متطلبات وظيفتها كمديرة لبرامج التدريب والتوظيف. خاصة وأن السنة المالية الحكومية كانت قد أوشكت على الانتهاء. ويتوجب إبرام العقود الجديدة قبل نهاية العام، في غضون ثلاثة أشهر. ولدرجة أنها كانت تتكلم معي وأنا في مكتبها وهي منهمكة في التحضير لهذه العقود. وكنت أراقب أصابع يدها اليمنى وهي تتحرك ببراعة فائقة على الآلة الحاسبة كراقصات الباليه على مسرح متسع في قاعة الأوبرا. وهذا بحد ذاته أشعرني بالرهبة. وعدت أطرح على نفسي أسئلة جديدة. وإذا ما أصبحت مديراً للعقود، فهل عليَّ أن اتمتع بنفس المهارة؟ فأنا عندما استعمل الآلة الحاسبة لا أستخدم أكثر من أصبع واحد، السبابة، ببطء وتردد كملاكمٍ من الوزن الثقيل يَهوي على حلبة المصارعة بالضربة القاضية. وكانت هي تستخدم كل أصابع يدها، وحتى دون النظر إلى الآلة الحاسبة. وبينما إنا في حالة من الإرباك والتفكير، نظرت إليَّ، وقالت: "لا عليك لا تقلق. أنا لم أكن هكذا عندما بدأت في هذه الوظيفة. وأنت إذا ما قررت أن تأخذ الوظيفة فستتعلم هذه المهارة بسرعة." وهذا ما جعلني أشعر بالارتياح بعض الشيء، أو تظاهرت به. وقلت لها: إذا كان الأمر كذلك، أنا موافق على الوظيفة. فقالت إذن سأخبر مديري، المدير التنفيذي للمجلس، بالأمر. فشكرتني وقالت: ستسمع مني قريبا. وبعد مضي يومين أو ثلاثة، اتصلت بي، وقالت: "بإمكانك أن تأتي إلى هنا وتوقع العقد، وتبدأ العمل في مطلع الأسبوع القادم.

عملت قي هذه الوظيفة لمدة عامين. وبذلت كل ما في وسعي كي اتقنها، بل وعملت على تحسين مواصفاتها. وأضفت إليها بعضاً من مهمات مديرتي، السيدة بولارد، المتعلقة بالتخطيط لبرامج التدريب والتوظيف المتُّعاقد عليها مع المجلس والإشراف على تنفيذها. كما وعملت على إقامة دورات تدريبية

فَصلية لكادر المتعاقدين. وذلك لضمان تطبيقهم لشروط العقود ومواصفاتها وتحقيق البرامج المُتعاقد عليها للأهداف المُخطط لها. وهذا كان من صلب اختصاصي العلمي. وأيضا، وخوفا من أن أضطر لاستخدام الألة الحاسبة اليدوية، عملت جهدي لاستخدام نظام المحاسبة الإليكترونية التي تعتمد على البرمجة الرقمية، ال سبريد شيت (Spreadsheet) والذي كان في ذلك الوقت لا يزال في بداية استخداماته. وكان عليّ أن اجتهد ثلاثة أضعاف الموظف المحلي الاعتيادي كي أثبت نفسي، وخاصة أمام المدير التنفيذي وهيئة المستشارين، والتي كانت تتألف من 21 عضواً من موظفي الحكومات رفيعي المستوى والمدراء التنفيذيين في المؤسسات العامة والخاصة في المقاطعات الثلاث التي يمثلها المجلس. وكانت الهيئة تجتمع كل شهر لمناقشة التقارير ووضع خطط العمل. وحتى أنني أصبحت المرجع الأول لمعظمهم للحصول على المعلومات وتحليل البيانات. وحصل ذات مرة بأن عضواً جديد في الهيئة طلب من عضو قديم بعض المعلومات، فقال له على مسامعي: أسأل رياض. فرد العضو الجديد متسائلاً ومتعجباً، أسأل من؟! وكان اسمي بالنسبة لهذا العضو الجديد غير مألوف. ويمكن أن يكون أي شيء، تماما كما كان للعضو القديم عندما بدأ بالتعامل معي لأول مرة.

بعد نهاية أحد اجتماعات الهيئة الاستشارية المُغلقة، دخل إلى مكتبي المدير التنفيذي للمجلس. وبادرني بالقول: "أريد أن أخبرك بشيء مهم". تفاجأت بعض الشيء في البداية. وذلك لمعرفتي به. فإذا قال لدي سؤال يكون هناك دوما سؤال آخر غير السؤال الذي يطرحه في البداية. وإما أنه جاء ليخبرني بشيء ما، فبالتأكيد هناك ما هو أبعد من السؤال. وعندها أدركت بأنه قد جاءني هذه المرة لتنفيذ قرار ما اتخذته الهيئة الاستشارية، وهو يتعلق بي. ولم يطل الانتظار حتى قال: "لقد حصل المجلس على منحة مرموقة من الحكومة الفدرالية لإنشاء برنامج خاص لتدريب وإعادة تأهيل وتوظيف العمال والموظفين الذين فقدوا أعمالهم بسبب انتقال شركاتهم إلى أماكن أخرى. والذين يحتاجون إلى اكتساب مهارات جديدة لاستمرارهم في أعمالهم تلافياً للتسريح من العمل بسبب نقص الخبرة. خاصة وأن تلك المرحلة كانت بداية ثورة المعلومات والإنترنيت، والتي اقتضت تثوير عمل المؤسسات عبر استخدامات التكنولوجيا الحديثة وامتلاك الكادر الوظيفي القادر على التعامل معها. وأكمل قائلاً: "وأنا طرحت على الهيئة الاستشارية بضرورة عدم التعاقد على هذا البرنامج مع جهة خارجية والإبقاء عليه داخل المجلس (In-House). وذلك لضمان نجاحه. فوافقت الهيئة على المقترح بشرط أن تدير أنت البرنامج الجديد،

فما رأيك؟ لم أتردد بالقبول ولا للحظة. فهذا القرار بالنتيجة صادر عن أعلى هيئة في المجلس. وهذه ثقة كبيرة بي شخصياً ناضلت من أجلها على مدى عامين. ولم يكن بوسعي التفريط بها. خاصة وأنني علمت بانه سيكون هناك زيادة في الراتب عشرة آلاف دولار في السنة. وأيضاً سيكون لدي كادر من الموظفين الجدد الذين سأشرف أنا بنفسي على تعينهم. وبالفعل هذا الذي حصل. وكذلك نجح البرنامج ايما نجاح. وذلك باعتراف حتى المنافسين من المتعاقدين التقليديين الذين كانوا من الممكن أن يحصلوا على هذا البرنامج كعقد سخي.

وبعد مضي ما يقارب العامين على هذا البرنامج، استدعاني المدير التنفيذي نفسه إلى مكتبه هذه المرة. وكان ذلك قبل الدخول إلى اجتماع الهيئة الاستشارية المغلق، وقال أريد الدردشة معك. أكيد بكل سرور، جاوبت. قال أتَذكّر بأنك أخبرتني بأنه كان لديك مركز خاص للتدريب والتوظيف قبل أن تبدأ العمل معنا. جاوبته: نعم، هذا صحيح. ومازال المركز مُسجلاً بشكل رسمي كعمل خاص أقدم من خلاله بعض الاستشارات خارج نطاق عملي في المجلس، تابعت. فألمح بالقول: لو لم تكن تشتغل معنا اليوم، لكان بإمكاننا التعاقد معك. فأدركت على الفور مغزى ما كان يلمح إليه، ولو بشكل عام. لكنني لم أفهم ما الذي كان يلمح له بالضبط، ولماذا في هذا الوقت بالذات والعقود ما زال أمامها أكثر من ستة أشهر. ولماذا أنا تحديداً؟ وحتى أحسم التخمين والتكهن، قلت له وبشكل مباشر وصريح: إذا كان هناك من عقدٍ يستحق المغامرة، يمكنني أن أستقيل من وظيفتي في المجلس وأجهز لمثل هذا العقد. فحسب قانون العقود يجب على المتعاقد ألا يكون في موقع صنع القرار أو أن يعمل مع الجهة المانحة للعقد، أو أن يكون قد مضى على عمله معها مدة تزيد على تسعين يوماً. فأجابني: أنا كنت متأكد بأنك تعرف قوانين العقود بشكل جيد، فأنت كنت مديرها أليس كذلك؟، وابتسم. كان الموقف من أصعب المواقف في حياتي. وذلك لأنني كنت أعلم ما لذي كان يرمي إليه بالضبط. وعرفت بأنه كان يريدني أنا تحديداً لكي أدير مشروعاً جديداً من خارج المجلس، ولكن ليس بالبعيد عنه. فهو يثق بي وبقدراتي. لكن المشكلة كانت بأنني أنا لم أكن لأثق بتوجهات السياسيين، وخاصة في تلك المنطقة. فمعظمهم لا يفعل معظم ما يقول. والغاية لديهم تبرر الوسيلة. وكان يمكن أن يكون قراري بالقبول فيه مغامرة. ولكن فرصة أن أحصل على عقد مع الحكومة كان هذا قمة ما كنت أطمح إليه عندما بدأت المركز أول ما وصلنا إلى صمتر، قبل أربعة أعوام. وهذه قد تكون فرصة لا تعوض بالنسبة لي، وإن لم تحصل فلا بأس. فنحن بالأساس

كان وجودنا في صمتر لفترة انتقالية. فقلت له: كم لدي من الوقت للتفكير واستشارة زوجتي بالموضوع؟ قال: انت تعرف كم هو الوقت المتبقي لطرح المناقصات. أجبته: نعم فهمت، إذن سأعود إليك بالجواب في الأسبوع القادم. ومع نهاية الأسبوع، عدت إليه وأنا أحمل استقالتي. وعلى الفور جددت تسجيل شركتي الخاصة للتدريب والتطوير والاحتياجات الوظيفية (ACTION). وانتظرت انتهاء فترة التسعين يوماً المطلوبة لتقديم مناقصة على المشروع الجديد.، الذي عرف باسم (One Stop Shop Career Center)، أي أن كل الخدمات المطلوبة للتدريب والتوظيف تُقدم تحت سقف واحد. وبحيث يدخل طالبي العمل إلى هذا المركز ويُصار إلى اختبارهم بشكل دقيق لسبر خبراتهم وتقدير إمكانياتهم. وأيضا تحديد صدقية رغباتهم الوظيفية وقابليتها على التحقق وفقاً لخبرات وإمكانيات طالب الوظيفة ومدى توفرها في سوق العمل المحلي. ووضع خطة تدريبية للمتقدم بالتعاون مع الكليات التقنية والمعاهد المهنية ومؤسسات التدريب المتخصصة في المنطقة. ووضع خطة للتوظيف بعد انتهاء فترة التدريب، إذا كانت ضرورية للحصول على وظيفة. وكان من ضمن عمل المركز تدريب المتقدمين على الوظائف على كيفية البحث على وظائف مناسبة وطريقة الظهور والتصرف في المقابلات الخاصة بالتوظيف.

وأيضاً وضعت كل إمكانياتي ومعرفتي وخبرتي في المقترح الذي قدمته لهذه المناقصة. وبحيث لا يكون هناك أي مجال لخسارتها في ظل ظروف منافسة طبيعية. كيف لا، وأنا من أشرف بالأساس على كتابة هذه المناقصات وشروطها وتحديد أهدافها وآليات تنفيذها؟ كما وأن الهيئة الاستشارية التي ستبت في هذه المناقصة تعرف انجازاتي وما قدمته للمجلس ولهذه البرامج على مدى أربعة أعوام. وكانت المفاجأة بأن الجهتين المنافستين لي، شركة خاصة أخرى ومكتب العمل الحكومي التابع للمدينة، انسحبتا من المناقصة بعد أن قدمت مرافعتي عن مناقصتي أمام الهيئة الاستشارية. وآثرتا التركيز على مناقصات أخرى. ولهذا فازت شركتي بالمناقصة بالتزكية وبالإجماع، حسب ما أُخبرت لاحقاً. وذلك لأن القرار جاء في جلسة مغلقة للهيئة الاستشارية.

لقد كان هذا العقد تجربةً مميزة وتحدياً كبيراً بالنسبة لي. ولهذا وظفت لتنفيذه كادراً مهنياً متخصصاً، ومُخلصاً ومثابراً من سبعة أشخاص. وكان على رأسهم السيدة ديّنا بولارد نفسها. وذلك لأنها كانت قد استقالت من منصبها في المجلس قبل ذلك الوقت بحوالي عام ونصف. وذلك بسبب وضعها الصحي وتزايد الضغوطات النفسية التي كانت تتعرض لها في عملها مع المجلس الحكومي.

رحم الله السيدة دينا بولارد وطَيّبَ ثراها. فهي من وَفّرَ لي أول فرصة للعمل في هذا المكان الصعب. وفتحت أمامي أبواباً مغلقة لم أكن أتوقع بأن أطرقها في حياتي. وأيضا ساهمت بشكل أساسي في نجاح هذه التجربة المميزة في سجلي الوظيفي والمهني. فهي كانت بحق شخصية إنسانية ومهنية مميزة. تبادلت معها موقع الرئيس المرؤوس على مدار عدة سنوات دون أية عقبات. وكانت صديقة عزيزة ومخلصة ليس لي وحسب، وإنما أيضاً لزوجتي ليلى التي كانت طبيبتها.

مركز العيسمي للتدريب والتطوير والاحتياجات الوظيفية

الاستحقاق المُؤجَل والدين المتأخر

في منتصف عام 1999، رحلنا من صمتر إلى أوغاستا للالتحاق بالعائلة، والتي كانت جميعها قد تجمعت في هذه المدينة. وكانت ابنتنا لميس قد بلغت سن دخول المدرسة. وابنتنا الصغرى لينا، التي ولدت في صمتر، كانت في حينها أقل من عام ونصف. ولهذا كنا بحاجة لأن نكون بالقرب من العائلة، وأكثر من أي وقت مضى. لم تتأخر ليلى كثيراً في الحصول على عمل في أوغاستا. فأحد الأسماء التمييزية ل أوغاستا بأنها مدينة الطب. فانضمت إلى مجموعة من الأطباء ذوي الاختصاصات المتعددة ويعملون في عيادة مرتبطة بمستشفى الجامعة. أما انا فنقلت المكتب الرئيسي للشركة معي إلى أوغاستا، بينما بقي الموظفون السبعة يعملون على العقد في صمتر. وبقيت ديّنا تُشرف عليهم بشكل مباشر. وكنت أذهب إلى صمتر مرة أو مرتين في الأسبوع لمتابعة الأعمال الضرورية. وعندما بدأت التدريس كأستاذ محاضر في فرع جامعة تروي في أوعاسنا، بدأت أخفف من السفر إلى صمتر. وكان العقد في صمتر قد شارف في حينها على نهايته. وبعد أن انتهى العقد عام 2001، قررت عدم تجديده. وعدم البحث عن عقود أخرى. وذلك كي أتجنب الخوض في معارك سياسية محلية جديدة، قد تكون خاسرة بالنسبة لي هذه المرة. ولهذا عزمت على التفرغ الكامل للتدريس الجامعي والعمل الأكاديمي، والذي كنت قد أجلته بسبب انشغالي الطارئ بالعمل في صمتر. ولهذا تقدمت بطلب إلى عمادة كلية التربية في جامعة تروي، والتي مقرها الرئيسي في مدينة تروي في ولاية ألاباما، وهي جارة لولاية جورجيا. وكانت تربطني بجامعة تروي علاقة مميزة. حيث كنت قد زرتها قبل حوالي عشرين عاماً من ذلك التاريخ. وذلك لتحري إمكانية الانتقال إليها لإكمال برنامج الدكتوراه بعد الحصول على درجة الماجستير من جامعة توسكيكي في ألاباما. ولكنني تفاجأت في حينها بأنه ليس فيها أي برنامج للدكتوراة. كما وكان لديَّ ثلاثة من الموظفين السبعة الذين عملوا معي على مشروع صمتر هم من حملة الماجستير من هذه الجامعة. وكذلك عندما بدأت بالعمل مع الجامعة كأستاذ محاضر لم يكن للجامعة فرع في أوغاستا. وكنت قد ساهمت بتأسيسه. وهذا ما سَهّلَ وبشكل كبير حصولي لاحقاً على وظيفة دائمة مع الجامعة (Tenure Track).

لم تمَضِ فترة طويلة على تقديم الطلب، حتى أُستدعيت إلى مقر الجامعة في تروي لإجراء المقابلة. وسافرت في اليوم التالي بسيارتي، بينما تبعني بسيارته الأستاذ الذي كان قد أشرف على تأسيس فرع

الجامعة في أوغستا وكُلفَ بإدارته. واتفقنا على أن نلتقي في صباح اليوم التالي في كافتيريا الجامعة. وذلك لنشرب القهوة الصباحية وننطلق بالبرنامج المُكثف، والذي كان معداً سلفاً. وكان يمتد ليومٍ كامل، من الساعة التاسعة صباحا ولغاية الرابعة عصراً، ومن ضمنها فترة الغداء. وبالفعل، التقينا في صباح اليوم التالي في الكافيتريا كما جرى الاتفاق. فطرنا معاً فطوراً خفيفاً وشربنا القهوة. وبحسب الجدول المقرر كان اللقاء الأول مع نائبة رئيس الجامعة لشؤون الفروع خارج الجامعة. ومن ثم عميدة كلية التربية. ومن ثم رئيس قسم الدراسات العليا. ومروراً بعدة مسؤولين آخرين في التراتبية الأكاديمية، ووصولاً إلى نائب رئيس الجامعة للشؤون الأكاديمية. وبعده رئيس الجامعة، والذي كان يُصر دوماً على مقابلة أي أستاذ جديد يتم تعيينه في الجامعة. ومن ثم يُختتم اليوم بمحاضرة عامة يقدمها الأستاذ المتقدم بطلب الوظيفة أمام اللجنة المكلفة بالبحث والاختيار ومجموعة مُنتقاة من الأساتذة والأكاديميين. لقد سارت جميع الأمور بشكل جيد وسلس. حتى وأن مقابلتي مع رئيس الجامعة التي كان مخصصاً لها عشرين دقيقة فقط، استغرقت ضعف الوقت. هذا بالرغم من أن المقابلة مع رئيس الجامعة هي عادةً برتوكوليه، ومخصصة للتعارف فقط. إلا أن رئيس الجامعة وقبل أن ينهي المقابلة معي سألني إذا كان لدي أي سؤال. وهذا سؤال تقليدي يسأله عادةً رئيس الجامعة للأستاذ المتقدم إلى الوظيفة في نهاية المقابلة. وفي معظم الأحيان يشكر الأستاذ المتقدم للوظيفة رئيس الجامعة على وقته ويمضي. لكنه عندما سألني إذا ما كان لدي سؤال أجبته بنعم. وذلك لأنه حفزني على طرحه. فقال: تفضل. قلت له: أنا جئت إلى هذه الجامعة قبل عشرين عاماً. وكانت معظم أبنيتها قديمة ومبعثرة ولم يكن فيها الكثير مما يعكس الحياة الجامعية للأساتذة والطلبة. واليوم أجدها قد تغيرت كثيراً وأصبحت تمثل صرحا جامعياً مرموقاً. ولا بد بأنه كان لحضرتك دوراً في هذا الإنجاز الكبير بكونك أنت رئيسها لأكثر من عشرة أعوام. فإذا ما بقيت رئيسا للجامعة في العشرة سنوات القادمة، ما الذي تعتزم فعله يا تُرى؟ كان يسمعني بهدوء وإصغاء كاملين. وكانت ترتفع على محياه ملامح الفرح والغبطة، بل والفخر، وأنا أمضي قُدماً بسؤالي. حيث إنه لم يكن ليتوقع بأنني سأسأل هكذا سؤال. ولكنه وجد الفرصة مناسبة للحديث عن خططه. وكنت قد عرفت عنه بانه مُخطط استراتيجي بارع. وما أن فَرغتُ من السؤال، حتى نهض من كرسيه إلى الأعلى شامخاً بقامته الطويلة الفارعة ومُحياه السمح. وأمسك بيدي وقال: تعال معي. ومشينا معاً في وسط مكتبه المتسع باتجاه النافذة الزجاجية التي تكاد تغطي كافة الجدار وتطل على باحة الحرم الجامعي، وقال: أنظر إلى وسط الحرم حيث كان يتركم الرمل والإسمنت ومواد البناء

المختلفة، وقال هناك سينتصب (Trojan). وهو تمثال ل هيكتور، الفارس الطروادي، الذي يمثل رمز الجامعة. وتحدث بشغف عن كيف ستكون وضعية التمثال، وقال: سيكون منتصباً وقدمه اليمنى تخطو إلى الأمام ورمحه مُشرعا للأعلى. وهذا للتعبير بأن الجامعة تسير دوماً إلى الأمام ولا حدود للطالب فيها غير السماء، أي دوما إلى الأعلى. فشكرته على الوقت الذي قضاه معي. وعلى الشرح المفصل الذي قدمه لي حول خططه ومستقبل الجامعة. وهممت بالمغادرة على الفور لأنني كنت لا أريد أن أكون عبئاً أكبر على وقته. إلا أنه بادرني هو بالسؤال قائلاً: إذا قبلناك وأصبحت أنت أستاذا في الجامعة، ما الذي يمكن أن تفعله خلال الخمس سنوات القادمة. وكنت متحضراً لمثل هذا السؤال إذا ما سمح الوقت له. وها هي الفرصة قد قُدمت لي على طبق من ذهب، فقلت له: يا سيادة رئيس الجامعة، قبل عشرين عاماً أتيت إلى هذه الجامعة لأكون طالباً على الدكتوراه. لكنني لم أجد فيها برنامجاً للدكتوراه. وها أنا أعود إليها اليوم وكلي أمل بأن أكون أستاذاً يحمل مشروعاً لاستحداث برنامجاً للدكتوراة في مجال اختصاصي. وأيضاً، وبحكم اختصاصي في مجالات تكنولوجيا التعليم، سأستحدث لكل مادة من هذا الاختصاص تُدرسُ في غرفة الصف غرفة صف افتراضية مقابلة على الشبكة العنكبوتية للإنترنيت. نظر إليَّ ملياً، وكانت أساريره قد ارتفعت فرحاً. لم يقل شيئاً.، بل مد يده وصافحني، وقال: "سررت بلقائك جداً وستسمع منا قريباً."

لم أكن أعتقد أبداً بأن "قريباً" هذا لن يمتد لأكثر من ساعة ونصف. وذلك عندما اتصل بي رئيس فرع الجامعة في أوغستا وأنا استعد لمغادرة الفندق في مدينة تروي ليخبرني بأن القرار قد تم بالإجماع على تعييني. وذلك بعد أن أُجريت المداولات والتصويت على الهاتف. كان لديَّ اعتقاد كبير بأنه سيتم قبولي، لكنني لم أكن لأتوقع أبداً بأن القرار سيتخذَ بهذه السرعة. فعادةً تعيينات الأساتذة في الجامعات تخضع لعملية ممنهجة وتراكمية، وقد تستغرق وقتاً. أعتقد بانه كان هناك الكثير ما هو لصالحي في عملية التعيين، ومنها التوقيت. لكنه، وبدون شك، لقد كانت العشر دقائق الأخيرة من مقابلتي مع رئيس الجامعة هي الفيصل. لقد أثلج هذا الخبر صدري وشعرت بفرح عارم. وذلك لأن قرار التفرغ للتدريس الجامعي كان هو القرار الأهم في حياتي المهنية. وكان استحقاقاً ضرورياً قد تأجل لأكثر من عشرة أعوام، منذ أن حصلت على شهادة الدكتوراة عام 1988. وذللك لأنه، وكما جاء في جوابي على سؤال لنائب رئيس الجامعة للشؤون العلمية والأكاديمية عندما قال "إذا كنت ناجحاً في مجال التدريب والتوظيف كما تشير

سيرتك الذاتية، لماذا تريد أن تتركه الآن وتتفرغ للتدريس الجامعي والعمل الاكاديمي؟ "أنا بالنتيجة أستاذ وباحث، والمكان الطبيعي للأستاذ والباحث هو الجامعة حيث بإمكانه أن يتنفس بشكل طبيعي."

غادرت مدينة تروي في حوالي الساعة السادسة والنصف مساءً وأنا في هذه الحالة من النشوة والارتياح. وبعد أن قطعت ما يقارب ربع الطريق، قررت التوقف للعشاء والمبيت في مدينة أوبرن. وأوبرن هذه هي المدينة التي كنت قد عشت فيها لما يقارب العامين إثناء دراستي على الماجستير. وبالفعل، أوقفت سيارتي أمام أحد الفنادق في أطراف المدينة، وهي على كل حال مدينة جامعية صغيرة. غيرت ملابسي في الفندق وذهبت للعشاء في المطعم الصغير المتواضع الذي يقدم الهامبرغر والوجبات السريعة بشكل عام. والذي كنت قد تعودت ان أتعشى فيه بين الفترة والأخرى، وأحياناً كل يوم، عندما كنت طالباً في اول حياتي الطلابية في الولايات المتحدة. فوجدت المطعم لا يزال على حاله في نفس المكان. ولم يتغير كثيراً لا مظهره الخارجي ولا الداخلي. لكن الذي تغير هو الفتاة التي كانت تعمل على خدمة الزبائن، كاثي. وكانت الفتاة الجديدة هي **"سارة"**، كما يبدو من اللوحة الصغيرة التي كانت المثبتة على الزاوية اليسرى في أعلى صدرها. وكان عمرها يتراوح ما بين الثامنة والتاسعة عشر عاماً. وذلك لان غالبية عمال المطعم هم من طلاب الجامعة الجدد الذين يحاولون العمل بعد وقت الدراسة. وذلك لتغطية ولو جزء من نفقات الدراسة الجامعية. كما وكان معظم زبائن المطعم هم من الطلبة الذين يأتون إليه لتوفير ما يمكن توفيره من مصاريف خلال فترة الدراسة. وقررت أن أطلب الوجبة كاملة، كما كنت أفعل عندما كنت طالباً. والمكونة من هامبرغر بطابقين المُغطى بالجبنة الصفراء المُسيحة، وفرنش فرايز (شرائح البطاطس المقلية). إضافة إلى المشروب. وكان في حينها مشروبي المفضل هو الكوكا كولا. وبعد فترة ليست بالطويلة، جاءت سارة بما طلبت. وكنت أراقبها كما كنت أراقب **كاثي** من قبل. وكان تسير بعجلة وهي منهمكة بتوصيل طلبات الزبائن من الطلاب المُتطلبين، وبعضهم كان وقحاً لدرجة وكانه يريد أن يتقدم لها بعرضٍ للزواج بعد انتهاء وجبة العشاء. وكما كان الوضع مع كاثي، كانت حبات العرق تكبر على جبين سارة مع كل خطوة تخطوها بتجاه موائد الطعام التي يجلس عليها الطلاب الطفرانين، والذين بالكاد يملكون حق الأكل. وما تبقى لا يصلح لأن يكون "بخشيشاً" محرزاً لعاملة المطعم. وكنت أنا نفسي في الكثير من الأحيان لا اجد "بخشيشاً" لكاثي. وذلك لان ما كان يتبقى معي من حق الوجبة، كان مجرد فراطة أقل من دولار. وكنت أحتاج القطع النقدية من فئة الربع دولار

لملء ثقوب ماكينات غسيل وتنشيف الملابس في الحي المجاور لمكان سكني. كنت استرجع شريط الذاكرة هذا بينما كانت سارة تقترب من المائدة التي أجلس عليها. وضعت سارة الوجبة على الطاولة. لا شك بأنها أصبحت أصغر من قبل. فالهامبرغر لم يَعُد طابقين، وإنما طابق واحد وصُغِّرَ قطر دائرته إلى ما يقارب النصف. وكان نصفه باللون البني (لون اللحم المشوي). ولم يعد أصفر مغطى بالجبنة الصفراء المُسيحة التي كانت تسيل من على حوافه. ولم تعد شرائح البطاطس المقلية تتدلى من فوق حافة السلة الحمراء المُخصصة لها. وبحيث كان يصعب حملها إلا من الأسفل على راحة اليد. وعندما تناولتها من سارة لم أجد صعوبة بمسكها من الحافة بالإبهام وأصابع اليد. وكان حجم كوب الكوكا كولا قد تقلص إلى النصف وامتلأ أكثر من نصفة بالأيس (الماء المثلج). ومع هذا أكلت الوجبة بفرح ونهم. وجاءتني سارة بفاتورة الحساب. وكانت قد تضاعفت من أربع دولارات وربع إلى ثمانية ونصف. وكذلك تقبلت هذا الفارق برحابة صدر. فتناولت من محفظتي ورقة نقدية بقيمة عشرين دولاراً وناولتها لسارة. شكرتها وهَممتُ بمغادرة المكان. وإذا بها تلحق بي إلى الباب وهي وتنادي عليّ لقد نسيت ان تأخذ الباقي، يا سيد. فنظرت إليها بحنو وفرح، وقلت، لا يا سارة لم أنسَ الباقي، وإنما تركته "بخشيشاً" لك. نظرت إليَّ بتعجب وتساءلت "ماذا؟، لا أصدق. لكن هذا كثيرٌ جداً. هل أنت متأكد، يا سيد؟ فأجبتها ودون تردد، نعم أنا متأكد. وهذا دين عليّ تأخر دفعه عشرون عاماً. واليوم جاء موعد تسديد الحساب. قالت على عجل، لم أفهم. صَمتُ برهة وجيزة وقلت: قبل عشرين عاماً كنت آتي إلى هذا المطعم وأنا طالب. ولا أجد معي "بخشيشاً" يتناسب مع تعب عاملة المطعم. واليوم لقد جئت إلى هنا بعد أن أصبحت أستاذاً، فهذا دينٌ متأخر علي، وأنت تستحقينه. فقالت ببراءة. حقاً!، لقد كانت والدتي تعمل في هذا المطعم قبل عشرين عاماً. نظرت إلى وجهها وتأملته ملياً واسترجعت فيه صورة كاثي. ومن ثم شيعتها بابتسامة عريضة، وغادرت المكان يملؤني الفرح.

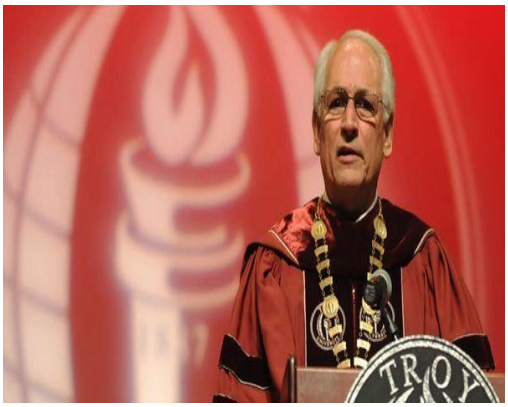

رئيس جامعة تروي جاك هوكينز

بعد حوالي عامين على المقابلة مع رئيس الجامعة في 20-10-2002، انتصب التمثال في باحة الحرم الجامعي

اللقاء الذي طال انتظاره لأكثر من ربع قرن

قبل موت حافظ الأسد لم أكن أتأمل بالعودة إلى سورية أبداً. وذلك لأن العديد من زملائنا الطلبة السوريين الذين كانوا يدرسون معنا في العراق في فترة السبعينيات من القرن الماضي وعادوا إلى سورية تم اعتقالهم ومكثوا في السجن لفترات طويلة. ومنهم من قضى تحت التعذيب. كما ولم أكن لأحلم بمشاهدة أياً من أهلي في أي مكان في العالم. وذلك لأنهم كانوا جميعا قد مُنعوا من السفر إلى خارج سورية. ليس لأي سبب سوى لأنهم أهلي فقط. وكان والدي يُستدعى من وقت لأخر إلى مراكز الأمن المختلفة للتحقيق معه بُغية متابعة أخباري. ولم تبقَ وسيلة أمنية فيها انتهاك للحرية الشخصية إلا ومُورست ضد أهلي بسببي كمنعِ السفر، والاستدعاء الأمني، والاستجواب، وفتح الرسائل. وأيضا مراقبة المكالمات الهاتفية. وكان لا بد لنا من أن نتَعَوّد على حياة المراقبة والخوف. والذي لم ينجُ منه حتى الأطفال الصغار. وكنت ذات مرة قد أرسلت مع أحد الأشخاص من الولايات المتحدة فساتيناً ملونة وجميلة لبنات أخي الأكبر كمال، كندة ورندة. وكانتا في عمرٍ لا يتجاوز الأربع والست سنوات. وعندما ذهبتا لتلعبا في الحارة مع أترابهما والتباهي بالفساتين الجديدة كما يمكن أن يفعل أي طفل. نَبهت كندة أختها الصغرى رندة بأن لا تقول بأن هذه الفساتين هي من عند عمها رياض حتى لا يسجنوا والدهما.

لقد كانت قضيتي مع النظام في سورية، وخاصة في عهد حافظ الأسد، قضية مركبة وثلاثية الأبعاد. البعد الأول يتعلق بي شخصياً. وذلك لأنني انخرطت بالسياسة في وقت مُبكر. وعارضت النظام منذ تأسيسه. وسافرت إلى العراق لغرض الدراسة. ومع الزمن تَحولتُ في نظر النظام إلى ناشط سياسي خطير ومعارض مُلاحق دون أن أدري. والبعد الثاني يتعلق بقرابتي وصلتي بشبلي العيسمي. أما البعد الثالث وهو لأنني أصبحت صُهر حمود الشوفي، الذي كان أميناً قطرياً لقيادة حزب البعث في سورية، والتي كان حافظ الأسد عضواً فيها عام 1964. وعمل في عدة مناصب سياسية ودبلوماسية في الدولة بعد أن أصبح حافظ الأسد رئيساً بالرغم من الخلافات الكبيرة التي كانت بينهما. وعندما استقال من آخر منصب له كسفير لسورية في الأمم المتحدة عام 1979، أصبح مُطارداً، وحُكم عليه بالإعدام. وهذا على ما يبدو ما رَجّحَ كفة الميزان بالنسبة لي. وبعد خطبتي من كريمته ليلى عام 1991، أُستدعُي والدي إلى أحد فروع الأمن. وسألوه عني وعن نيتي في الزواج والاستقرار في الولايات المتحدة وكأنهم لا يعلمون شيئا. فقال والدي مُتجاهلا الأمر "أن الله قد هداه ووجد واحدة عربية ولم يتورط بأجنبية." فرد

عليه موظف الأمن متهكماً، والذي كان قد أطلع على رسالتي ولديه معلومات دقيقة عمن هي خطيبتي ومن هو أبوها، فقال له: "عربية هه، بنت حمود الشوفي! لو خطب "يهودية" لكان أفضل له." ولهذا فقدنا الأمل بأية إمكانية لتغيُّر الوضع الذي نحن فيه مادام الرئيس حافظ الأسد على قيد الحياة. ولكن بعد وفاته عام 2000، لاحت بارقة أملٍ في الأفق عندما اتخذ خليفته بشار قراراً برفع قيود منع السفر في بداية عهده. وفي ربيع عام 2001، تقدم والدي ووالدتي بطلبٍ للسفر وزيارتي في الولايات المتحدة. وتمت الموافقة على الطلب. وكان هذا خبراً ساراً جداً بالنسبة لي لم أفرح لمثلة في حياتي من قبل. حيث كنت وقتها لم أرهما منذ أن غادرت سورية قبل ستة وعشرين عاماً. وقبل موعد وصولهما في أواخر شهر حزيران بعدة أيام، لم أكن أعرف ماذا سأفعل بنفسي من شدة الفرح الذي كان يعتصره مخاض الانتظار الممزوج بالقلق والتوتر. وفي يوم اللقاء استأجرت فان (سيارة كبيرة) تتسع لثمانية أشخاص، عائلتي المكونة من أربعة أشخاص، أنا وزوجتي ليلى وابنتاي لميس ولينا. وأيضا والدي ووالدتي. ومقعدين تُركا فارغين لما قد تكون قد جلبته والدتي معها من مونة وحاجيات تعوّض عن ربع قرن من الفراق بين الولد وأهله، الذي غادرهم قبل أن يبلغ التاسعة عشر من عمره. وانطلقتُ بالسيارة التي بدأت تسابق الزمن وهي تنهش الطريق السريع رقم 20 المُتجه غرباً نحو مدينة أتلانتا، عاصمة ولاية جورجيا، حيث يوجد المطار الدولي الذي سيصل إليه أبوايّ. وقطعت المسافة إلى المطار بساعتين. وهي عادةً تحتاج إلى ما يقارب الساعتين ونصف. وكان ذلك أيضا قبل وصول الطائرة بحوالي ساعتين. وكنت قد تقصدت الوصول مُبكراً خوفاً من حصول أي طارئ على الطريق قد يؤخرنا ويحرمنا من متعة اللقاء في موعده. وكان الانتظار في المطار يبدو طويلاً. حيث كانت الدقائق تمر ببطء شديد وكأنها تعادل زمن الفراق الذي فصلنا عن بعضنا لكل هذه السنين. وأخيراً، وبعد أن جف الماء في حلوقنا، أُعلن عن وصول الطائرة. وكانت ليلى والبنات مُلتزمين بالتعاليم الصادرة بالوقوف بعيداً عن باب الخروج وخارج نطاق الحبال التي امتدت بخطين متوازيين على طول المسافة من الباب إلى صالة الانتظار. وكانت مربوطة إلى أعمدة معدنية مطلية باللون الذهبي صانعةً طريقاً مستقلاً للمسافرين القادمين. أما بالنسبة لي فكانت كل هذه الترتيبات والتعليمات لا تعني شيئاً حِسياً مُدركاً في ذلك الوقت. وكنت أتجاوز الحبال بين الفينة والفينة. وأدلف برأسي داخل باب خروج المسافرين. وبدأ المسافرون بالخروج جماعاتٍ وفرادى. وكنت أرقب كل واحد منهم بتمعن وإسهاب وكأنني سأرسم له لوحةً زيتية. وذلك خوفاً من أن يفلت أحدهم ويكون أبي أو تكون أمي إحداهن. طال الانتظار ولم أرَ

أبي وأمي مع الخارجين. وبدأت ألوم نفسي باني قد أكون غفلت للحظة ومر أبوايَّ عبر الباب ولم أشاهدهما. فليلى والبنات لا يعرفونهما إلا من خلال الصور. وهما لا يعرفونهم إلا عبر الصور أيضا. أو قد أكون أخطأت في تفسير ملامح والدي ووالدتي بعد كل هذه السنين. ولربما كان الرجل الأشيب ذو الملامح العربية ومعه زوجته العجوز المحجبة هو والدي. ولما لا فقد يكون والدي قد شاب إلى هذا الحد عبر الزمن. ولكني أعرف بأن والدتي لا تتحجب. لكن لربما تكون قد تحجبت في آخر عمرها كما فعلت في أول العمر عندما التحقت بوالدي في دمشق قادمة من القرية في السويداء. وكانت تريد أن تجاري الجارات الدمشقيات في حي مساكن برزة الذي كنا نسكن فيه. لا، لا. هذا كله تخيل. فأنا شاهدت صوراً لوالدي ووالدتي في زمن ليس ببعيد. وهما لا يشبهان الزوجين اللذين مَرّا من باب خروج المسافرين قبل قليل. مضت أكثر من نصف ساعة على خروج أخر المسافرين القادمين على نفس الطائرة. وهما رجل وامرأة شقراوان، وليس لهما علاقة بوالدي ووالدتي. عندها قلقت وبدأ يساورني الشك. فذهبت إلى مركز استعلامات الخطوط الجوية الهولندية (KLM). وأعطيتهم اسم والدي ووالدتي. فأكدوا لي بأنهما قد صعدا على متن الطائرة القادمة من أمستردام التي نحن كنا ننتظرها. وعدت مسرعاً إلى الباب. لأرى رجلاً يرتدي بزة رصاصية داكنة، ومعه امرأة ترتدي ثيابا سوداء طويلة. وكانت قد طرحت على رأسها منديلاً أبيض. وكان كلاهما في السبعين من العمر. وكانا مُنهكيّن ويجران خلفهما حقيبة سوداء كبيرة. وكان التعب والإرهاق واضحين على ملامحهما. يا إلهي! هؤلاء هما أبي وأمي، لا شك لدي في ذلك هذه المرة. فأنا أحمل ملامحهما. وأبنتي لميس تشبه والدتي. وعندها قفزت من فوق الحبال، وانطلقت كالسهم داخل باب الخروج. ورجل الأمن ينادي عليَّ ويقول لي بأني مخالف القوانين، وطلب مني العودة على الفور. لم أكن أسمع أي شيء مما كان يقوله الرجل. وعندما شاهدني احتضن والديَّ بشغف لم يتعود عليه من قبل وقف مشدوها، وصمت. وكانت ليلى ولميس قد شرحتا له الموقف. كان اللقاء دامعاً وفرحاً. ومعانقة لم تتوقف، ودعوات وتمتمات. والناس من حولنا في المطار يتفرجون على منظرٍ لم يعتادوا عليه من قبل. وعَرفّت أبوايَّ على ليلى ولميس ولينا، اللاتي كُنَ جميعا تنتظرن دورهن للسلام على أبي وأمي بصبر وترقب. لقد كان اللقاء معبراً ومؤثراً وعاطفياً بكل التفاصيل. وكان يستحق أن يوثق ليس بكمرة فيديو صغيرة كانت تحملها ليلى، بل يستحق تغطية صحفية أو مقابلة تلفزيونية. حيث قصتنا هي قصةُ لقاءٍ ذي مضمون كبير من كل النواحي الإنسانية والسياسية والاجتماعية. وكان العديد من الأصدقاء العرب والأمريكان قد اقترحوا عليَّ

الاتصال بمركز ال CNN في مدينة أتلانتا، والذي لا يبعد عن المطار سوى عدة أميال. وذلك لتغطية الحدث وتحقيق سبق صحفي. لكنني قاومت الفكرة والإغراء. وذلك لأن كل ما أردته بالأساس هو لقاء أبي وأمي بهدوء وخصوصية بعد فراق بيننا دام لأكثر من ربع قرن. وأن اقبل أياديهما وألثم راسيهما. وأن أعتذر لهما عما تكبداه من ألم ومعاناة بسبب غربتي القسرية.

بنات أخي كمال كنده ورنده بالفساتين الملونة في الوسط

وأخيراً التقيت بالوالد والوالدة عام 2001 بعد فراق دام 26 عام

العودة إلى سورية بعد ثلاثة عقود ونيف من الغربة القسرية

بعد سقوط بغداد عام 2003 والاحتلال الأمريكي للعراق، صدرت تعليمات على مستوى الرئاسة في سورية بتسهيل عودة السورين الذين كانوا في العراق طوال فترة حكم حزب البعث منذ عام 1968. وبدون شك كان هذا القرار إنسانياً مُحقاً. فهؤلاء بالنتيجة هم سوريون تقطعت بهم السبل. وعلمنا لاحقاً بان هذه التعليمات امتدت لتشمل كل السورين الذين كانوا في العراق بغض النظر عن أماكن تواجدهم. وبالرغم من شغفي بالعودة إلى سورية، إلا أنني لم أكن أفكر في حينها بالعودة المُستعجلة. خاصةً وأنني كنت قد شاهدت والدي ووالدتي عندما زارانا في الولايات المتحدة عام 2001. لكنه في عام 2004 وعندما أصبحت ابنتي الكبرى لميس في الصف الخامس، حصل ما هو غير متوقع وفرض واقعاً مختلفاً. كانت مدرسة لميس قد تعودت أن تقيم في نهاية كل عام دراسي احتفالاً بيوم الطالب العالمي تقدم فيه فعاليات من مختلف دول العالم التي تمثل خلفية الطلاب وأهاليهم. وكان يلبس الطلاب لباس بلدان الأهل الفلكلورية. ويحملون أعلام هذه البلاد وينشدون أناشيداً وأغاني من أغانيها. وكانت لميس قد حملت في حينها العلم السوري ولبست لباساً فلكلورياً من سورية. وشاركت في كل الأغاني والأناشيد. وبينما كنا عائدين إلى البيت فرحين بما جرى في الاحتفالات ونتحدث عنها بشغف، قالت لميس: "بابا ممكن أسألك سؤال." أكيد حبيبتي تفضلي، أجبت. قالت: لماذا تريدني أن أحمل علم بلد وأغني له وأبي لا يستطيع دخوله؟ وعندما سمعت سؤالها هذا أصابتني قشعريرة هزت أركان جسدي وخَيّمَ عليَّ صمت مُطبق للحظات. وبالرغم من منطقية السؤال لمن هو في عمر لميس ومن مواليد الولايات المتحدة مثلها، لكنه لم يكن ليخطر ببالي أبداً بأنه سيأتي اليوم الذي ستسالني فيه ابنتي مثل هذا السؤال. وذلك لأنني كنت أنظر إلى مفهوم الوطن من خلال ما تعلمته وتربيت عليه في البلاد العربية ذات الأنظمة الشمولية بأن الوطن هو خط أحمر، ومثل هذا السؤال لا يجوز طرحه مهما كانت الظروف. فالوطنية بالنسبة لنا هي موضوع مقدس بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى. ولهذا حاولت إجابتها وبما يمكن أن تستوعبه طفلة في سن الحادية عشر ومولوده في الولايات المتحدة ذات النظام الديموقراطي. لكني بقيت أفكر بسؤالها طوال الوقت ونحن في الطريق إلى البيت. كما واستمر سؤالها هذا يطاردني كظلي لعدة أشهر. وحتى أنني بدأت أبحث عن تعريفات جديدة للوطن والمواطن والمواطنة. نعم، لميس على حق. كيف لعقلي أن يستوعب وطناً لم يستوعبني، وكيف يدخل قلبي وطنٌ لا أستطيع دخوله؟ فهل الوطن يا ترى

هو مجرد حدود وتراب وحجر، نُحبه ونقدسه بطريقة عاطفية غير قابلة للنقاش؟ أم هو إنسان وعلاقات وبشر؟ وهل العلاقة بين الوطن والمواطن هي علاقة متبادلة؟ وما هو المفهوم الحقيقي للوطنية؟ ومن يحق له أن يحدد هذه العلاقة ويفرضها على الآخرين؟ وهكذا بقيت الأسئلة تتوالى عَليَّ يوماً بعد يوم، وإلى أن اختمرت في ذهني فكرة أن أتقدم بسؤال لميس إلى الرئيس السوري **بشار الأسد**، وكما اقترحت هي بالأساس. وبالفعل كتبت له رسالة. عَرفته بنفسي وشرحت له فيها سبب غربتي في الولايات المتحدة. وأخبرته بقصة ابنتي لميس في احتفالات مدرستها بيوم الطالب العالمي. وتقدمت منه بسؤالها الذي أحرجني. وتمنيت عليه إجابة لميس على سؤالها. وأرسلت الرسالة إلى السفارة السورية في واشنطن وفقاً للأعراف البروتوكولية. وتمنيت على سعادة السفير السوري في واشنطن أن يقرأها وأن يُوصلها للرئيس بالطريقة التي يراها مناسبة. وبعد حوالي أسبوع من إرسالها، تلقيت مكالمة هاتفية من سيدة كان صوتها يوحي بانها شابة. وكانت تطغى عليه اللهجة الشامية. عَرفتني بنفسها وقالت بأنها سكرتيرة سعادة سفير الجمهورية العربية السورية في واشنطن، وتابعت القول بأن سعادة السفير يريد أن يتكلم معك. بكل سرور، أجبتها. فتكلم معي السفير. وكان لطيفاً ودبلوماسياً كما تقتضيه مهنته. وكان مهنياً. وأكد لي أعجابُه بالرسالة الموجهة إلى السيد الرئيس وطيب المشاعر الوطنية الموجودة فيها وصدقها حسب تعبيره. وقال: أعدك بأنني سأوصل رسالتك إلى السيد الرئيس شخصياً في أول زيارة أقوم بها إلى الوطن. فشكرته على ذلك وتمنيت له يوما سعيداً. وكان ذلك في مطلع صيف عام 2004. مَرَّ حوالي عام دون أن أسمع أي شيء عن الموضوع. فقررت السفر إلى الأردن في آواخر أذار من عام 2005 لملاقاة والديَّ مرة أخرى هناك كونهما أصبحا قادرين على السفر. وبهذه المناسبة حاول بقية أفراد الأسرة تقديم طلبات للسفر وملاقاتي في عمان. وكانت الفرحة عارمة عندما تم السماح بالسفر لكل من تقدم من أهلي بطلب السفر، صغاراً وكباراً. وأمضيت معهم أسبوعين من أحلى أيام العمر في عمان. وكان قد مضى على خروجي من سورية في حينها ثلاثين عاما. وكان كل أخوتي وأخواتي قد تزوجوا بعد مغادرتي سورية. وجميع أطفالهم قد وُلِدوا في غيابي. ولهذا بعد عودتي من عمان إلى الولايات المتحدة، حاولت تناسي الرسالة التي أرسلتها إلى الرئيس. وتوقفت عن التفكير بالعودة إلى سورية في ذلك الوقت. فالأهل هم بمثابة الوطن، وها أنا قد شاهدت كل أهلي، أو هكذا حاولت أن أُقنع نفسي. ولكنه في ربيع عام 2007 وبعد مرور حوالي عامين على عودتي من الأردن، اتصل بي شخص من السفارة وعرفني بنفسه. وأبلغني بأن السفارة في واشنطن قد تلقت تعليمات بتسهيل

عودتي إلى سورية، وأن سعادة السفير قد كلفه شخصيا بمتابعة الموضوع معي. وكان أيضا لطيفاً ومهذباً. وأحسست بصدقه ورغبته في تسهيل عودتي. وبعد مداولات ومشاورات وتحريات، قررت السفر خوفاً من ألا تتوفر فرصة أخرى لي في المستقبل. وحجزت بطاقة ذهاب وإياب على الخطوط الجوية الفرنسية من مدينة أتلانتا في جورجيا في الولايات المتحدة إلى دمشق عبر باريس. كانت الرحلة إلى باريس طويلة ومُتعبة، خاصة وأنني كنت أعاني من مشكلة انزلاق فقرات. وفي فترة الاستراحة والانتظار لتغيير الطائرة في باريس، كنت أحاول أن أحصل على كل ما أستطيع من الراحة. وذلك لأنني كنت أتوقع بأن دخولي إلى سورية لأول مرة بعد ثلاثة وثلاثين عاماً سيكون عاطفياً ومؤثراً. ولربما سيكون هناك تعقيدات وملابسات أمنية قد تطول. ولهذا كنت أحاول كل جهدي بألا أدخل إلى مطار دمشق وأنا مريض وضعيف. بل كنت أحرص على أن أدخل الوطن وأنا متماسك وبكل قوايّ النفسية والجسدية. أقلعت الطائرة الفرنسة من مطار تشارل ديغول حوالي العاشرة صباحا برحلتها رقم 722 والمتوجهة إلى مطار دمشق. وبعد عدة ساعات من بدء الرحلة أعلن قائد الطائرة عبورنا لتركيا ودخولنا الأجواء السورية. وما أن سمعت هذا الإعلان حتى انتابني شعورٌ لا يمكن وصفه بأية كلمات. حيث بدأ العرق يتصبب من كامل جسدي. وترقرق الدمع في عينايَّ بصمت. ولكنه فضحني عندما بدأ يسيل غزيراً على خديّ، ولم أستطع السيطرة على نفسي. فطلبت من المُضيفة الفرنسية إذا ما كان بإمكاني الذهاب إلى الخلف والجلوس في أخر مقعد بمفردي. وكان المقعد خالياً من أي مسافر. فوافقت وهي تحاول أن تُهدئ من روعي وتواسني. وشرعت تسألني عما يُبكيني. فاعتذرت من الحسناء الفرنسة بأدب، وأشحتُ بوجهي عنها بهدوء باتجاه النافذة. فشاهدت البحر الأبيض المتوسط وهو يختفي من على يميني. ولم تمضِ دقائق معدودة حتى أعلن قبطان الطائرة عن الاقتراب من دمشق وبدء عملية الهبوط في مطارها الدولي. وبدأت الطائرة بالانخفاض التدريجي. وبدأت ملامح دمشق تتوضح لي شيئاً فشيئاً. وكانت تبدو جميلة بمبانيها البيضاء وغوطتها الغناء التي طوقتها بحزام أخضر جميل. وكان قاسيون من الجهة الأخرى ينتصب شامخاً على أرض الشام، تماماً كما تركته قبل أكثر من ثلاثين عاما. هبطت الطائرة على مدرج المطار. واقتربت من البناء وصمتت محركاتها، وانفتحت الأبواب. وكانت الشمس قد سقطت في الغرب من دمشق، واختفت خلف جبل قاسيون. وكانت حافلة المطار بالانتظار لنقل الركاب القادمين إلى داخل مبنى المطار. وكانت سائق الحافلة لم يترك مسافةً كبيرة بينها وبين سلم الطائرة. ولقد كان لدي دافع عفوي في حينها لتقبيل أرض الوطن في أول نقطة أصل إليها.

لكن الشخص الذي كان يسير خلفي كان مستعجلاً لدخول الحافلة. وكان طويلاً وضخماً. وكان يُخيّمُ بأعلى جسده فوق راسي كنسرٍ كان يهوي للانقضاض على طريدة. ولم يمنحني الفرصة حتى بالتلفت حولي، عداك عن الركوع وتقبيل الأرض عند مدخل الحافلة. وقلت لربما أستطيع تلبية رغبتي هذه داخل مبنى المطار. لكنني عندما دخلت من الباب الزجاجي المزدوج كان بهو المطار مليئا بالناس من المسافرين الذين جاؤوا من كل مكان. ورجال من الجيش بالعشرات بلباسهم العسكري. وأخرين مدنيين. وكان من الواضح، ومن تحركاتهم، بأنهم رجال أمن يراقبون سير الأمور في المطار. ووقفت في منتصف البهو مُتعباً مترنحاً. وكنت قد انفعلت وانشغلت في مشاهدة الوطن من الجو. فنسيت أن أتناول حبة مسكن الأوجاع. فاشتد الوجع في رجلي اليُمنى وبت أنقلها ببطء وصعوبة بالغة. وعلى ما يبدو كان قد حصل ما كنت متخوفا منه. وبينما كنت أحاول أن أتماسك نفسي وأهدئ من روعي، سمعت شخصا يخاطب آخر ويقول له: ذلك هو "الاختيار الأعرج". لم أكن أتوقع في البداية بأنني أنا المعني. فانا كنت قد بدأت أنقل رجلي بصعوبة من شدة الألم، لكنني لم أكن أعرجاً. كما ولست اختياراً. صحيح أنني كنت في مطلع الخمسينات والشيب كان قد بدأ يتسلل إلى شعري. وشعري كان منكوشا بعض الشيء لأنني نسيت نفسي ولم أدخل إلى الحمام وأغسل وجهي وأُسرحَ شعري واعتني بقيافتي قبل هبوط الطائرة في مطار دمشق كما فعلت قبل الهبوط في مطار باريس. لكنني لست عجوزاً كما وصفني ذلك الشخص المستهتر الذي لم أرَ وجهه، لكنني سمعت صوته المزعج فقط. ولم تمضِ عدة دقائق وأنا ساهٍ أحاور نفسي، اقترب مني ضابط وسألني إن كنت أنا رياض العيسمي. أجبته بنعم. عَرّفَني بنفسه، وقال: أنا النقيب علي مُكلف باستقبالك وتسهيل أمر دخولك. وطلب مني أن أذهب معه إلى الجهة الأخرى لعبور المسافرين نحو الخارج بعد إنهاء معاملاتهم مع الجوازات والأمن. وكان يجلس في المكتب المقابل وراء نافذة زجاجية رجل ضخم يكاد يغطي جسده كامل النافذة المخصصة للمعاملات. وما أن شاهد النقيب حتى وقف له باحترام. وقال له النقيب: مثل ما خبرتك بتمشي له المعاملة وأشار إليّ. فرد الرجل وهو مازال يقف باستعداد "أمرك سيدي." والتفت إليَّ النقيب وخاطبني قائلا: أنا مضطر للذهاب، لكن هو راح يمشي لك الأمور، وأشار إلى الرجل الذي كان ما يزال واقفا باستعداد. ومن ثم ودعني وانصرف. وما أن اختفى من بهو قاعة المطار، هوى الرجل على كرسيه بعد أن أخذ شهيقاً عميقاً، وقال بنبرة مرتفعة كان يحاول من خلالها تعويض ما افتقده أمام الضابط: "هات لشوف أرني الأوراق التي معك." فناولته ورقة القرار التي كانت السفارة السورية في واشنطن قد أرسلتها لي. نظر إليها

بشكل مُقتضب وقال: هذه الورقة لا تعني شيئا وعليك أن تتكلم مع مدير أمن المطار. قالها وملامحه كانت تخلو من أي انفعال. فوقفت مندهشاً ولا أعرف ماذا سأقول أو أفعل. فالنقيب علي، الذي تعهد بتسهيل أموري، قد ذهب. وهذا الرجل يطلب مني الآن أن اذهب إلى مدير أمن المطار. ولماذا النقيب لم يأخذني هو مباشرة إلى مدير أمن المطار. الأمور بدت لي غير مترابطة، أو يمكن أُريدَ لها أن تكون كذلك. ومع تعبي ودهشتي وخوفي لم أعد قادراً على تحليل الأمور بشكل عقلاني دقيق. وخوفاً من ارتكاب أخطاء غير متوقعة في ظل هذه الظروف، قررت التزام الصمت وتنفيذ كل ما يُطلب مني دونما سؤال. على كل الأحوال، أنا الآن في موقف ضعيف. وقد يكون أضعف موقف تعرضت له في حياتي. وبينما أنا بين أخذٍ ورد مع نفسي واقفا أمام النافذة، جاء عسكري من بعيد وسألني إن كنت أنا رياض العيسمي. فقلت: نعم. فقال: تفضل معي لعند مدير أمن المطار. وفي هذه الأثناء كان والدي ووالدتي وأسرتي وكل الذين جاؤوا لاستقبالي ينتظرون خروجي بفارغ الصبر. فقد مضى ما يقارب الساعة على وصول الطائرة الفرنسية التي كنتُ على متنها. خرج كل ركابها وغادروا المطار وأنا ما أزال في الداخل دون أن يعلموا عني شيئاً. أدخلني العسكري إلى مكتب مدير أمن المطار. وكانت الإشكالية بأن فرعين من فروع الأمن الثلاثة التي كنت مطلوباً لها قد أخبرت أمن المطار خطياً برفع قرار إلقاء القبض الفوري عليَّ. أما كتاب الفرع الثالث، فرع الأمن السياسي في السويداء، كان لم يصل بعد. وبهذا، وحسب الإجراءات المُتبعة لديهم، كان لا بد لمدير أمن المطار من إلقاء القبض علي وإرسالي موقوفا إلى السويداء وتسليمي إلى فرع الأمن السياسي هناك. وأخيراً، وبعد حوالي أكثر من نصف ساعة من الاتصال بمدير فرع الأمن السياسي في السويداء والعديد من المداولات، قُضيَّ الأمر وسُمِحَ لي بالخروج. وعندها ذهبت إلى موظف الجوازات الذي وضع على جواز سفري الأمريكي تأشيرة الدخول إلى بلدي الأم سورية. وقال لي بإمكانك أن تذهب الآن إلى الجمارك لاستلام حقائبك والمغادرة. فتوجهت إلى صالة الجمارك. وهناك أبلغوني بأنهم كانوا قد تسلموا حقيبة واحدة فقط. أما الحقيبة الثانية فلم تصل. ولقد ذهبت إلى رومانيا وستأتي بغضون أسبوع، كما أبلغني أحد موظفي الجمارك. لا أدري لماذا رومانيا تحديداً، والطائرة التي أقلتني إلى دمشق هي فرنسية؟ على كل الأحوال، لم أُتعب نفسي بالسؤال أو الإجابة على الكثير من الأسئلة لما حصل لي منذ اللحظة الأولى لوصولي إلى مطار دمشق. وذلك لأن كُلَّ همي كان وقتها هو فقط الخروج من المطار. وأشار موظف الجمارك بيده إلى مكان الحقيبة التي وصلت. وكانت موضوعة بمفردها في مكان صغير في الجانب الأخر من قاعة الجمارك إلى

جانب الجدار. وكانت هي حقيبة الهدايا. فعرفت بان حقيبة ملابسي هي التي ذهبت إلى رومانيا. وبالرغم من أنني كنت أنتظر وصول البيت كي أغير ملابسي. وذلك لأني بُتُّ بحاجة ماسة لذلك. ولكنني أدركت بأن الأولاد الصغار من أبناء وبنات أخوتي وأخواتي أول ما يتمنون أن يروه بعد السلام عليَّ هو هداياهم. وبينما أنا منهمك بالتفكير في هذه القضية، نظرت من كُوة صغيرة موجودة في الجدار فوق الحقيبة، وكانت تُطل على صالة انتظار المسافرين من الجانب البعيد عن باب الخروج، شاهدت **ماهر ابن أخي الأصغر، أيمن**. وكان يركض جيئةً وذهابا من أمام الكُوة. وكان صغيراً ويحاول تقطيع وقت الانتظار. فناديت عليه. فجاء إلى الكوة حيث الصوت. ولما عرفني مددت له يدي من بين فتحات شبكة من الحديد كانت قد وُضعت على الكوة لمنع النفوذ إلى القاعة. فتمسك بيدي وبدأ يقبلها وهو يصرخ هذا عمي هون، عمي هون. ولم تَمضِ لحظات حتى تجمع كل أهلي ومعهم معظم الذين جاءوا لاستقبالي أمام الكُوة. وبدأوا يتسابقون للسلام عليّ من الكوة. وقبلت كل من استطعت تقبيله من فتحات الكُوة. ومن ثم أخبرتهم بأنني في طريقي إلى باب الخروج ويمكن أن نُكمل السلام هناك. وخرجت من الباب وكان التعب والإرهاق واضحين على ملامحي. وكان الجميع قد وقفوا في صفٍ منتظم لكي أسلم عليهم واحداً واحد. ولكي يوفروا عليّ العناء. وكان العدد يقارب الأربعين شخصا. ومنهم من عرفتهم وخاطبتهم بأسمائهم. ومنهم من كانوا قد وُلِدوا أثناء غيابي أو لم أستطع التعرف عليهم لسببٍ أو آخر. وهم بادروا وعرفوني بأنفسهم. وفي نهاية الصف وقف رجلٌ أربعيني. وكان يبتسم بابتسامة عريضة وهو ينظر إليَّ بلهفة. وكانت تقف بجانبه امرأة مُحجبة. وعندما وصلت إليه لم يُعرفني بنفسه، لكنه قبلني عدة قبلات بحرارة. وكانت المرأة التي تقف بجانبه مُترددة بعض الشيء في مصافحتي، لكنها، وبرد فعل عفوي، مدت يدها وصافحتني. وقالت: الحمدالله علي السلامة. وهنا أصابني الفضول لمعرفتهما. فقلت للرجل: عفوا يا أخي المعذرة منك، أنا ما عرفتك. أنا صار لي زمان طالع من البلد ولم أتذكرك. فرد عليَّ بسرعة ودون تردد وقال: "ولا راح تعرفني. أنا لست أحداً تعرفه. وأنا لست مع هذا الجمع الكريم، وأشار إلى الذين جاءوا لاستقبالي. أنا وزوجتي كنا هنا في المطار صدفةً. وعندما اندفع الناس إلى الكُوة، سألت هذا الطفل الصغير وأشار إلى ماهر ابن أخي. وقال: عندما أخبرنا بقصتك، قررنا الانتظار كي نسلم عليك ونقول لك أهلا وسهلا بك في بلدك سورية. وألف ألف الحمدالله على السلامة." فهزت القشعريرة أرجاء جسدي لما سمعته من هذا الرجل وما فعله هو وزوجته تجاهي. وذلك ما أعطاني جُرعةً كبيرة وزاخرة من القوة والأمل كنت بأمس الحاجة لها في تلك اللحظات الصعبة. فشكرتهما بكل

ما امتلكت من جوارح وبلاغة. فتمنيّا لي إقامة طيبة، وانصرفا. وعدت إلى أهلي ومستقبليَّ الأكارم لنغادر معاً جميعاً حرم المطار. ولأستنشق بعد كل هذه السنين عبق الياسمين الذي كان قد ملأ الفضاء في دمشق الفيحاء.

مع مجموعة من أولاد وبنات إخوتي وأخواتي،

ويظهر ماهر مُبتسما بالقميص البرتقالي، الثاني من اليمين في الصف الثاني من الأعلى

لأول مرة بعد 42 عاماً يجتمع كل أفراد الأسرة في صورة واحدة عند زيارتي لسورية عام 2007.

وأظهر فيها في المنتصف على يسار والدي.

كانت هذه آخر صورة التقطت للعائلة وأنا فيها قبل 42 عام، عام 1965

قبل انتقال العائلة من امتان إلى دمشق.

أظهر أنا في الصف الثاني بجانب والدي وخلف أخي الأكبر كمال

تسوية الوضع والعودة إلى نقطة البداية في امتان

بقيت ثلاثة أيام في بيت أهلي في دمشق وحيث يسكن أيضاً أخي الأصغر أيمن. وذلك قبل أن أسافر إلى السويداء حيث يسكن **أخي الأكبر كمال**. ومنها إلى **امتان حيث دار الأهل والأجداد**. وحيث استقر والدي ووالدتي بعد تقاعد والدي من وظيفته في دمشق. وكنت بحاجة ماسة للراحة كي يخف الألم واسترجع قواي التي كانت قد تزعزعت بعد انزلاق الفقرة في مطار أتلانتا في الولايات المتحدة وأنا أركض للحاق بالطائرة، ومن عناء السفر، ولانتظار المشحون بالخوف والترقب قبل الخروج من المطار. وكنت بحاجة أيضاً إلى أن أتَعوّد على سبع ساعات فرق في التوقيت بين أوغستا في الولايات المتحدة وسورية. وذلك قبل أن أُراجع فَرعيّ المخابرات العسكرية والمخابرات العامة في دمشق. وفي صباح اليوم الثالث ذهبت أنا وأخي الأكبر كمال، وأخي الأصغر أيمن، ومنير ابن عمنا وزوج أختي رحاب، إلى فرع المخابرات العسكرية، أو ما يعرف باسم فرع فلسطين للأمن الخارجي. وبينما دخلت أنا بمفردي إلى الداخل، بقي كمال وأيمن ومنير بانتظاري في الخارج. شققت طريقي في الباحة الطويلة والمستطيلة وإلى أن وصلت إلى مدخل المبنى القديم المكون من ثلاثة أو أربعة طوابق. سألت رجلاً كان يقف في الداخل عند الباب إلى أين سأذهب، فقال لي: المراجعات في الطابق الثاني. صعدت إلى الطابق الثاني على الدرج. سجلت أسمي ودخلت إلى غرفة الانتظار. وكانت غرفة صغيرة لا تتجاوز الخمسة بستة أمتار. وكان قد تجمع فيها أكثر من ثلاثين شخصاً. منهم من كان يجلس على كراسي معدنية عفا عليها الزمن. وكان الصدأ قد اتلف الجزء الأسفل من أرجلها حيث تتعرض للماء إثناء الشطف. وكانت رائحة عرق الرجال تملأ فضاء الغرفة التي تطايرت فيها حلقات الدخان التي كان يَنفُثها المدخنون إلى الأعلى وهم يتململون في أماكنهم وينتظرون أن يأتي الحاجب وينادي على أسمائهم إيذاناً بعرض قضاياهم على موظف الأمن المختص. وما لم أكن أستطيع فهمه هو كيف مازال يسمى هذا الفرع الأمني بفرع فلسطين ومعظم من كان فيه هم من العراقيين. وكيف يسمونه بفرع المخابرات العسكرية وكل القضايا التي سمعت عنها من الموجودين في غرفة الانتظار لم تكن تمت للجيش بصلة. فمنهم من كان ينتظر للحصول على رخصة صيد. وآخر لشراء عربة لبيع الخضروات. وكان أحدهم يريد أن يسافر إلى لبنان ليلتحق بزوجته وأولاده الذين كانوا قد سبقوه إلى هناك. كنت أفكر بإضاعة وقت الانتظار الذي طال لما يقارب الساعة بالحديث مع هؤلاء العراقيين المساكين، والذين من الواضح بأنهم قد تقطعت بهم السبل بعد الغزو

الأمريكي للعراق واحتلاله. فأنا عشت في العراق وأحب العراقيين وأعرف الأماكن التي كانوا يتحدثون عنها. لكنني خفت أن يجر الحديث حديثاً آخر غير مرغوب به من قبل السلطات السورية. وبهذا أكون بقضية وأدخل في قضية أخرى. فآثرت الصمت والاكتفاء بالسماع فقط. ولم تمضِ دقائق حتى نادى الحاجب على اسمي. وسار أمامي إلى مكتب نائب مدير الفرع، وكان برتبة عقيد. وكنت اعتقد بأنه سيستجوبني عن ثلاثة وثلاثين عاماً منذ خروجي من سورية. ومن ضمنها نشاطي السياسي والطلابي في العراق والولايات المتحدة. لكنني تفاجأت بأن قضيتي لديه كانت تقتصر على سؤالٍ واحد فقط: **"من هو السلطان الذي كنت تعنيه في المسرحية التي أخرجتها في بغداد وعُرضت على مسرح الجامعة المستنصرية؟"** لم أكن في البداية أفهم أية مسرحية يقصد. فانا أخرجت عدة مسرحيات، ومعظمها عُرض على مسرح الجامعة المستنصرية. وكانت جميعها بمناسبة احتفالات رابطة الطلبة السوريين في العراق بأعياد الجلاء في 17 نيسان. وكان أغلبها يدور حول شخصيات ملوك وسلاطين. وسألته مستوضحاً أية مسرحية تقصد، سيادتك. فقال: "هذه التي فيها سلطان ووزير كالتي يلعبها الأولاد الصغار." قلت قصدك مسرحية "لعبة السلطان والوزير." فأجاب: "أيه هذه هي." فقلت هذه مسرحية ميلودرامية جميلة. قال لا يهمني شو هي. من كنت تقصد بشخصية السلطان؟ فقلت بأن هذه الشخصية كما أرادها الكاتب ترمز لأي حاكم ديكتاتوري يأتي إلى السلطة وهو لا يستحقها ويبدأ بإصدار أوامره بشكل عشوائي للتنكيل بشعبه. فكرر السؤال من هو؟ وأعدت له نفس الجواب، أي حاكم ديكتاتور مر عبر التاريخ. أين، سأل. في أي مكان في العالم، أجبته. وحتى أُخفف من غلوائه قلت له بأن مؤلف هذه المسرحية هو كاتب تونسي، وهو مقيم هنا في سورية. والمسرحية منشورة في مجلة مسرحية سورية. قال: "لكن المعلومات إلى عنا بتقول إنك أنت كنت تقصد غير هذا." وهنا وصل النقاش إلى نهايته بالنسبة لي. فقلت له وماذا تقول المعلومات لديكم، ومن هو الحاكم الذي قصدته دون علمي؟ لم يكن يتوقع جوابي، واستدرك الأمر وقال: "على كل الأحوال هناك الكثير من التقارير هي تقارير كيدية. فقلت له وهذا على ما يبدو واحدٌ منها. سأل سؤالين أو ثلاثة جانبية لا علاقة لها بالتحقيق. وكانت فقط لتغيير مجرى الحديث. لكنه عاد لنفس الموضوع لاحقاً. يعني أكيد أنت لم تكن تقصد شخص معين، أعاد السؤال وبلهجة لا تخلو من الحدة والزهق. وكان يريد أن يُقفل ملف التحقيق. لكنه كان يحاول أن يُثبِت نقطةً ما قبل أن يقفله. وهنا قلت له بنبرة حاسمة: كما يقال إذاً "حضر الماء بطل التيمم." إذا كنت حضرتك يا سيادة العقيد تسمع المعلومات من مصدرها الأساسي والذي هو أنا، لماذا تحتاج إلى مصدر

آخر غيري. وحضرتك قلت بأنه قد يكون تقرير كيدي. فإما أن تصدقني أو تصدق ما لديك من معلومات كيدية وغير صحيحة. فقال بصوت لا يخلو من الاحباط: "طيب، طيب، روح إلى غرفة المعلومات خلي الشباب يأخذوا منك المعلومات المطلوبة حتى نطوي ملفك." ذهبت إلى غرفة المعلومات وكان فيها ما يقارب العشرة شباب لا أحد منهم كان قد تجاوز الثلاثين من عمره. وكانوا يجلسون وراء طاولات معدنية قديمة يشربون المته ويقهقهون. جلست أمام أحدهم. وبدأ بأخذ المعلومات ببطء وبطريقة مملة. ولم يترك أحداً من عائلتي وعائلات عائلتي أو عائلة زوجتي وعائلات عائلتها إلا وسألني عنه. ممن هو متزوج أو متزوجة. وكم لديه أو لديها من أولاد. وما هي أسماؤهم. وماذا يعمل أو تعمل وأين؟ وإلى أن أصل معه إلى واحد أو واحدة من درجات القرابة التي لا أعرف عنها المزيد، يتوقف وينتقل إلى واحدٍ آخر. وهكذا لساعة أخرى من الزمن. وعدت إلى مكتب العقيد نائب رئيس الفرع للتوقيع على طي الملف. وقبل أن يضع توقيعه على الملف، حاول مرة أخيرة أن يسألني عن أسم **السلطان الأسطوري**. ولكن دون جدوى. فوقّع، وطُوِيَّ الملف من قِبل فرع فلسطين. وخرجت منه بعد ثلاث ساعات لا تُنسى. وكان أخي كمال وصهري منير وأخي أيمن مازالوا ينتظرون في الخارج تلفحهم شمس تموز الحارقة. وكانوا خائفين ومترقبين ويتلظون بالجدار الأسمنتي العالي الذي يطوق المبنى من الخارج. وكان لديهم الاعتقاد بأنني قد أُعتقلت. ولم يكن ليخطر ببالهم بأن الاستماع إلى دروس في الثقافة العامة كالحصول على رخص صيد وبيع الخضرة والسفر إلى لبنان واكتشاف اسم السلطان الأسطوري ومعرفة زوج ابنة أم حسان وشقيقة أم غسان يحتاج إلى ثلاث ساعات. وكان عليَّ بعدها أن أذهب إلى فرع المخابرات العامة. وبنفس الطريقة كان لا بد لأخويَّ وصهري أن ينتظروا في الخارج. دخلت وشققت طريقي إلى داخل الطابق الأول. وكان يقف في البهو رجلٌ يضع يديه خلف ظهره، وكان "واثقَ الخطوةِ يمشي ملكا." لم أعرف من هو وما هي وظيفته، لكنه من الواضح بأنه كان مسؤولاً كبيراً في هذا المبنى. اقتربت منه وقلت له: "عفواً، أنا هنا لطي ملفي، أين أذهب؟ فقال: من أنت؟ وما أن سمع بإسمي حتى انتفض جسده وتجهمت أساريره وقال: "أنت شو جابك لهون. نحن طوينا ملفك وخلصنا من ها الشغلة." لم أكن أعرف لحظتها سبب امتعاضه، وعن أي شغلة كان يتحدث. وحاولت أن أتأكد منه أكثر حول طي الملف. لكنه قال بلهجة آمرة هذه المرة: "يا لله تيسر الله معك. خلص أنت ما عاد إلك عنا شيء." فشكرته باقتضاب، وأدرت بظهري، ومضيت في طريقي إلى الباب الخارجي، ودون أن ألوي على شيء.

انتهت مهمة مراجعة فرعيّ المخابرات في دمشق، فرع فلسطين وفرع المخابرات العامة. وكان لا بد أيضا من طي الملف في فرع الأمن السياسي في السويداء حتى يُسوى وضعي، وأُصبح حراً طليقا دون مراجعات أمنية. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى السويداء حيث يسكن أخي كمال. وفي مساء اليوم الثاني، ذهبت إلى مقر فرع الأمن السياسي في السويداء. وتم إدخالي إلى مكتب مدير الفرع. وكان يقف خلف المكتب رجلٌ طويلٌ ووسيم. وكان يلبس لباساً مدنيا. ألقيت عليه التحية، فمد يده وصافحني. كان لطيفاً واستقباله حاراً. فطلب مني الجلوس، ومن ثم أخبرني بإجراءات طي الملف. والتي يتضمنها ما أسماه "دردشة وتثبيت المعلومات". ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى بدأت الدردشة، والتي سأل خلالها عدة أسئلة عامة. لم يتطرق فيها إلى الفترة التي كنت فيها في العراق، وإنما كانت فقط عن عملي ونشاطاتي في الولايات المتحدة ومشاريعي. كما وسأل عن وضع حَمَايّ حمود الشوفي. وكانت جميع أسئلته عامة. وكانت على شكل حديث، ولم أشعر فيه بأي نوع من الاستجواب. كما ولم يكن يريد معرفة السلطان المقصود في المسرحية، كما أَصّرَ العقيد في فرع فلسطين. وكانت معاملته معي مهذبة. وكان يتصرف بطريقة مهنية، وليست كمعاملة المسؤول الذي قابلني في دائرة المخابرات العامة في دمشق. وبعد حوالي نصف ساعة ضغط على زر الجرس، وطلب المسؤول عن التحقيق وجمع المعلومات. فجاء الشخص المطلوب على الفور وأدى له التحية. واستشفيت من لهجته بأنه من جيراننا، أهل درعا. فقال له "خوذ معك الدكتور رياض. وخذ منه المعلومات المطلوبة لطي الملف." وأكد عليه بأن لا يحقق معي، وإنما يقوم بجمع المعلومات فقط وتثبيتها تمهيداً لطي الملف. وكنت هذه أول مرة أسمع أي مسؤول أمني يخاطبني بلقبي المهني، الدكتور رياض، ومنذ أن وطئت قدماي أرض مطار دمشق. شكرته، وذهبت مع الرجل إلى غرفة التحقيق. وكانت الكهرباء فيها مقطوعة، فأشعل شمعة أو شمعتين ووضعها على الطاولة أمامه، بيننا. وذلك حتى نرى ملامح بعضنا البعض. وأظن بأن السبب الأساسي كان لكي يرى هو ملامحي وهو يسالني عن المعلومات أكثر منه لإنارة المكان. وكانت الغرفة حارة جداً. وليس لها سوى فتحة منور واحدة صغيره عند السقف، وكانت مُقفلة. وبدأ بأخذ المعلومات ببطء شديد جداً. خاصة وأنه كان يسألني عن أسماء المدن التي زرتها أو عشت فيها والأماكن التي ذهبت إليها والجامعات التي درست فيها. وعندما كنا في العراق ونتكلم عن أسماء عربية معروفة بالنسبة له لم يكن هناك مشكلة كبيرة، عدا طريقته البطيئة بأخذ المعلومات. وعلى ما يبدو بأن مهنة التحقيق كانت طاغية عليه بالرغم من أن مدير الفرع كان قد أَكّدَ علية بأن لا يمارسها معي. حيث كان يسأل عن المعلومة ويتفرس في

وجهي إثناء الجواب. وذلك ليتأكد من مدى صِدقي. أو لربما كان هناك تبادلاً للأدوار، لم أكن لأستطيع الجزم بذلك. وازدادت حرارة الغرفة وتكاثر الدخان فيها لأن فتائل الشمع بدأ تقترب من رمقها الأخير. وكان لديه مخزون كبير من الشموع الاحتياطية. وعندما وصلنا عند الفترة في الولايات المتحدة، بدأت الأمور تتعقد. وذلك لأنه كان يحاول أن يسمع الكلمة بالإنكليزية ليكتبها في محضره بالعربي كما يسمعها. وبدأنا بألف باء التهجئة باللغتين الإنكليزية والعربية في نفس الوقت. وكان في أغلب الأوقات يستعين بي كي أكتبها له. ولم نكن لنكمل القسم المتعلق بالولايات المتحدة والدول الأجنبية التي زرتها إلا بشق الأنفس. وعندما جاء دور المعلومات الشخصية تمنيت لو نعود إلى المعلومات حول الأماكن والمدن الأجنبية. وذلك لأنه أعاد لي نفس قصة أم حسان وأم غسان التي كان قد أتعبني بها الموظف الشاب في فرع فلسطين. وعندما سألني من هو زوج **ميسون**، شقيقة زوجتي ليلى، قررت أن أُلطِفَ الجو واستخدم معه الدعابة حتى أهرب من شدة الحر في الغرفة وأسلوبه البطيء والممل، فقلت له: "ميسون ما تزال عزباء، إذا حواليك شي عريس." فسقط القلم من يده فوق الملف السميك للمحضر. وأرخى شفته السفلى ونظر إليَّ بنظرة تَفرُسّ وأطلق ابتسامةً خفيفة، لكنها كانت طويلة. وقال: "وهي كمان بتعيش معكم في الولايات المتحدة ولديها جنسية أمريكية"، سأل مُستفسراً. فأومأت برأسي بالإيجاب. عَدّلَ من جلسته على الكرسي وقال: "والله عنا ها الولد، إبني، أخذ بكلوريا السنة ومغلبنا بدو يدرس برة ومش عارفين شو نسوي له." وسألني كم عمرها. وقبل أن أفاجئه بأن عمرها 37 عاماً ويستنتج بانها لا تصلح لولده الذي عمره يعادل نصف عمرها، أنقذنا من الاستمرار في هذه اللعبة مدير الفرع عندما دخل علينا ليقول له: "شو إلي بعدك عم تسويه، صار لكم زمان. يا الله إلى أخذته بكفي. اقفل لي ها الملف واعطيني إياه حتى أوقع عليه." والتفت إليَّ وقال: "وقع أنت له عليه." ووقعت على الملف. وشكرت "الصديق" المُحقق "مدون المعلومات"، وودعته. وكذلك شكرت مدير الفرع وودعته. وخرجت من الفرع.

وكان ملفي في فرع الأمن السياسي في السويداء هو أخر ملف لي كان لا بد أن يُطوى حتى تتم تسوية وضعي، كما قالوا. وبهذا عُدتُ كما كنت مواطنا سوريا ككل المواطنين. وفي اليوم الثاني ذهبنا إلى امتان، والتي كنت في غاية الشوق لرؤيتها. فهي مسقط الرأس وملعب الطفولة، ومخزن الذكريات، وفيها دار الأجداد. وعند مدخلها كان بانتظارنا مجموعة من الأصدقاء وأهل البلد. فوقفنا أمام نصب

الشهداء الذي تم إنشاؤه بغيابي. فوضعت عليه إكليلاً من الزهور كنا قد أحضرناه معنا من السويداء. وهنا وجدت الفرصة المناسبة لتقبيل نصب الشهداء وأرض الوطن معا. ففعلت، ولم أعد نادما على أنني لم أستطع أن اقبل أرض الوطن في المطار أول ما وصلت إلى سورية. فأية بقعة من أرض الوطن هي جزء لا يتجزأ منه. ولن أجد بقعة أعز على قلبي من امتان لأقبلها. وكذلك لن أجد رمزاً أكثر قدسية من نصب الشهداء لألثمه في هذا الوطن. ووصلنا إلى الدار التي ولدث ونشأت فيها. وكان في مقدمة المستقبلين والدي ووالدتي وأهل الدار والأقارب والجيران وبعض الأصدقاء. فَرِحتُ جداً بدخول الدار بعد كل هذه السنين من الغربة. لكنني شعرت بألم عميق هز أوتار نفسي بقوة. وذلك لأن جدي وجدتي كانا قد رحلا إلى دار الآخرة قبل أن يتسنى لهما استقبالي في هذه الدار التي كانا قد ودعاني منها عندما سافرت. وبعد مضي يومين على وجودي في أمتان، أقام والدي حفلة غداء كبيرة علي شرف عودتي حضرها جمعٌ غفير قُدر بعدة مئات. وكنت مسروراً جداً وممتنا لكل أهل امتان، وكل من حضر. وكل من تجشم عناء السفر من خارج امتان وجاء ليشاركنا فرحنا بهذه المناسبة. فشكرت جميع الحضور، وصافحتهم واحداً واحد. وكنت أحس بالفرح الصادق والأمل الواعد في عيون كل فرد صافحته وشكرته. وهذا ما كان له وقعٌ عظيمٌ لديّ. لكن شخصاً واحداً ترك وقعاً مميزاً في نفسي وظل مُلتصقا في وجداني، ولن يفارقه طالما حييت. وهو أحد أبناء القرية من الذين وِلدوا بغيابي. وكان مصاباً بنوع من الشلل الذي أقعده عن الحركة. وجاء على كرسيه المتحرك ليسلم عليَّ ويشارك بالمناسبة. وكان لا بد أن يجد عدداً من الأشخاص كي يحملوا كرسيه المتحرك ويصعدوا به درجين كي يصل إلى الطابق الثالث حيث كُنتُ في المضافة مع الزوار. منظر لم يفارق مخيلتي قط. وأول ما شاهدته وهو يحاول أن يصعد الدرج الثاني هو وزملاؤه، نزلت إليه مسرعاً. وكان رأسه يستحق مني القبلة المُهمة الثانية، بعد أرض الوطن ونصب الشهداء. أما القبلة الكبيرة الثالثة فطبعتها على رأس الضيف الذي كان قد زارنا في الولايات المتحدة قبل سبع عشرة عاماً. وكان قد جاء ليُسَلِم عَليّ. وكان يبدو عليه تقدم العمر. وكان على ما يبدو لديه بداية فُقدانٍ في الذاكرة. والتي كانت تأتي وتذهب، كما شعرت. بَقينا أنا وهو ننظر إلى بعضنا البعض بشغف دون كلام لفترة امتدت لعدة دقائق. وكان يبدو وهو يحاول جاهداً ليتذكرني. وأنا كنت أحاول كُلَّ جهدي التكلم معه لأُذكرهُ بنفسي. لكنه، ومع الأسف، انتهت المحاولات جميعها دون جدوى. فودعته مُضطراً، وكانت الدموع تترقرق في عينيه. ومَضيتُ أنا إلى مكان آخر كي أُخفي دموعي الحارقة، والتي كانت قد بدأت تخذلني. كم كنت أتمنى لو أسمع رأيه حول سقوط بغداد واحتلال

العراق، وإعدام صدام حسين، ومدى وتأثير هذا الوضع على مستقبل سورية والمنطقة. وهذا ما كان يُقلقني كثيرا في تلك الفترة.

وبعد أن أمضيت حوالي عشرة أيام في امتان، كان لا بد لي من الذهاب إلى دمشق قبل يومين أو ثلاثة كي أتحَضّر للسفر، والعودة إلى الولايات المتحدة. وأنا في طريق العودة إلى دمشق مَررتُ بدائرة النفوس في مدينة صلخد، والتي كنت قد حَضرت إليها قبل أكثر من ستةٍ وثلاثين عاماً لاستصدار أول هوية شخصية. وفيها استبدلت هويتي القديمة المثقوبة بهويةٍ جديده. وكان الأمل يحدوني بالعودة إلى سورية مرة ثانية.

على اليمين مدخل امتان، وعلى اليسار نصب الشهداء في الساحة العامة لامتان البلد

الساحة العامة في وسط امتان، ويظهر فيها نصب الشهداء حيث قبلت أرض الوطن،

ويظهر أيضاً العامود الذي جلس بجانبه جدي عواد الحمد "بايع الملح" قبل 80 عاما"

المدخل الرئيسي لدار الأجداد في امتان، والتي تم هُدمت ثلاث مرات من قبل المستعمرين العثمانيين والفرنسيين،

وفي كل مرة كان يصار إلى إعادة إعمارها وتجديدها بأحسن مما كانت عليه.

مبادرة الأجيال

كان أول شيءٍ فعلته عندما وصلت إلى الولايات المتحدة بعد العودة من سورية هو تقبيل رأس أبنتي لميس. وشكرتها على سؤالها الذي جعلني أُفكر ملياً ولأول مرة في حياتي حول مفهوم الوطن والمواطنة. فكيف كان لعقلي أن يستوعب وطناً لم يستوعبني، وكيف يدخل قلبي وطنٌ لا أستطيع دخوله. وكان هذا ما دعاني إلى إطلاق مبادرة العودة إلى سورية، والتي أطلقت عليها اسم **"مبادرة الأجيال"**. وأخبرت لميس كم أنا فخور بها وبجيلها الواعد الذي ستقع على عاتقه مهمة إكمال المشوار. كما وسافرت لاحقاً إلى العاصمة واشنطن وزرت السفارة السورية خصيصاً لأتقدم بالشكر إلى السفير والشخص الذي كان قد تابع تفاصيل عودتي. وبحق، لقد كان لدعمهما الاستثنائي والصادق الفضل الأكبر في تحقيق وتسهيل عودتي إلى الوطن. وكانا قد بذلا كل ما في وسعهما كي تسير الأمور بسلاسة، ودونما مشاكل. وبحيث بقي هذا الشخص النبيل على التلفون في واشنطن، مع أخي كمال في مطار دمشق ومع السفير الذي كان يقضي إجازته في تركيا، وإلى أن خَرجتُ من المطار وتأكدا من ذلك بنفسيهما. لم أكن أعلم على وجه الدقة فيما إذا كان الرئيس بشار الأسد في حينها قد اطلع على رسالتي وجاوب أبنتي لميس على سؤالها بإعطاء تعليماته لجهة ما بعودتي إلى الوطن، أو أن السفير قد أعلمه بمضمونها وهو حوله إلى جهة ما للتعامل مع القضية. ولم أكن أعلم أيضاً لماذا تأخر القرار ثلاث سنوات حتى تم تنفيذه، وهو من المُفترض أن مصدره كان رئيس الدولة. وبغض النظر عما جرى، عندما وجهت لميس سؤالها لي، كانت قد وضعتني أمام امتحان صعب. فقطعتُ العهد على نفسي بأن أفعل كل ما بوسعي لتمكينها هي وشقيقتها، ابنتي الصغرى لينا، من زيارة وطني الأم سورية للتعرف على أهلي ومسقط رأسي. وأن تتعرفا أيضاً على تراث الإباء والأجداد. ولكي تبقى صلة الوصل هذه قائمة لأجيال لاحقة قدر المستطاع. ولهذا، في صيف عام 2010، قررت السفر ثانية إلى سورية مع وفد المغتربين، والذي أصبح متيسراً لي بعد طي الملف وتسوية الوضع. واصطحبت معي في هذه الزيارة **لميس ولينا**. وبالحقيقة، كانت هذه الزيارة مُخصصة لهما، وأنا من ذهب برفقتهما. وكانت أيضا زيارة موفقة. فرحتا بها بشكل كبير. وكانتا سعيدتين بالتعرف على أهلي ومسقط رأسي في امتان، التي أحباها أكثر من أي مكان آخر. هذا وبالرغم من أنها قرية ليست بالكبيرة ولا توجد فيها البهرجة التي عادة تلفت أنظار الشباب. كما وزارتا المدارس التي كنت أنا ووالدتهما قد انتسبنا إليها في دمشق قبل خروجنا من سورية. كما وصعدتا مع أولاد العمومة إلى قمة جبل قاسيون في دمشق. وذهبتا إلى سوق الحميدية الأثري، وأكلتا من بوظة

بكداش الشهيرة. بقيتا عشرة أيام في سورية. وتعلمتا خلالها اللغة العربية بقدر ما تعلمتاها منذ ولادتهما. وفور العودة، قررنا أن نحاول تَدُبرَ أمور زوجتي ليلى وتسوية أوضاعها، ونسافر جميعنا إلى سورية كعائلة في صيف عام 2012. لكنه وبعد وصولنا إلى الولايات المتحدة بحوالي شهرين ونيف، أحرق محمد البوعزيزي نفسه في مدينة سيدي بوزيد في تونس وأشعل بجسده ثورات ما عرف بالربيع العربي. وعندما بدأت هذه الانتفاضات الشعبية الشبابية تتوسع لتشمل مصر وليبيا واليمن، استبشرت بها كثيرا واعتقدت بأن فجراً جديداً للتغيير قد بزغ، وإن شمس الحرية قد سطعت في سماء المنطقة بأسرها. وكنت في زيارتي الأخيرة لسورية في عام 2010 **مُتيقنا بأن تمرداً شبابياً من نوعٍ ما كان حتمياً،** بالرغم من كل ما كانت توحيه المعطيات العامة باستحالة قيامه. وذلك لأنني كنت أرى ذلك واضحاً في عيون وملامح الشباب أينما ذهبت وكيفما اتجهت. حيث كانت تبدو عليهم علامات الإحباط واليأس وفقدان الأمل. فمعظم من قابلته وشاهدته من الشباب كان بلا عمل، ولا أمل له بمستقبل قريب. وذات مرة كنت في زيارة لبيت أحد الأصدقاء المقربين والمعروفين بوطنيته وإخلاصه. وفي معرض الحديث، سألني باستغراب عن سبب تعلقي الشديد بالوطن بالرغم من غربتي الطويلة. فكان ردي عليه: **"ببساطة، لأنه لديَّ حصة في هذا لوطن ولا أستطيع التخلي عنها لأحد."** فاستهجنت ردي هذ ابنته الشابة، التي كانت تجلس معنا وتصغي إليَّ بصمت وترقب. وما أن فَرِغتُ من كلامي، حتى قالت لي بمرارة: **"وما رأيك أن أعطيك أنا كل حصتي في هذا الوطن مقابل أن تعطيني قليلاً من حصتك حيث أنت."** وهذا ما كان قد عزز القناعة عندي بأن هذا اليأس والإحباط لدى الشباب لم يعد مقتصرً على مجموعة أفراد، وإنما أصبح ظاهرة مجتمعية متفاقمة ستؤدي في النهاية إلى الانفجار. وبالفعل بدأت الثورة السورية بانتفاضات شبابية عارمة بعد أقل من عام، في 15 أذار 2011، كنتيجة حتمية لهذا الواقع المرير. وما أن اختار الشعب في سورية قراره بالثورة، لم يعد لديَّ من خيار إلا الانحياز للشعب، وبغض النظر عما كان سيترتب على هذا الخيار من نتائج. فما حققه الشعب السوري في هذه الثورة كان ضرباً من ضروب المستحيل إلى وقت قريب، وهذا ما دعاني لأن أطلق عليها، ومنذ اليوم الأول، اسم **"ثورة المستحيل."** هذا وبالرغم من كل ما جرى في سورية وما آلت إليه الأمور هناك، مازال يحدوني الأمل بالعودة إليها يوماً ما ولو في زيارة أخيرة وأن يكون قد استقر الوضع فيها، وأن أكون بصحبة زوجتي وبناتي، ولربما أحفادي. **ولعَلها تستمر بذلك مبادرة الأجيال من بعدي.**

حمود الشوفي

شهيد الحرية الذي سقط من غير دماء

كان حمود الشوفي واحداً من رجالات سورية المعدودين، واسما بارزاً تردد في المحافل العربية والدولية. كان مناضلاً عنيداً، وقائداً حزبياً متميزاً، وسياسياً محنكاً، ودبلوماسياً عتيداً. ولد في مدينة صلخد من محافظة السويداء السورية عام 1936. نشأ في سورية وتعلم في مدارسها، وتخرج في جامعة دمشق في عام 1960 بعد حصوله على إجازة البكالوريوس في الأدب العربي. بدأ حياته السياسية بالانتماء إلى صفوف حزب البعث في عام 1951 وهو ما يزال في المرحلة الإعدادية. سُجِنَ في عهد الرئيس أديب الشيشكلي في عام 1954 بسبب التظاهر ونشاطه السياسي المعارض. وكان له دور مميز في إعادة بناء حزب البعث بعد حَلّه في عام 1958 تجاوباً مع مطلب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في حينها كشرط لقيام الوحدة بين مصر وسورية. هذا وبالرغم من تحفظه على قرار حل الحزب، كان حمود الشوفي من أشد المتحمسين لفكرة الوحدة والمناصرين لها. ولهذا قام لاحقا بعدة نشاطات ضد سلطة الانفصال التي أطاحت بالوحدة في عام 1961. أُنتخب حمود الشوفي أميناً قطرياً لحزب البعث في سورية في أول مؤتمر للحزب بعد حركة 8 آذار عام 1963 وهو ما يزال في السابعة والعشرين من عمره. وبعد أقل من سنة، في عام 1964، استقال من منصبه احتجاجا على تسلط الجيش على الدولة

ومحاولته مصادرة قرارات الحزب وتجييرها. فطلبَ منه رئيس الدولة في حينها الفريق أمين الحافظ أن يغادر سفيراً إلى إندونيسيا خوفاً عليه من بطش المجموعة العسكرية المتنفذة، والتي كان يقودها اللواء صلاح جديد، وكان في عضويتها حافظ الأسد. بقي حمود الشوفي سفيراً في إندونيسيا لمدة خمسة أعوام، ومن ثم أُرسل سفيراً إلى الهند. بقي في الهند إلى أن استدعاه حافظ الأسد عام 1972 بعد أن أصبح رئيسا للدولة في مطلع عام 1971. حيث حاول في البداية استمالته واحتوائه، وذلك بتسليمه إما قيادة الحزب أو وزارة الخارجية. إلا أن هذا لم يحصل، وذلك بسبب التباين الكبير في توجهات الرجلين. فتم الاكتفاء بتعيينه رئيسا لدائرة أمريكا في وزارة الخارجية. بقي في هذا الموقع بين عامي 1972 و1978 إلى أن أُرسل سفيراً لسورية في الأمم المتحدة عام 1978. لكنه سرعان ما أستقال من منصبه في عام 1979 ليشكل مع معارضين سوريين آخرين «التحالف الوطني لتحرير سورية»، والذي ضم طيفاً واسعاً من الأحزاب والمنظمات والشخصيات الوطنية السورية المعارضة آنذاك. وكان هدفه الأساسي إسقاط النظام الأمني في سورية واستبداله بنظام ديمقراطي يستند إلى التعددية السياسية وتداول السلطة. حيث جاء هذا الهدف متجاوبا مع ما كان قد بدأه حمود الشوفي في عام 1964. لقد أغضبت فكرة التحالف الوطني لتحرير سورية الذي دعا له حمود الشوفي النظام الحاكم في سورية بشكل عام، وحافظ الأسد بشكل خاص. فحُكِمَ عليه بالإعدام غيابيا عام 1979. تعرض بعدها لعدة محاولات اغتيال، وبقي في المنفى إلى أن أدركته المنية في الثالث عشر من نيسان من عام 2011 في الولايات المتحدة حيث كان يقيم مع زوجته وأولاده وأحفاده.

عندما خرج حمود الشوفي لآخر مره من الوطن لم يخرج الوطن منه، بل بقي حياً فيه. يحمله معه أينما ذهب ويضعه نصب عينه أينما اتجه. كان يذكره صباح مساء إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة. لقد قضى وهو يحلم بعودة كريمة ومشرفة إلى وطنه سورية، وكان يأمل دوماً أن يكون الوطن مثواه الأخير. وعندما بدأت ثورات الربيع العربي، استبشر ببزوغ فجر الحرية في الوطن العربي وبتحقيق الجماهير العربية للأهداف التي طالما ناضلت وضحّت من أجلها الغالي والنفيس. وكان للثورة السورية في نفسه وقعٌ مميز. حيث إن النظام الذي طالب أطفال درعا بإسقاطه في منتصف آذار من عام 2011 هو امتداد لنفس النظام الذي طالب هو بإسقاطه في عام 1964، وكان حينها في عمر لا يزيد عن أعمارهم بالكثير.

التقيت حمود الشوفي لأول مرة عام 1979 على هامش مؤتمر الشعب العربي الذي انعقد في بغداد، وكان اللقاء في بيت ابن عم والدي شيخ المعتقلين، المناضل والمفكر الأستاذ شبلي العيسمي. وعدت والتقيته عدة مرات بعدها في الولايات المتحدة، وذلك قبل أن أتزوج من كريمته الدكتورة ليلى في عام 1992. وحينها عرفته عن كثب. عرفته رجلاً ذكياً وجريئاً، ذا مواقف راسخة ورؤية واضحة. قد يختلف معه الآخرين في الرأي، إلا أنهم لا يستطيعون إلا أن يحترموا رأيه. وقد يختلفون معه في التحليل السياسي، إلا أنهم يُقدرون وضوح رؤيته. رافقته بشكل شبه يومي في المرحلة الأخيرة من حياته، والتي استمرت لثلاثة أشهر ونيف بين تشخيص إصابته بسرطان الرئة ووفاته. كنت أتابع معه كل يوم تطورات ثورات الربيع العربي. كنا نتبادل الأخبار ونحلل المعطيات يوماً بيوم لثورتي مصر وليبيا اللتين كانتا حاميتين في حينها. وذلك بعد خلع الرئيس حسني مبارك واستلام المجلس العسكري بقيادة المشير طنطاوي للسلطة في مصر. وأيضاً بعد بدء العمل العسكري لإسقاط الرئيس معمر القذافي في ليبيا. وفي صبيحة الخامس عشر من أذار كان ينتظرني لمرافقته إلى أخر جلسات العلاج الكيمياوي. وبعد أن ألقيت عليه الصباح، سألته كالعادة فيما إذا كان قد سمع الأخبار. فقال: لا، ما الجديد اليوم؟ فأجبته على عجل: لقد بدأت اليوم "ثورة المستحيل". وما أن سمع ما قلته حتى وضع أنبوبة الأوكسجين التي كانت بيده على الأرض. وأخذ شهيقاً عميقاً منها، ثم رفع رأسه ونظر إليَّ بثبات. وكان وجهه قد اكفر وتحذقت عيناه تحت نظارتيه، وقال بصوت متهدج: أتقصد سورية. فأجبته: نعم هي بعينها. فأطرق قليلا، ثم عاد ونظر إليَّ وأخذ نفسا عميقا من جديد. وكانت ملامحه تشير بانفعال مختلط. كان يبدو وكأن الزمن قد عاد به نصف قرن إلى الوراء وأعاده بسرعة ليتعايش مع اللحظة. فأرتسم على محياه ما هو مزيجٌ من الفرح والألم. وجالت في عينه نظرات من التفاؤل الحذر، وقال: الثورة السورية كانت حتمية، لكنها استعجلت، وستكون طريقها طويلة وشائكة. فالوضع في مصر لم يزل غير محسوم. ووضع الثورة في مصر سيكون له تأثيره المباشر على وضع الثورة في سورية. وبالرغم من التقارب بين طبيعة النظامين في ليبيا وسورية والتي تؤكد على أن النظام السوري سيستخدم الحل لأمني كما فعل النظام الليبي، لكن سورية ليس فيها نفط مثل ليبيا كي يستدعي تدخل المجتمع الدولي فيها. كما وإن إسرائيل ستكون معنية بالدرجة الأولى بأي تغيير في سورية. ومعظم الأنظمة العربية والإقليمية والدولية لن تكون في صالح الثورة السورية. لكنه أردف قائلاً: إن إرادة الشعوب تنتصر في النهاية. أنه لمن دواعي الأسف أن يرحل حمود الشوفي (أبو العربي) إلى العالم الآخر قبل أن يرحل النظام السوري ويتسنى له تحقيق

الهدف الذي نشده قبل خمسين عاما، والرجوع إلى وطنه بعد طول نضال من أجل الحرية وتشرّد في أصقاع المنافي. إلا أن العزاء يبقى بروحه التي صعدت إلى الرحاب العليا وهي مطمئنة بأن صدى صوته المطالب بالحرية كان ما يزال يتردد قويا في معظم ساحات الوطن هاتفا «الشعب بدو حرية». ذلك ما يجعل منه "شهيداً للحرية" يسقط من غير دماء. فهو من عرف الطريق إلى الحرية منذ نعومة أظفاره، وسلكها طوال حياته، ودفع لها من عمره سجناً وتشرداً وملاحقه، وحكماً بالإعدام. وهو من آمن دوماً بطاقة الشباب المتفجرة، وبدور الجماهير وقدرتها على التغيير والوصول إلى الحرية مهما طال الزمن وعزت التضحيات*

*مقالة في الذكرى الثالثة لرحيله بعنوان: "حمود الشوفي: الثورة السورية كانت حتمية، لكنها استعجلت وطريقها سيكون طويل وشائك." نُشرت على موقع كلنا شركاء بتاريخ 13 نيسان، 2014 بمناسبة الذكرى الثالثة لرحيله.

شبلي العيسمي

أخافهم حضوره، فغيبوه

"من الذي سيتعرض لي بالسوء وأنا في مثل هذا العمر. وإذا ما حصل لي من مكروه، فلي بسعر بقية الناس." كان هذا هو رد الأستاذ شبلي العيسمي على استفساري فيما إذا كان سيتعرض للخطر بذهابه إلى لبنان بعد أن اندلعت الثورة السورية في منتصف أذار عام 2011. وكان ذلك عندما تلقيت اتصاله الكريم ليودعني قبل سفره عائدا إلى لبنان في 21 أيار 2011، وبعد أن أمضى هو وزوجته وقتا مع أولادهما المقيمين في الولايات المتحدة. وبالفعل لم يمض على وصولهما إلى لبنان أكثر من ثلاثة أيام حتى تم اختطافه في 24 أيار 2011 من مدينة عاليه. ولا بد من أن الذي اختطفه كان يتقصده، وراقب تحركاته منذ لحظة وصوله إلى مطار بيروت. حيث أُختطف وهو يمارس رياضة المشي التي إعتاد عليها معظم حياته. ولا بد بأن الذي خطفه كان لديه الأوامر بنقله إلى سورية ليصار إلى اعتقاله هناك.

لم يكن ليخطر ببال الأستاذ شبلي العيسمي أبدا بأنه سيعود يوماً إلى سورية معتقلا كما خرج منها قبل خمسة وأربعين عاماً. بل كان يأمل دوما أن يعود إليها حراً طليقا بعد أن تتحرر من النظام الذي اغتصب السلطة فيها بقوة السلاح، ووضعه رهن الاعتقال. حيث تم اعتقاله في سورية بعد انقلاب 23 شباط عام 1966 من القرن الماضي. وكان في حينها يشغل منصبي نائب رئيس الجمهورية العربية السورية

والأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي. فجرده الانقلابيون العسكريون (بقيادة صلاح جديد وحافظ أسد) من صلاحياته هو ورئيس الدولة في حينها الفريق محمد أمين الحافظ وبقية أعضاء القيادة التاريخية للحزب. وتم اعتقالهم جميعا باستثناء الأستاذ ميشيل عفلق الذي كان مسافراً في حينها خارج سورية. ولكن الأستاذ شبلي ومعظم المعتقلين القياديين الذين كانوا معه تمكنوا لاحقا من الفرار، ووصل معظمهم إلى لبنان. حيث كان لبنان في حينها المكان الآمن الذي يلجأ إليه السياسيون والمثقفون العرب الذين لا يستطيعون ممارسة نشاطهم السياسي والثقافي بحرية في بلدانهم. بقي في لبنان إلى أن قامت ثورة البعث في العراق عام 1968، فذهب إليه. وفي العراق أُعيد انتحابه لمنصب الأمين العام المساعد لحزب البعث، والذي بقي فيه لغاية عام 1992 حيث قرر عدم إعادة ترشيح نفسه للمنصب من جديد. فتفرغ للكتابة، وبقي مقيماً في العراق إلى أن دخلته القوات الأمريكية عام 2003. فذهب بعدها إلى مصر حيث كان يقيم أبنه الأكبر بشار. وبعد انسحاب القوات السورية من لبنان في عام 2005 بقرار مجلس الأمن رقم 1559 على أثر اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، ذهب شبلي العيسمي ليستقر في لبنان حيث تسكن ابنته الكبرى رجاء في عاليه. ولكن لبنان الذي عاد إليه شبلي العيسمي هذه المرة لم يكن هو نفسه لبنان الذي التجأ أليه في عام 1966. فلبنان اليوم هو بلد مُستباح تحكمه توافقات دولية وإقليمية هشة. وتتمدد فيه أذرعة إيران الاخطبوطية، وتحكمه القبضة الأمنية السورية. وبالرغم من انحسار الدور السوري في لبنان بعد انسحاب القوات السورية منه، إلا أن التحالف السوري الإيراني مع حزب الله مكنهم من فرض الوضع الأمني الذي يريدون وتوجيه مسار القرار السياسي فيه بما يخدم مصالحهم. والتي تتعارض بمجملها مع مصالح لبنان وشعبه الذي قام بثورة الأرز في عام 2005 لإخراج القوات السورية ورفض التبعية. كما وتتعارض مع مصلحة الشعب السوري الذي قام بثورته في عام 2011 لتغيير الواقع المستشري في سورية، والتي طالبت بالحرية والكرامة وبناء الدولة الديمقراطية التعددية المنفتحة على محيطها. وليست الدولة المستبدة المتسلطة، والمتنكرة لحقوق وحرية شعبها وشعوب المنطقة. فحرية سورية واستقلالها كجزء من استقلال وحرية المنطقة العربية هو ما كان شبلي العيسمي قد آمن به طوال حياته، وناضل من أجل تحقيقه على مدار نصف قرن من الزمن. وتحمل من أجله الاعتقال والحكم بالإعدام، والنفي والاغتراب عن الوطن الذي أحب. ولم يكن ليدر بخلده بأنه سيأتي اليوم الذي يُسجن فيه مرتين من قبل ممن يَدّعون تمثيل حزب البعث، الحزب الذي كان هو نفسه قد شارك في تأسيسه مع الأستاذين ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار. وأيضا لم

يكن أحد ليعتقد بأنه سيأتي اليوم الذي يُجرّد فيه شبلي العيسمي من حريته في البلد الذي شارك والده، المجاهد يوسف العيسمي، بحصوله على حريته. وذلك عندما كان الناطق الرسمي باسم الثورة السورية الكبرى، ثورة 1925 التي قادها سلطان باشا الأطرش، وطردت الاستعمار الفرنسي عن أرض سورية، وحققت لها الجلاء في 17 نيسان عام 1946. هذا وبالرغم من أن هموم شبلي العيسمي وآماله امتدت لتشمل الوطن العربي بأكمله، بقي تركيزه مُنصبا على سورية التي طالما اعتبرها قلب العروبة النابض ونقطة الانطلاق المركزية لأي مشروع عربي وحدوي. وكان يأمل دوما بأن يعود إلى سورية ليعيش فيها بقية حياته كما بدأها بحرية وكرامة. إلا أن الأقدار شاءت أن يعود إليها مخطوفا من لبنان الذي لجأ إليه يوما بحثا عن الأمان.

لا بد وإن شبلي العيسمي قد نُقل قسرا من لبنان إلى دمشق في عربة تابعة للأمن. فهل يا ترى تسنى له أن يلمح من نوافذ العربة دمشق التي أحبها وعرفها يوما مدينة جميلة يحتضنها قاسيون بشموخه وتنفرش أمام قدميها الغوطة سجادة خضراء يفوح منها عطر الياسمين. أم هل كان معصوب العينين، ولم يستطع أن يرى شيئا. ولكن هل سمع شيئا يذكره بأغنية دلال شمالي التي أحبها:

من قاسيون أَطلُ يا وطني فأرى دمشقَ تعانقُ السُحبا

نيسانُ يدرجُ في مرابِعها والمجدُ ينثـرُ فَوقَها الشُهبا

هذا وبالرغم من إيمانه بأن الثامن من أذار الذي كان من المفترض أن يكون فجراً لثورة حضارية تعيد سورية إلى الدولة البرلمانية والحياة الديمقراطية، صادرها العسكر وجردوها من مضمونها وأوصلوا البلاد إلى ماهي عليه اليوم. وما الذي يا ترى كان يدور أيضاً في مخيلة شبلي العيسمي وعربة الأمن تقله مُقيداً عبر شوارع دمشق، الشوارع التي سلكها يوما بحرية، ومشاها بزهو وكبرياء. وذلك عندما كان طالباً ومناضلا شابا يمارس العمل السري في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي. أو بعد أن أصبح قائدا حزبياً وسياسيا يمارس نشاطه بالعلن في مطلع الستينيات. ولذلك لا بد أن يكون له في دمشق أماكن بعينها قد أحبها، وتمنى رؤيتها عندما يعود إليها بعد طول غياب. فهل صدف يا ترى بأن كان أحد الشبان المكلفين بمراقبته قد سمع باسمه من قبل عن طريق أبيه أو جده، أدرك معنى هذا الحنين إلى الوطن في نفس شبلي العيسمي. فتجرأ على تيسير أمراً ما ليحقق له فضولاً شخصياً ورغبة إنسانية

ملحة باختلاس ولو نظرة لمعلم من معالم البلد الذي طالما هيمه عشقه وهو فيه، وأضناه فراقه عندما ابتعد عنه. كثيرة ومتزاحمة هي الاسئلة التي تدور في الذهن حول ما يمكن أن يفكر به شبلي العيسمي عبر مراحل اختطافه واعتقاله، وكذلك حول مصيره. فقضية اختطافه واعتقاله ليست مجرد قضية فرد بعينه، وإنما هي رمز لقضية شعب بأسره يُختطف ويعتقل ويقتل. ووطن بأكمله يُستباح ويُدمر. وثورة إنسانية تآمر عليها العالم وتناساها. لقد خُطف شبلي العيسمي وأعتقل مع بداية الثورة السورية، ثورة الشعب الذي طالب بالحرية والكرامة، والغد الأفضل للأجيال القادمة. حيث إن شبلي العيسمي بقي طوال حياته منحازاً للشعب، ومؤمنا بدور الجماهير، ومتفائلا بقدرتها على التغيير. وبالحقيقة، كان متأكداً من أن التغيير قادم لا محاله. ولكنه في نفس الوقت، كان يدرك حجم العقبات التي قد تقف في طريق هذا التغيير، ومدى التآمر الذي يمكن أن تتعرض له أية ثورة قد تقوم في سورية. وكان مثله على ذلك ثورة الثامن من آذار التي يعتبرها أول ضحايا هذا التآمر. وما وصلت إليه البلاد اليوم ليس إلا دليلاً واضحاً على كم هذه العقبات وحجم هذا التآمر الذي كتب عنه شبلي العيسمي مطولاً ومفصلاً في عدة مؤلفات. فشبلي العيسمي عرف ماضي سورية عن كثب، لأنه كان جزءاً منه. وأدرك مستقبلها برؤيته المستنيرة والمستندة إلى تجربة عميقة ومريرة. فهو بعثي أصيل، ومبدئي دونما تعصب. وهو عربي ووحدوي دونما تردد، ولكن دونما اندفاع أوغلوّ. وإيمانه بالحرية والديمقراطية إيمان مطلق. ويؤمن بالنقد والنقد الذاتي كوسيلة أساسية للتجدد والتطور. حيث لم يتوان يوماً في انتقاد تجربة حكم البعث في كل من سورية والعراق حتى في الفترة التي كان هو مسؤولاً فيها. وبهذا بقي طوال حياته ثابتا على القسم الذي أقسمه لحزبه، وعلى العهد الذي قطعه لوطنه وأمته. مفكر عربي عميق، له العديد من المؤلفات في التاريخ والفكر والدين. ثلاثة أعوام مضت على اختطافه، وما يزال مصير شبلي العيسمي مجهولا كمصير الوطن. فإن كان ما يزال على قيد الحياة رهن الاعتقال، فهو قد جاوز اليوم التسعين من عمره. وبهذا يستحق وبجدارة الاحتفاظ بلقب شيخ المعتقلين. وإن كان قد قضى في السجن، فله، كما قال، بسعر بقية المناضلين الذين قضوا في سجون النظام. ويكون بذلك قد انضم إلى قوافل الشهداء الذين سقطوا على طريق الحرية وروووا تراب الوطن بدمائهم الزكية. ويبقى نبراساً لأمل*

---

* في الذكرى الثالثة لاختطافه، ويبقى شيلي العيسمي نبراساً للأمل. مقالة تنُشرت على موقع كلنا شركاء في 24 إيار، 2014.

رحيل والدي

في 19 تشرين الثاني عام 2014 توفيَّ والدي ولم أستطع السفر إلى سورية لرؤيته قبل وفاته. وكان هذا وضعاً مؤلماً بالنسبة لي استرجع في نفسي أيام المنع القديمة عندما توفي جدي وأنا ما أزال في أول غربتي في الولايات المتحدة. **وداعاً يا أبي:**

رحلت أيها الكادح المُكافح، والُمثابر المُكابر. لقد أمضيت حياتك بالكد والجد والاجتهاد. أمضيتها بالعمل والأمل، والتطلع الدائم إلى وضعٍ أفضل. كنت قويَّ العزيمة متماسك الشكيمة. وكنت صريحاً واضحاً كوضوحِ الشمس، ومستقيماً كخط الأفق. وكانت البسمة لا تفارق محياك السَمِوح. فتُزيّن وجهك الصبوح كما يُزيّنُ الضوءُ طلوعَ الفجر. كنت نقيَّ السريرة واسعَ الطوية، كريم النفس، صادق الكلمة، وحسن المعشر. كنت كتاباً مفتوحاً يقرأه الناس بسهولة ويسر. وكنت حنوناً ومُحباً، وكان حضورك يُبهِجُ المكان ويبعث في النفس الفرحِ والاطمئنان. كنت تحب الأسرة، والأهل، والأصدقاء، والوطن، وتعامل الناس بجب وتواضع. أحببت زوجتك (والدتنا) وأكرمتها إيما إكرام. ولم تكن تفرق بين صبيٍ وبنت من أولادك. فالكل كان لديك سواسية في التعامل الصادق والمحبة الغامرة والاهتمام. ولقد كنت من الَسبّاقين في جيلك ممن رفضوا مبدأ المهر لزواج الفتيات. وخالفت كل العادات المُورثة المُجحفة بعدم توريث البنات. فورثت بناتك على حياةٍ من عينك. كما وطال عطاؤك أحفادك من بعدك.

وداعاً، يا من كنت للبيت العُمدَ والطنبَ.

وفاة والدتي

ولم تمضِ ستة أعوام على وفاة والدي حتى توفت والدتي هي الأُخرى في 16 أيلول عام 2020. وكذلك لم يتسنَ لي وداعها، ولا حتى المشاركة في تشييعها. فاستحضرت ما كنت أردده في نفسي بحلول عيد الأم في كل عام، ومنذ أن وصلت إلى الولايات المتحدة عام 1981 وبدأت الرحلة الحقيقية للغربة بعيداً عن الأهل والوطن.

أماه ومن خلفِ الأسوارِ أناديكِ

وعبر البحارِ أناديكِ، وعلى طولِ المدى أُناديكِ

إلى حيثُ يذهبُ الصوتُ ولا يرجعُ الصدى أناديكِ

في النهارِ وفي الليل أناديكِ، وفي الحلمِ أُعانِقُكِ وأقبّلُ أياديكِ

ولو كان اللقاءُ بالفداء، لفديتك ومن عمري أُعطيكِ

رحلت أمُ الكمالِ سيدة النساء وأخت الرجال. كانت امرأةً قوية بعزيمتها وإصرارها. واثقةً من صبرها ومثابرتها. شامخةً بكبريائها وعطائها. أحبت الناس وأحبها من عرفها. كانت إذا تحدثت أقنعت. وإذا قالت فعلت. وإن وعدت أوفت. وقفت إلى جانب زوجها، والدنا، في السراء والضراء. وتقاسمت معه

الحياة على مدى ثلاثة وستين عاماً بحلوها ومرها. وبَنيّا معا داراً وأنجبا ستة أولاد، ثلاثة صبيان وثلاث بنات. وعلى مدى العشرين عاما الأولى من زواجهما ملأت الدار بالأولاد والسجاد. وبحيث كانت تصنع على شرف كل مولود جديد منا سجادة جديدة. وبكل ما تعانيه المرأة في فترة الحمل والولادة. وبكل ما تحتاجه صناعة السجاجيد من جهد، ووقت، وإبداع، وأناة. ولقد ربتنا هي ووالدي وبكل ما تحتاجه تربية الأسرة وتعليم الأبناء من دراية، وصبر، وعناء. لقد عَمَرّت وثَمَرّت. ثابرت وأنجزت. لقد أصابت في حياتها وأخطأت. وفي مدرسة الحياة تعلمت وعلمت. وكالشجر طوال عمرها وقفت. وعندما تعذر عليها الوقوف، كالشجر سقطت. غرسة نَديةٌ في الأرض زُرِعت. وفي القلب ومضة متقدة بقيت. رحلت وماتزال صورتها في الذاكرة حاضرة ما رحلت. وداعاً يا أمي. وإلى جنان الخلد تمضين سيدتي. وليتقبلك الله في الفردوس الأعلى. وليجمعك بالوالد الذي لم يطل انتظاره للقياك واحتضانك. فأحضنيه وقبليه يا أمي. ولا تنسي أن تقريه منا التحية. ولترقد روحكما معا بسلام وحرية.

الوالدة في أرض الدار تقدم العنب الذي زرعته بنفسها للزائرين

الرحيل المُفاجئ لشقيقتي ميادة

لم يَمضِ أقَلُّ من عام ونصف على وفاة والدتي حتى توفى الله شقيقتي الصغرى ميادة في 10 آذار من عام 2022. والتي كان عمرها يزيد عن العامين بقليل عندما غادرت سورية عام 1974. وأصبحت خمسةً وثلاثين عاماً عندما عدت إليها لأول مرة عام 2007. وبهذا كانت هي الرمز الذي كان يُذِكرُ أهلي بطول غربتي، ويذكرني ببعدي عنهم. والتي كانت قد عاشت حياةً إنسانيةً صعبة من غير زواج وأطفال أو أسرة تخصها. فنذرت نفسها لخدمة والديها ورعتهما في كبرهما. وكنت أنتظرها أن تأتي إلى الولايات المتحدة بعد وفاة الوالدة. وذلك لكي تكون بالقرب مني، وأستطيع أن أعوض لها ما رافق حياتها من نقص وحرمان. وأن نتقاسم معاً ما تبقى لنا من حياة. فكان فراقها حزينا ومريراً عليّ.

وداعا يا شقيقة الروح:

مهلاً يا ميادة، مهلاً. علامُكِ يا حبيبتي تستعجلين الرحيل. فالعمر مازال في المنتصف. والحياة مازالت تليق بك. والطريق ماتزال فيها مسافة. والمشوار ما يزال طويلاً. وأنت الفرس والفارس، والمُهر الأصيل. كالشجر تموتين وقوفاً. وبسرعة تهاويت كما يتهاوى السنديان الشامخ، دون أن ينحني أو ينكسر. كالنسمة تسافرين عبر الأثير، وتتلاشى بعيدا في أرجاء الأفق. تاركةً خلفها ظلاً ظليل، وعطراً فواحاً ليس له مثيل. فلقد كنت بسمة وديعة على شفاه الأطفال، وفرحاً طفولياً يدخل النفوس بلا استئذان. كنت سنداً للمحرومين والمحتاجين وأماً لليتامى والمساكين. لا يعرف يسارك ما يقدمه بمينك. تُعطين

بلا مقابل ولا تبخلين. وتنبرين لعمل الخير دون تردد. والتضحية لديك كانت مبدأ وعقيدةً. أحببت الناس وأحبوك. وأَفنيتِ عمرك في البذل والعطاء وإسعاد الآخرين. وكنت تهكلين هم الجميع. وتهتمي بالكل على حد سواء، صغاراً كانوا أم كبارا. وكنت تتابعين كل صغيرة وكبيرة بوعي ومسؤولية. ونَذرتِ نفسك لخدمة والديك عندما تقدم بهما العمر، ورَعيتهما في الكبر كما ربياكِ صغيرة. وكنت لهما الولد والسند، والملاذ الهانئ والحضن الدافئ. وعندما رحلا لم تستوقفك الحياة طويلاً. ولم يَغرِكِ التحرر من المسؤولية، فحافظت على عهدك لهما في ان تَبقي قريبة منهما في الدنيا والآخرة. ووعد الحر بالسبة لك دين. فها أنتِ اليوم تموتين حرة كما عشت. لا تطيقين الدين، وتردينه لأصحابه على عجل. وداعاً يا شقيقة الروح. لا يمكن أن ننساك ما حُيينا. وستبقين في النفوس ذكرى خالدة. وطيفاً يسكن الخيال. فلقد كنتِ يا أختي أمانة الوالدين لدينا. وشاء الله أن تعود الأمانة للوالدين. رفقاً بها أيها التراب فهي أغلى هدية لدينا نقدمها للأحباب الذين يرقدون في ثناياك. فلتمضِي إلى جنان الخلد، يا أختي. وليتقبلك الله في رحاب عليائه.

الوالدة، شقيقتي الصغرى ميادة، والوالد

جمعتهم الحياة ولم يفرق بينهم الموت. توفوا جميعا بغضون 8 سنوات.

التخرج في زمن الكورونا
لينا العيسمي قصة نجاح تُروى

منذ مطلع عام 2020، وعندما سجلت **لينا** على المادة الجامعية الأخيرة المطلوبة لنيل شهادة الدبلوم الخاص في اختصاص تربية وتعليم الأطفال الصغار (من الولادة إلى سن الثالثة)، وهي تُحصي الساعات وتعد الأيام وصولاً إلى يوم السادس من أيار. وهو اليوم الذي كانت الجامعة قد حددته لإقامة حفلة التخرج لطلابها لدورة عام 2020. واشترت لينا ال Regalia، أي روب التخرج الأسود الطويل والقبعة السوداء المربعة. والتي تتدلى منها شرابة تحمل رقما معدنيا رقيقا بلون ذهبي يمثل عام التخرج 2020. لكن صدمة لينا كانت كبيرة وخيبة أملها عظيمة عندما تلقت رسالة من الجامعة تُعلمها فيها بأن الحفلة لن تقام في 6 أيار، كما كان مقررا. وقد أتم تأجيلها إلى وقت غير معلوم بسبب تفشي جائحة كورونا. والتي كانت قد مُنعت بسببها كل التجمعات. لكن هذا التجمع بالنسبة ل لينا لم يكن ككل التجمعات. وهذه الحفلة ليست ككل الحفلات. فهي بالنسبة لها ليست مجرد احتفالية رمزية يجتمع فيها الطلبة المتخرجون في قاعة ضخمة مع أهلهم وذويهم. ويُدعوّنَ واحداً تلو الأخر للصعود إلى المنصة. وحيث يجلس رئيس الجامعة ومعه عمداء الكليات ورؤساء الأقسام وأعضاء الهيئة التدريسية. وعليها يتم تسليم الطالب المتخرج من قبل رئيس قسمه ورقة ملفوفة بشكل اسطواني محكم. ومربوطة بسوار أنيق في الوسط بلون الكلية. ومكتوب فيها: مبروك التخرج. يمكنك مراجعة مكتب التسجيل في التاريخ أدناه لاستلام الشهادة المُصدقة. وفي ختام الاحتفال يطلب رئيس الجامعة أو من ينوب عنه من الطلبة المتخرجين الوقوف. ويتلو عليهم مرسوم الجامعة الرسمي بتخريجهم. ومن ثم يطلب منهم أن ينقلوا الشرابة من الجهة اليمنى للقبعة إلى الجهة اليسرى. والدلالة الرمزية لهذه الخطوة بأن الطالب قد انتقل من وضع لوضع آخر. وبتصوير هذه الحالة وبالمقارنة مع العقل، أي منذ هذه اللحظة ينتقل الطالب من حالة تلقي المعلومات والمعرفة الدلالية التي يمثلها الجانب الأيمن لدماغ الإنسان إلى الجانب الأيسر الذي يمثل مركز المحاكمة والتطبيق. وما أن ينتهي رئيس الجامعة من إعلانه بنقل الشُرابة حتى يقذف الطلبة المتخرجون بقبعاتهم إلى الأعلى فرحا بالقرار. فتتناثر القبعات في الهواء. وتنفجر القاعة بالتصفيق لاستقبال جيل جديد من قادة المستقبل.

لكن التخرج بالنسبة ل لينا هو أكبر بكثير من كل هذه الاحتفالية التي تدوم لعدة ساعات فقط. فحلمها كان كبيراً جداً ودام لأكثر من عشرين عاماً وتحول إلى حقيقة. وهدفاً كان يوما من ضروب المستحيل وتحقق. فالرحلة التعليمية بالنسبة ل لينا، والتي استمرت لما يقارب ال 16 عاماً، لم تكن رحلة اعتيادية مرت بمراحل طبيعية كتلك التي يمر بها أي طالب اعتيادي. ف لينا لم تكن كأي طالب اعتيادي. حيث إنها، ومنذ الولادة، ولدت والدماغ لديها منقوص الجسم الثفني، أو الألياف الثفنية التي تربط طرفي الدماغ عند الإنسان. والتي تعرف باللغة الإنكليزية باسم Corpus Callosum. ويشبه علماء التعليم الدماغ البشري بمدينة بودابيست عاصمة هنغاريا. والتي يقسمها نهر الدانوب إلى قسمين مختلفين، لكنهما متناغمين. بودا الريفية وبيست المدنية. ويربطهما جسر فوق النهر يسير بالاتجاهين. ومن غير هذا الجسر (الجسم الثفني) يصعب قيام العملية التعليمية المتكاملة عند الإنسان. وبالرغم من المستوى العالي من الذكاء عند لينا والنباهة والحذاقة التي تمتاز بها، لكن هذا وحده لم يكن كافياً لإتمام العملية التعليمية عندها وخلق وتطوير المهارات اللازمة لديها للتعامل مع متطلبات الحياة. فالتعليم لا يمكن أن يتحقق بشكل فعال إلا بتعاضد الطرفين في الدماغ عن طريق الجسم الثفني، أو من خلال ما يمكن أن يعوض عنه بشكل أو بآخر. ولهذا كان لا بد لنا كعائلة، أنا وزوجتي ليلى الطبيبة وابنتنا الكبرى لميس التي كانت مهتمة بالحقل التربوي والتعليمي منذ الصغر، إلا قبول التحدي ومواجهة كل العقبات. وبذل كل ما في وسعنا، وكل من موقعه، لدعم تعليم لينا في اختصاص يسهل عليها تعلمه وترغبه. وأيضا تأهيلها للتعامل مع متطلبات الحياة العامة. والتعليم بشكل عام يقوم على مبدأ التصور والتذكر. وكل ما يمكن أن يتصوره الأنسان يستطيع أن يتعلمه. وتؤكد الدراسات البحثية المتخصصة بان 95% من المعلومات التي يتعلمها الأنسان يخزنها في عقله كصور. ويسترجعها على شكل صور أيضا. هذا بغض النظر عن طبيعة المعلومات، عامة أو تفصيلية. وعلى سبيل المثال عندما نحاول أن نتذكر اسم شخص تعرفنا عليه قبل مدة، أول ما نتذكره هو شكله، لبسه، حركاته، الخ. وكذلك عندما يذكر أمامنا اسم مصر، أول ما يقفز إلى ذهننا صورة الأهرامات. أو صورة مصر على الخارطة. حتى وعندما نسمع أحداً يتحدث عن نظرية فيثاغورث، نسترجع صورة المثلث قائم الزاوية. ولهذا كان استخدام الصور والمرئيات والمقاطع الصوتية هي الحالة الأمثل لتعليم لينا. ولكنه كان علينا في البداية إقناع لينا بتقبل حالتها. وكذلك بأنه لا يمكن لها أن تكمل تعليمها في أي مجال كان إلا إذا استطاعت إن تعوض النقص

لديها والناجم عن غياب الجسم الثفني بقوة تحفيز مشابهة داخل الدماغ. وذلك كمن يخلق بيد واحدة. وعلية أن يقوي اليد الموجودة بحكم الضرورة بالتدريب والاستعمال المستمر لكي تقوم بمهام اليد المفقودة. وعلية كان لا بد ل لينا أن تفعل ما بوسعها للتعويض عن الجسر الذي يربط بين ضفتي النهر. وذلك بخلق أكبر عدد ممكن من العَبَارات والقوارب والطوافات، وحتى خشبات خلاص صغيرة، للعبور جيئة وذهابا بين ضفتي النهر. وهذا بالمفهوم الدماغي، وباختصار مُبسط، يتمثل بخلق وتنشيط الموجات الدماغية التي تساهم في نقل المعلومات بين طرفي الدماغ تعويضا عن الجسم الثفني ولو بالحد الأدنى الممكن عضويا. وهذا يمكن تحقيقه بالمنشطات الدماغية الطبيعية عبر التغذية الصحية والأدوية. وكذلك عبر القراءة المتواصلة والموسيقى والتصور والتأمل بشكل عام.

أكملت لينا كل متطلبات الشهادة بفضل الله ودعاء الأهل، ودعم الأصدقاء والمُحبين. وكذلك بمساعدة اساتذتها الذين وجدوا لديها الإصرار والمثابرة وحبها للأطفال ورغبتها الجامحة لكي تصبح معلمة، والتي تفوقت على جائحة كورونا. وفاق إصرارها على ذلك إصرار الفايروس على التوسع والانتشار. وجاء ذلك عبر رحلة طويلة وشاقة تخللها الكثير من العمل، والصبر، والقهر، والسهر. وتعمدت بالألم والأمل والدموع، وإلى ان تحول حلمنا وحلم لينا للحصول على شهادة جامعية إلى حقيقة. وبهذا حققت هدفا كبيرا في حياتها كان يوماً من ضروب المستحيل. فهي الآن تعزف البيانو بسلاسة ومنهجية. وتعزف على القيثار. وهي تتكلم بفصاحة وبلاغة باللغتين العربية والإنكليزية. وأيضاً تقود السيارة، وهذا ما كان هو المستحيل بعينه.

قبل ظهور كورونا بفترة، كانت لينا قد تقدمت بطلب رسمي إلى رئاسة الجامعة بان اسلمها أنا شخصيا الشهادة بدلاً من رئيسة القسم. وذلك لكوني والدها وأدرس في جامعة أخرى. وهذا تقليد متعارف عليه في مثل هذه الحالة، فوافقت الجامعة على ذلك. ولعدم القدرة على تنفيذ المهمة حضوريا وفي القاعة، استغلينا يوم المشمس، الأحد الثالث من أيار 2020، لتحقيق رغبة لينا. وتسليمها الورقة الرسمية التي صدرت من الجامعة، والتي تُعلمها فيها بنجاحها بالمادة الأخيرة وإكمالها متطلبات الشهادة ايذانا ببدء الممارسة. وخاطبتها بهذه الكلمات الموجزة بحضور مدرستها المفضلة الدكتورة ساندرا جونس:

أقف اليوم أمامك يا إبتي يملؤني الفخر ويكبر فيّ الاعتزاز. لأسلمك شهادتك التخصصية في مجال تعليم الأولاد الصغار، كما أحببتِ تسميتها. ولا أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن هذا الإنجاز العظيم. ففصاحتي قد تلاشت في ظل إصرارك ومثابرتك. وإنجازك العلمي هذا لا أستطيع مقارنته بأي إنجاز

عرفته طوال حياتي التعليمية. فعلى مدى عقدين من الزمن وأنا أخرّج الأساتذة من كل الفئات والدرجات. وأُسلمهم شهادات التخرج التي تؤهلهم للتعليم والتدريس بكفاءة وفاعلية في مجال اختصاصاتهم، والذين يقدر عددهم بالآلاف. وبالرغم من فخري واعتزازي بكل الطلاب الذين علمتهم وخرجتهم. لكنه لا يضاهي مدى فخري واعتزازي بك. فأنا اعتبر نفسي اليوم الأستاذ المُفضل والمحظوظ بتسليمك شهادتك. وبإمكانك الآن أن تزيحي شرابتك إلى الجانب الأيسر، ليس لأنه الجانب الأيسر للدماغ فقط، وإنما أيضا الجهة اليسرى من الصدر التي تحتضن قلبك الطيب والمُحب لكل الناس، وللأطفال الصغار بشكل خاص. ولا يساورني أدنى شك بأنك ستكونين من أفضل المعلمات في هذا المجال. وذلك لأن عقلك نَيّر ومُتقد على الدوام بالرغم من كل الكوابح. وقلبك كبير ومفعم بالحب والحياة. وهذا جل ما يحتاجه أي معلم مثلك للنجاح في مهنته. كما وأعتبر نفسي اليوم أسعد أبٍ في العالم. فمنذ اللحظة الأولى التي فتحتِ فيها عيناك على هذه الدنيا، وقبل أن نعرف بهذه المشكلة، رحبت بك وبانضمامك إلى العائلة. وقلت لك بأننا كنا ننتظر قدومك بشغف. ونحن جميعا نحبك. ووعدتك وأنا أقطع حبلك السري بأننا سنفعل كل ما نستطيع لدعمك ومساعدتك في هذه الحياة. وأن نُسخِرَ كل ما نملك من إمكانيات وطاقات لكي تصلي إلى أبعد حد يمكنك الوصول له، وكما تعهدنا بذلك لأختك من قبلك. وإننا على العهد باقون.

تسليم لينا شهادتها بحضور مدرستها الدكتورة ساندرا جونس *لينا بعد أن أزاحت الشرابة إلى الجانب الأيسر*

لميس.....

في عام 2016، وبينما كنت أتجول في أروقة الفضاء الأزرق، تقاطعت إحدى دروبي على موقع الفيسبوك مع درب فتاة اسمها **لميس**. فبالتأكيد شدني اسمها لأنها تحمل اسم ابنتي الكبرى. ولكن كنيتها هي ما أثارت فضولي وحفزت شغفي لمعرفة المزيد عنها. فسالتها على الخاص فيما إذا كان والدها يعمل في السفارة العراقية في بلغراد عاصمة يوغسلافيا السابقة عام 1976. فكان ردها بالإيجاب. وهذا ما أعادني بالذاكرة إلى تلك الفترة، أربعين عاماً إلى الوراء. فأنا كنت قد تعرفت على والدها في ذلك العام بالصدفة. وذلك عندما سافرت بدايةً إلى تشيكوسلوفاكيا، عندما كانت تشيكوسلوفاكيا دولة واحدة. وكنت في ذلك الوقت في رحلة كان من المُفترض أن تكون كلها سياحية واستجماميه في تشيكوسلوفاكيا فقط. إلا أنها بدأت سياحية في تشيكوسلوفاكيا وانتهت تسكعية في يوغسلافيا، وتأنيبية في العراق. والقصة باختصار: بعد أن تلبكت أوضاعي الدراسية في البداية في بغداد شعرت بالإحباط واليأس وفكرت بترك العراق والذهاب إلى مصر أو أي بلدً آخر يمكن أن أكمل فيه دراستي الجامعية. فاقترح عمي شبلي عليّ أن أذهب في رحلة استجمام لفترة أسبوع أو أسبوعين لتغيير الجو. فراقت لي الفكرة. واخترت في حينها تشيكوسلوفاكيا حيث كان يدرس فيها صديق لي منذ أيام الطفولة. وبقينا معاً على تواصل بالرغم من المسافات والصعوبات. وقررت أن أسافر من بغداد إلى براغ بالطائرة وأعود منها بالقطار. وذلك كي يتسنى لي مشاهدة بُلداناً أكثر. وبعد مكوثي حوالي أسبوعين في براغ، حجزت تذكرة طالب بالقطار من براغ إلى إسطنبول في تركيا. ومن ثم من إسطنبول بالحافلة إلى الموصل في العراق، وبعد الموصل إلى بغداد. وعلى أمل التوقف قبل ذلك في أثينا لزيارة صديق كان يعيش ويعمل هناك كملحق ثقافي في السفارة العراقية. غَيّرت القطار في فينا، عاصمة النمسا. وكنت أجلس لوحدي في عربة تتسع لأربعة أشخاص. وعندما توقف القطار في أول محطة بعد النمسا في يوغسلافيا، صعد إليه العديد من الركاب. وكان من بينهم ثلاثة شُبان عرب، عراقي ومصري. والثالث أعتقد بأنه كان من أحد دول المغرب العربي، على الأرجح من الجزائر. فسألوني فيما إذا كان بإمكانهم أن يجلسوا معي في نفس العربة، فوافقت مدفوعاً بالنخوة العربية. وكان الوقت بعد العشاء بقليل. وكنت مُتعباً من السهر قبل يومين والسفر الطويل. فنمت ويدي مُطبقة على حمالة محفظة كان تحتوي على جواز سفري ومعظم ما كان لديَّ من نقود، وهي كانت قليلة بالأصل. وعندما صحوت في الصباح

الباكر لم أجد لا المحفظة ولا الشباب العرب. فأدركت على الفور بأنني قد تعرضت للسرقة. ففتشت وبحثت وصرخت، ولكن لا حياة لمن تنادي. فمن ضرب، ضرب، ومن هرب، هرب. وكانت المحطة القادمة هي آخر محطة في يوغسلافيا قبل العبور إلى اليونان. وبعد الأخذ والرد مع المسؤول عن الركاب في القطار، كان عليّ أن أتحذ قراراً مهما، إما بالعبور إلى اليونان من غير جواز سفر أو نقود مع احتمالات السجن والتسفير أو العودة إلى بلغراد وتَدبُر الآمر. فاخترت الخيار الثاني لأنه كان الأفضل، بالرغم من أنه كان الأطول من حيث المسافة والأكثر مشقة بسبب تبعات الوصول إلى بلغراد. وكان يوم جمعة صباحا. وبعد طردي من كل القطارات الراجعة إلى بلغراد بسبب عدم وجود إثبات شخصية أو نقود معي لدفع الأجرة. وكنت أنتقل من محطة إلى أخرى، وإلى أن يكتشف الجابي امري ويطردني من القطار في محطة توقف القطار التالية. ووصلت إلى بلغراد قبل منتصف الليل بقليل. وكان عليّ أن أتقدم للشرطة في المحطة الرئيسية ببلاغ وتسجيل ما حدث. وبعد جهد جهيد استيقظت الشُرطية من نومها في مخفر شرطة المحطة. وكتبت لي البلاغ بعد أن ما بدى بأنه تفاهم بيننا بقليل من الإنكليزية في حينها وبعض العربية من جانبي واليوغسلافية من جانبها، وكثير من الإشارات والإيماءات. وأعطتني نسخة من البلاغ. وعندها سألتها إلى أين سأذهب لأنام، فأومأت بسبابة يدها اليمنى إلى رصيف المحطة حيث كان يتشلقح الكثير من المتسكعين القادمين من كل الأصقاع. وكان عليّ أن أنام في المحطة ليلتين وإلى أن تفتح السفارة العراقية يوم الإثنين صباحا. وذلك لأنني كنت أحمل جواز سفر عراقي. وهكذا فعلت وتدبرت أمر الأكل والشرب بعشرة دولارات كنت أحتفظ بها في جيبي لوقت الحشرة. وها هو وقت الحشرة قد فرض نفسه. وما أن أشرق صباح يوم الإثنين حتى ذهبت إلى السفارة وأنا مُحتار في أمري كيف لي كسوري أن أقنع موظفاً بيروقراطيا عراقيا بما حصل وأطلب المساعدة منه إلى أن يأتي الفرج من بغداد. وإذا بالحاجب يدخل إلى الداخل ليعود ويطلب مني أن أرافقه إلى مكتب في وسط الطابق. وكان مكتب السيد أبو لميس. وبعد أن أخبرته مَن أنا وبقصتي وما حصل معي، صدقني الرجل. وكَفلني بمبلغ دين من السفارة يسد الحاجة ليومين أو ثلاثة كي يذهب الطلب إلى بغداد ويعود بالقرار لإصدار جواز سفر وصرف مبلغ يؤمن لي العودة. ولكن الثلاثة أيام استمرت لثلاثة أسابيع. وذلك لأن كل من كان يمكن أن يساعدني في بغداد في التعامل مع هذا الوضع، كان قد قرر السفر إلى خارج العراق في تلك الصيفية. فما كان من السيد أبي لميس إلا أن تبرع وكفلني بمبلغ آخر في الوقت الذي ليس لدية ما يثبت شخصيتي ويؤكد روايتي، إلا صدق كلامي وفراسته. وبعد

أن حصلت على المبلغ من أبي لميس، كانت تلك هي الليلة الأولى التي أتعشى فيها في مطعم وأنام على سرير في فندق منذ حوالي أسبوع. وانتهت القصة بعد ثلاثة أسابيع بتحويل المبلغ المستدان إلى السفارة، والذي كان أبو لميس قد كفلني به. وكذلك ثمن بطاقة سفر للعودة وأمر بإصدار جواز مرور لي نافذ لسفرة العودة فقط. لقد وصل السفارة حقها، كما وصل السيد أبو لميس حقه. وأنا شعرت بالفرج والفرح. الشكر الكبير والتحية لأبي لميس الذي وثق بي وكفلني. أتمنى له دوام الصحة والعافية والعمر المديد. وكذلك الشكر والامتنان العميق ووافر الاحترام لعمي الفاضل أبو بشار شبلي الذي تكفل بتسديد المبلغ عني. وأتمنى من كل قلبي أن يأتي اليوم الذي أستطيع أن أرد لأبي لميس ولو قسطا من هذا الدين المعنوي. علما بأنني وعندما كنت في المطعم في "عشاء الستيك" قد قطعت العهد على نفسي بأنني إذا ما تزوجت يوما ما ورزقني الله بأبنة سأسميها لميس عرفاناً مني للسيد أبو لميس. وعندما وُلِدت أبنتنا الكبرى في عام 1992، أي بعد 16 عاما على الواقعة كان أسمها جاهزاً، لميس. وكان الاسم مُحبباً لي ولزوجتي، ليلى. ولقد أصبح اليوم عمر ابنتنا لميس 30 عاماً. وقد تخرجت في الجامعة وحصلت على شهادتي ماجستير. إحداها في التخطيط التربوي. والأخرى في الإرشاد التربوي والاجتماعي والعلاج النفسي. وهي تعتزم البدء في برنامج الدكتوراة بعد فترة وجيزة من مزاولة المهنة. ولا يراودني أدنى شك بنجاحها في دراستها ومهنتها. وأنا فخور بها إيما فخر. فهي بالنتيجة واحدة من الجيل الواعد الذي سيحمل راية العلم والمعرفة ويسير بها قُدماً وإلى أن يستلمها جيل آخر. كما وأتقدم بالشكر الجزيل ل لميس أبنة "أبو لميس" وأتمنى لها كل التوفيق والنجاح في حياتها. ولن أنسى أبداً بأنني مُدان لها باسم ابنتي بالدرجة الأولى.

مع ابنتي لميس عندما انتخبت الوصيفة الأولى لملكة جمال مدرستها لعام 2011

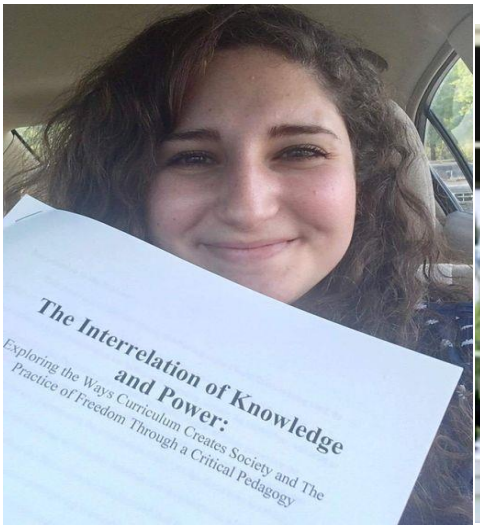

في الصورة الأولى تظهر لميس وليلى. وتشير فيها لميس إلى الشرابة التي استخدمتها في حفلة تخرجها للبكالوريوس عام 2017. وهي نفس الشرابة التي استخدمتها والدتها قبل 30عاما عندما تخرجت في كلية الطب، وهذا تقليد مُتبع للتعبير عن التواصل بين الأجيال عبر التعليم. في الصورة الثانية لميس تُري عنوان رسالتها لنيل شهادة الماجستير الأول.

نافذة الأمل

إذا لم نزرع الأمل لأبنائنا، لن يحصد أحفادنا إلا الخيبة. لقد أَمضيّتُ ما يقارب النصف قرن من عمري في بلاد الاغتراب، أتنقل من بلد لأخر. وبقيت طوال الوقت أُطارِدُ الأمل في صحراء اليأس، وانشد الحرية في شتى أصقاع الأرض. وكنت دوماً أحلم بوطنٍ لا تفرضه الحدود المُصطنعة، بل وطنٌ ترسمه الإرادة المشتركة للمواطنين، وطنٌ لا يكون صك ملكيةٍ للحاكم، بل هويةً شخصية للمواطن. لقد عشت عمري أحب الحياة بكل تفاصيلها، وأُقَدِسُ مبدا الحرية فيها. وأُحبُ الطبيعة بكل فصولها. الشتاء بعطائه، والصيف بدفئه. وأعشق الربيع بجماله وعَظَمتِهِ، فالأرض فيه تثور على نفسها. وتتفتح فيه الورود والأزهار، وتتدفق المياهُ غزيرةً في الجداول والأنهار. وفي الخريف، لا أستطع إلا أن أنحني أمام عظمة أوراق الشجر التي تلبس حللاً بهيةً ملونةً قبل سقوطها. فهي تأبى أن تسقط إلا وهي جميلة. فاتحةً الطريق أمام جيلٍ جديدٍ من الورق الغَضّ النَديّ، الذي يزهر في ربيع أخر. وهذه هي ديمومة الحياة، جيل يذهب وآخر يأتي. ولهذا **الأجيال لا تموت.**

قد أتقاعد من الوظيفة يوماً، لكنني لن أتوقف أبداً عن العمل، ولا عن التفكير ولا الحب، أو الأمل. حيث **يبدأ عقل الإنسان بالضمور عندما يتوقف عن التفكير، ويضعف قلبه عندما يتوقف عن الحب، ويموت عندما يتوقف عن الحلم.** فأنا من عاش جُلَّ حياته كمفكرٍ حالم، وعاشق هائم، وحالم بلا حدود. لهذا سأضل أعمل بجدٍ واجتهاد، وأقدم كل ما عندي. ويظل يحدوني الأمل بغدٍ أفضل ما حُييت، وأن **أعيش بقية حياتي مليئاً إلى أقصى طاقتي. وعندما أموت، أتمنى أن أموت فارغاً***

---

* عبارة **أموت فارغا** مُستوحاة من عنوان كتاب **"مُت فارغاً" (Die Empty)** للكاتب **الأمريكي تود هنري**، والذي استوحاه هو من فكرة **"إن أغنى بقاع الأرض في العالم هي المقابر."** وذلك لأنها تختزن في داخلها أناساً كانوا قد ماتوا قبل أن يحققوا كل طموحاتهم وأحلامهم، ويستخدموا كل ما كان لديهم من أفكار وإمكانيات.

كلمة أخيرة لا بد منها

أنا اليوم مواطن أمريكي وأحمل الجنسية الأمريكية. ولي في الولايات المتحدة ما لي من حقوق وعليَّ ما عليَّ من واجبات بحكم القانون فيها. وحرية التفكير والتعبير في الولايات المتحدة هي حق شخصي يكفله القانون. ولهذا أفكر بحرية، وأعبر بحرية. وما أكتبه هو من نتاج أفكاري، وملكي. لم يَمنحُني إياه أحد، ولن يستطع بغير القانون أن يصادره مني أحد. **وسأستمر في الكتابة عن الحرية مدى الحياة، وسيبقى سلاحي هو القلم، وستظل كلماتي في الدفاع عنها أقوى من الرصاص.**

تحية حب وعرفان

أخصُ بالدرجة الأولى بالشكر والمحبة والعرفان جدي أبو علي سليمان. الذي تَعلمتُ منه الدرس الأول في والوطنية والنضال، وعرفت منه ماهية التضحية والفداء. وأيضاً جدتي أم علي زيده التي تعرفت من خلالها على الله، وعرفت بأنه حق، وخير، وصدق، ومحبة. واللذان رَبيّاني صغيرا واحتضناني في دارهما وقلبيهما. ورحلا إلى العالم الآخر قبل أن أعود إلى تلك الدار بعد غربة قسرية عن سورية دامت لثلاثة عقود ونيف. فلروحيهما السلام.

والشكر والامتنان والمحبة ممتدة أيضاً إلى والدي أبو كمال شكيب ووالدتي أم كمال فوزية اللذين تعايشا وتآخيا معي في أحرج مرحلة في حياة الشاب، مرحلة المراهقة. وأيضا لصبرهما وتحملهما قساوة غربتي وتكبدهما المشاق التي نجمت عنها. فلروحيهما السلام. والشكر ممتدٌ أيضاً إلى أخي الأكبر وصديقي كمال الذي عشت وإياه طوال فترة الطفولة والمراهقة وابتعدت عنه في فترتيّ الشباب والرجولة. وعُدنا واجتمعنا في فترة الكهولة. وإلى أخي الأصغر أيمن وأخواتي أنعام ورحاب الذين كانوا جميعهم صغاراً عندما غادرت سورية، ولم يتسنَ لي ولهم التعرف على بعض بالقدر الكافي في المرحلة التي كنا فيها أحوج ما نكون لبعضنا. وكذلك إلى شقيقتي الصغرى ميادة. والتي كانت هي، بحكم عمرها الذي تزامن مع غربتي، بمثابة الرمز الذي كان يُذِكرُ أهلي بطول غربتي. ويذكرني بالبعد عنهم. لها كل الحب والتقدير على تَحمُلِ هذا العبء الثقيل. وكذلك لرعايتها والدينا قبل وفاتهما. لها مني كل التقدير والاحترام. ولقد وافتها المنية قبل أن تلتحق بي لتعيش معي في الولايات المتحدة بعد وفاة والدينا، كما كان مقرراً. أطلب من الله أن يتغمدها بواسع رحمته ويُسكنها فسيح جناته. وأن يعوضها في دنيا الآخرة ما حرمتها منه الحياة الدنيا.

أتوجه بالشكر والعرفان إلى عمي أبو بشار شبلي العيسمي الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي ونائب الرئيس الأسبق للجمهورية العربية السورية، ولعائلته الكريمة الذين احتضنوني وفتحوا لي بيتهم. وساعدوني مادياً ومعنوياً طوال فترة وجودي في العراق لأكثر من سبع سنوات. لقد كان عمي شبلي هو القدوة والمثل، وستبقى ذكراه نبراساً للأمل.

كما وأتوجه بالشكر والتقدير إلى حَماي أبو العربي حمود الشوفي الذي أمضى حياته مناضلاً جسوراً في حزب البعث. وكان أول وأصغر أمين قطري مُنتخب للقيادة القطرية لحزب البعث في سورية عام 1964. وهو الذي ذاق ما ذاق من السجن والتشرد في سبيل مبادئه الوطنية والقومية. وكان يحلم بالعودة والوصول بسورية إلى وطن تسوده الحرية والديمقراطية، ولكنه قضى في ديار الغربة دون أن يُبصرَ أياً منها. فهو بهذا يُعتبرُ شهيد الحرية الذي سقط من غير دماء. فإلى روحه السلام. وكل الحب والتقدير أيضاً إلى حماتي أم العربي، وداد عزام، والعائلة العزيزة التي فتحت لي قلبها وبيتها وأدخلتني إليها. ووجدت فيها عائلة جديدة في الوقت الذي لم أكن أستطيع التواصل مع عائلتي.

وأخيراً، وليس آخراً، أتوجه بالشكر والمحبة لزوجتي الدكتورة ليلى حمود الشوفي وابنتاي لميس ولينا الذين احتضنوني في قلوبهن وأحبوني ودعموني بلا تردد طوال فترة وجودي معهم. والذين طالما مَثلوّا لي مصدر فخرٍ واعتزاز بتفوقهم ونجاحهم وتجاوزهم كل الصعاب في سبيل الوصول إلى أهدافهم وتفانيهم وإخلاصهم في مجال عملهم. وهذا التقدير ممتدٌ أيضاً إلى كل أبناء وبنات أخوتي وأخواتي من الجيل الجديد في عائلتي الكبيرة، وكلٍ في موقعه.

بطاقة شكر وامتنان

أقدم جزيل شكري إلى كافة الأهل والأقارب والأصدقاء في سورية لمحبتهم الغامرة التي أحاطوني بها خلال زيارتي الأولى لها وحدي عام 2007، ولاحقا مع بناتي عام 2010. وأيضاً إلى كافة الرفاق والزملاء من العراق، وعلى امتداد الوطن العربي. وذلك لدعهم ومساندتهم لي طوال فترة حياتي في الوطن والغربة، والتي امتدت لما يقارب نصف القرن.

وأيضا، أتقدم بالشكر والعرفان لكل أساتذتي الذين علموني في مدارس سورية. وأولئك الذين علموني في جامعة بغداد والجامعات الأمريكية، الأحياء منهم والأموات، فمن علمني درساً حفظت له العهد دهراً. وكذلك لا بد لي من أن أتقدم بالشكر والتقدير لكل المؤسسات التي عملت فيها بعد تخرجي الجامعي. وتعلمت فيها قيم العمل والإخلاص، وأغنت تجربتي المهنية وطورتها. وبشكل خاص جامعة تروي في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي مضى على تدريسي فيها أكثر من عشرين عاما. وذلك للدعم الكبير واللامحدود الذي لقيته فيها وما زلت، والذي منحني الثقة لأدلي بدلوي في المجال العلمي على صعيد الولايات المتحدة والعالم.

كما وأود أن أتقدم بالشكر الخاص وعظيم الامتنان إلى السيدة سلوى عزام مربية الأجيال التي راجعت هذا الكتاب وأغنته بملاحظاتها القيمة، والتي وافتها المنية قبل أن يُبصِرَ النور. رحمها الله وطَيّبَ ثراها. ولروحها المحبة والسلام. والشكر ممتدٌ أيضاً لصهرنا الأستاذ منير العيسمي لتدقيقه اللغوي للكتاب، وللصديق الأديب والروائي فوزات رزق لتنقيحه والتعريف به. وهذا ما يعطي الكتاب ميزةً خاصة. وذلك لأن الأستاذ فوزات هو أول من كتب قصة **"عواد الحمد"**، جدي أبو علي سليمان العيسمي، رجل المهمات الصعبة، والذي ورد ذكره في أول الكتاب.

إلى كل هؤلاء عظيم محبتي وجزيل شكري وتقديري.

شهادة أَعتزُ بها من مربية الأجيال السيدة سلوى عزام

ولدنا العزيز رياض

عندما أقرأ ما تكتبه أشعر براحة وأنعم بالاطمئنان لأنني أرى
شاباً أمامي، عامر بهموم أمته، حريصاً على مستقبل أجيالها
محاولاً وضع الخطوط العريضة لإنقاذها من الشلل
الذي هي فيه.

لن ينقذ بلدنا شيء سوى العلم يا
عزيزي رياض، كما يجب أن نتعهد أبناء أمتنا
بالرعاية جيلاً وراء جيل حتى يصيروا شباباً
قادرين على أن يخوضوا معركة الحياة بشجاعة،
يملؤون الدنيا علماً ومعرفة. فعملك عظيم يماثل
عمل المناضلين في ساحات الوغى ويتطلب
جهود جميع المخلصين لأمتهم.

وكما قلت لي سابقاً: ليبق الأمل دائماً في عينينا
لكي نستطيع الرؤيا وسط دياجير الظلام.

[illegible]

حصاد العمر

مُلخص السيرة الذاتية

مُلخص السيرة الذاتية

رياض شكيب سليمان حمد العيسمي، مواطن أمريكي من أصل سوري من مواليد عام 1955. وُلدت في قرية امتان التابعة لمحافظة السويداء السورية. نشأت وترعرعت في دارٍ عُرفت بانتمائها الوطني وانخراط أبنائها في العمل السياسي. أكملت الدراسة الابتدائية في مدرسة امتان الرسمية، والدراسة الإعدادية والثانوية في ثانوية ابن العميد في دمشق. وحصلت على بكالوريوس في الإخراج المسرحي من أكاديمية الفنون الجميلة في جامعة بغداد، بغداد، العراق عام 1980، ماجستير في علوم التربية الاجتماعية من جامعة توسكيكي، Tuskegee University توسكيكي، ألاباما في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1983، ودكتوراه في تكنولوجيا التعليم من جامعة واين ستيت Wayne State University ديترويت، ميتشغان في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1988. عملت كمدير، خبير، ومستشار في مجالات التدريب والتوظيف والتطوير بين عامي 1986 و2001. وبدأت العمل كأستاذ محاضر في تكنولوجيا التعليم في جامعة تروي Troy University، تروي، ألاباما في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع عام 2001. وأصبحت أستاذاً مساعد بدوام كامل في مطلع عام 2003، وأستاذ زميل مُثبت عام 2009. مُنحت درجة أستاذ (بروفيسور متمرس) عام 2018. خلال العشرين عاماً الماضية في الجمعة، عملت منسق برنامج ورئيس قسم. وأشرفت على تدريب الأعضاء الجدد للهيئة التدريسية. أُنتخبت لعضوية كل اللجان المهمة في الجامعة كلجنة التدريب والتطوير، لجنة العلوم والتكنولوجيا، لجنة التخطيط والمناهج، لجنة ترقية وترفيع أعضاء الهيئة التدريسية، المجلس الأكاديمي الأعلى، ومجلس شيوخ الجامعة. ولا أزال حتى اللحظة عضواً في لجنة التخطيط وتطوير المناهج، ورئيس اللجنة الفرعية لاختصاص تكنولوجيا التعليم. أحد رواد التعليم على الإنترنيت في الجامعة، وأصبحت لاحقاً عضواً استشارياً في فريق التخطيط والتصميم التعليمي والتعليم على الإنترنت. ساهمت في تأسيس برنامج الدكتوراه في التعليم العالي وإدارة المؤسسات العالمية (Higher Education & Global Leadership)، وعُينت عضواً في لجنة القبول لهذا البرنامج، وعضواً في فريق الإشراف على برنامج التطبيق (Internship) لطلبة الدكتوراه داخل وخارج الولايات المتحدة، وتم اختياري لأكون أحد المُشرفين على أطروحات الدكتوراه.

رُشحت لجائزة أفضل أستاذ في الجامعة لعام 2021-2022.

صدر لي أربعة كتب منشورة باللغتين العربية والإنكليزية. ثلاثة منها باللغة العربية. الأول بعنوان "أوباما يرتحل والشرق الأوسط يشتعل"، والذي صدر في بيروت مطلع عام 2017. والكتاب الثاني بعنوان "الولايات ومآلات الصراع على الشرق الأوسط: التنافس الجيواستراتيجي والنظام العالمي الجديد"، الذي صدر في نيويورك منتصف عام 2022. ومن المقرر أن تصدر ترجمة له باللغة الإنكليزية مطلع عام 2024، وتزامناً انطلاق حملة الانتخابات الرئاسية. وكان قد صدر لي أيضاً هذا الكتاب "الأجيال لا تموت" في 15 آذار، 2023.

وفي مطلع عام 2020 كان قد صدر لي كتاب علمي باللغة الإنكليزية بعنوان:

Utilizing a 5-Stage Learning Model for Planning and Teaching Online Courses

صدر عن مؤسسة IGI العالمية في الولايات المتحدة. وتم اعتماده كجزء من المنهاج المقرر في الجامعة التي أدرس فيها لمادة تصميم وتطوير التعليم الإليكتروني لطلبة الماجستير.

ولدي أيضا كتابين علميين آخرين قيد التأليف، وهما:

كتاب منهجي بعنوان:

eLearning Design and Development

الموعد المتوقع للنشر مطلع عام 2025.

والكتاب الثاني حول أهمية الصورة والتصور في التعليم. ويقوم على أساس العقل المُبرمج والتعليم المُمنهج، أي أن كل ما يمكن أن يتصوره عقل الأنسان يستطيع أن يتعلمه. وهو بعنوان:

The Power of Visualization in Learning

الموعد المتوقع للنشر مطلع عام 2026.

قدمت العديد من المحاضرات العلمية في مؤتمرات وندوات أمريكية وعالمية. ولي أيضاً أكثر من 25 دراسة وورقة بحث ومقالة علمية منشورة في مجلات علمية أمريكية وعالمية. وأيضاً أكثر من 100 مقالة وتحليل سياسي واستراتيجي. نُشر معظمها في عدة مجلات وصحف عربية وعالمية.

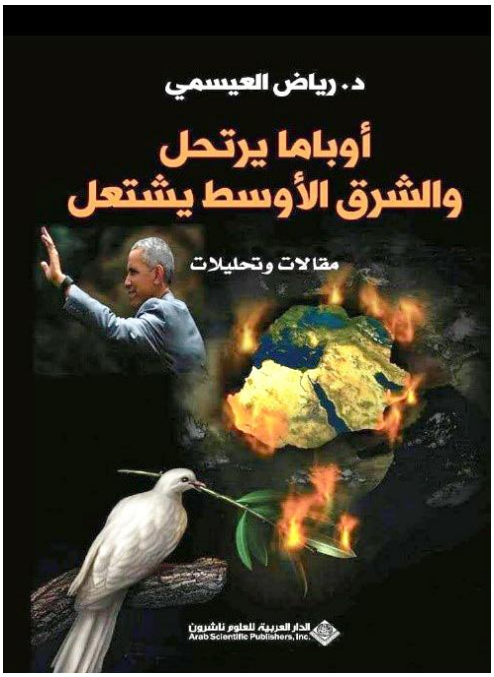

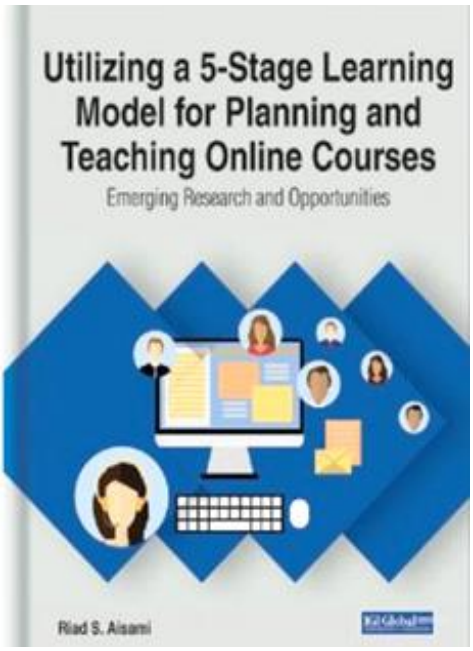

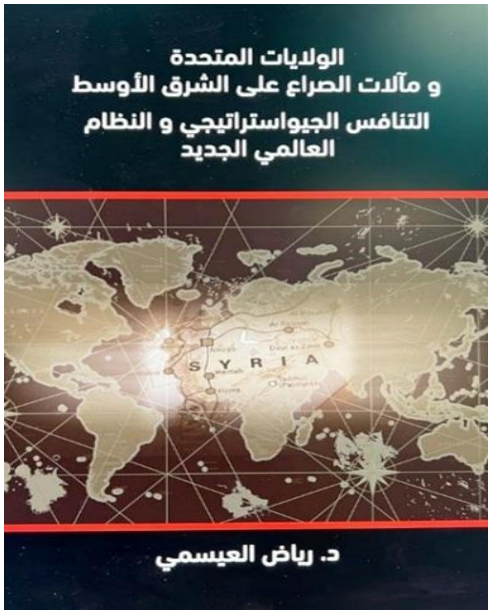

أربعة كتب صدرت خلال ست سنوات

أ

من أرشيف الذاكرة

أهم محطات السيرة الذاتية بالصور

عندما بدأت العمل مع المجلس العربي الأمريكي للخدمات الاجتماعية في ديترويت عام 1986

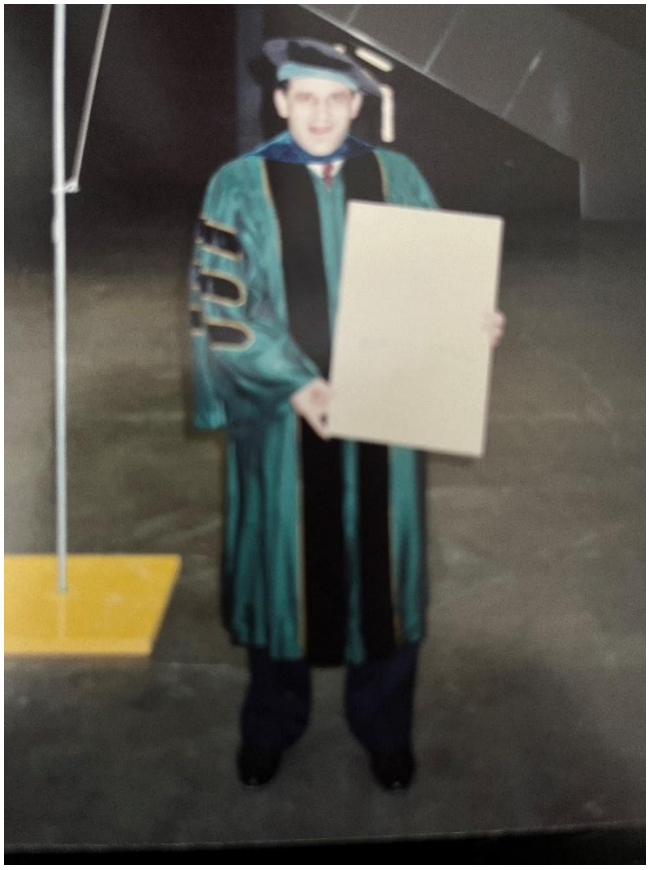

بعد حفلة التحرج وحصولي على شهادة الدكتوراة عام 1988

1990 مع حاكم ولاية ميتشغان جيمس بلانشارد وزوجته جانيت خلال حملة لجمع التبرعات لإعادة انتخابه. أعيد انتخابه، وأصبح لاحقا سفيراً للولايات المتحدة في كندا في أول عهد الرئيس بيل كلينتون.

تمثيل مركز العيسمي لأول مرة في مؤتمر للتدريب والتوظيف على صعيد الولايات المتحدة عام 2000

من افتتاح أول فرع رسمي لجامعة تروي في مدينة أوغستا في ولاية جورجيا، أنا مع الواقفين، الأول من اليسار عام 2003.

مع ثلاثة من الزملاء أعضاء الهيئة التدريسية في فرع الجامعة في أوغستا بعد تخريج دفعة جديدة من الطلبة عام 2010

من حفلة مراسم افتتاح فرع جديد لجامعة تروي في مدينة أوغستا، جورجيا في عام 2016

في عام 2017 خلال الندوة التعليمية والتربوية التي أُقيمت في جامعة أوكسفورد في المملكة المتحدة،

ومثلت الجامعة فيها. ويظهر في الوسط بالقميص الأزرق مدير الندوة:

البرفسور ديفيد مارتن العميد المتقاعد لكلية التربية في جامعة أوكسفورد. ويظهر بجانبي، وبيننا، البرفسور ديفيد الكسندر العميد السابق لكلية التربية في جامعة شمال فيرجينيا. وعلى الجانب الآخر من اليمين يقف مدير مركز تدريب الأطباء التابع لجامعة نيويورك.

أظهر في الوسط من أمام كلية التربية في جامعة تروي مع أعضاء الهيئة التدريسية للكلية

بمناسبة الاجتماع السنوي للجامعة عام 2018

الصورة التقطت خلال المؤتمر السنوي للجامعة عام 2022 أمام المدخل الخلفي لكلية التربية

في جامعة تروي، وهي تحمل اسم رئيس الجامعة جاك هوكينز،

هذا الكتاب

قدر السوريين أن يحملوا بلدهم معهم حيثما يسيرون وأينما يستقرون. ربما لا ينفرد السوريون عن غيرهم من شعوب الأرض بهذا النزوع إلى مهاد الطفولة ومرابع الصبا. بيد أن هذا النزوع يشتد لظاه، ويستعر أواره حينما يقف المرء على بوابة الوطن دون أن يستطيع الدخول كي يكفكف دموع أم تقرحت أجفانها شوقاً إليه، أو ليطفئ حرقة قلب أب يعيش أيامه الأخيرة متمنياً أن تكتحل عيناه برؤية ولده قبل غروب الشمس.

لقد خرج الدكتور رياض العيسمي من سورية وهو في ميعة الصبا، دون أن يدرك أن خروجه كان شبه أبدي، وأن الدخول من الباب الذي خرج منه دونه الفناء في غياهب السجون. وكان قد حُرم من العودة إلى سورية طوال أكثر من أربعة عقود. في هذا الكتاب نقرأ سيرةً شخصية تحاكي سيرة الوطن. فيها من الحنين للوطن والأهل بقدر ما فيها من اللوعة والألم حينما لا يستطع المغرَّب عن وطنه أن يلقي نظرة الوداع على الأب والأم وغيرهم من الأهل والأصدقاء الراحلين بالتواتر. فلا تلوموا من يحترق شوقاً لرؤية وطنه. لأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلى من يعانيها. والدكتور رياض عاش هذه المعاناة بكل تفاصيلها، وعبر عنها أصدق تعبير.

فوزات رزق

أديب وروائي من سورية